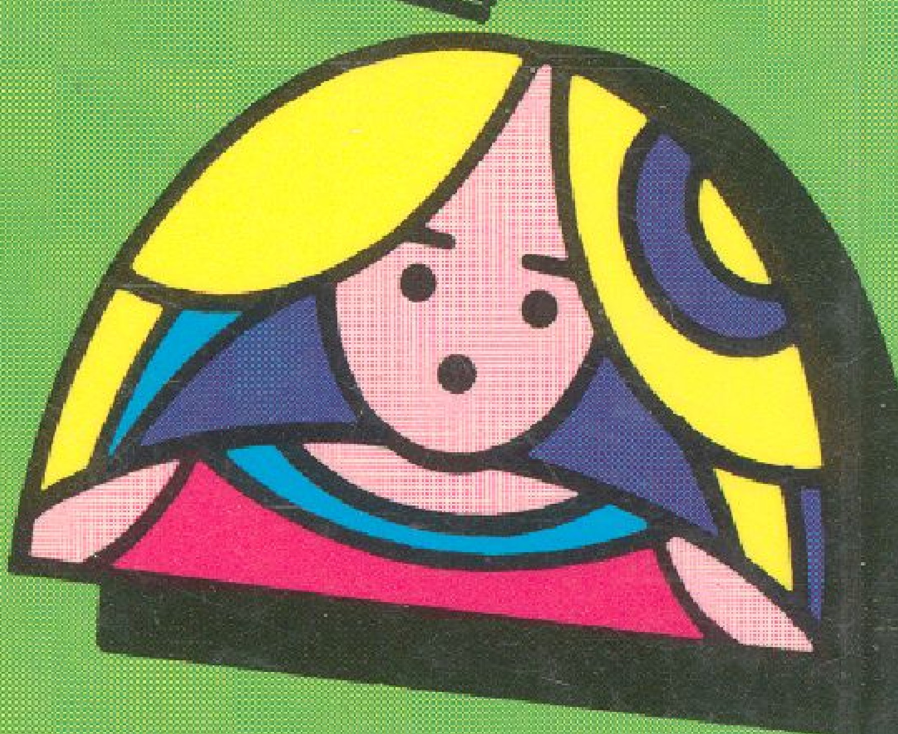
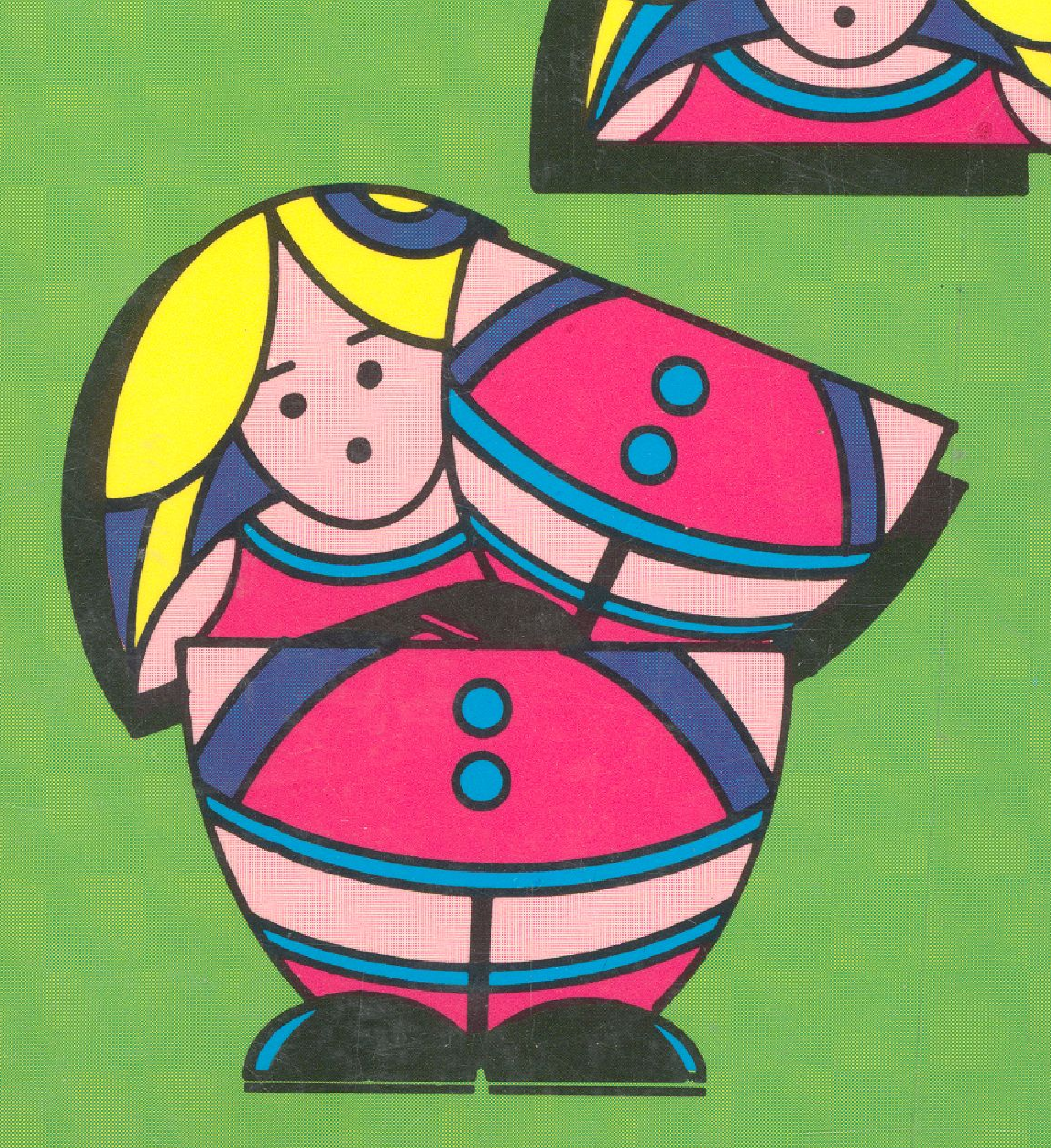
شرائط ملوّنة

من حياتي

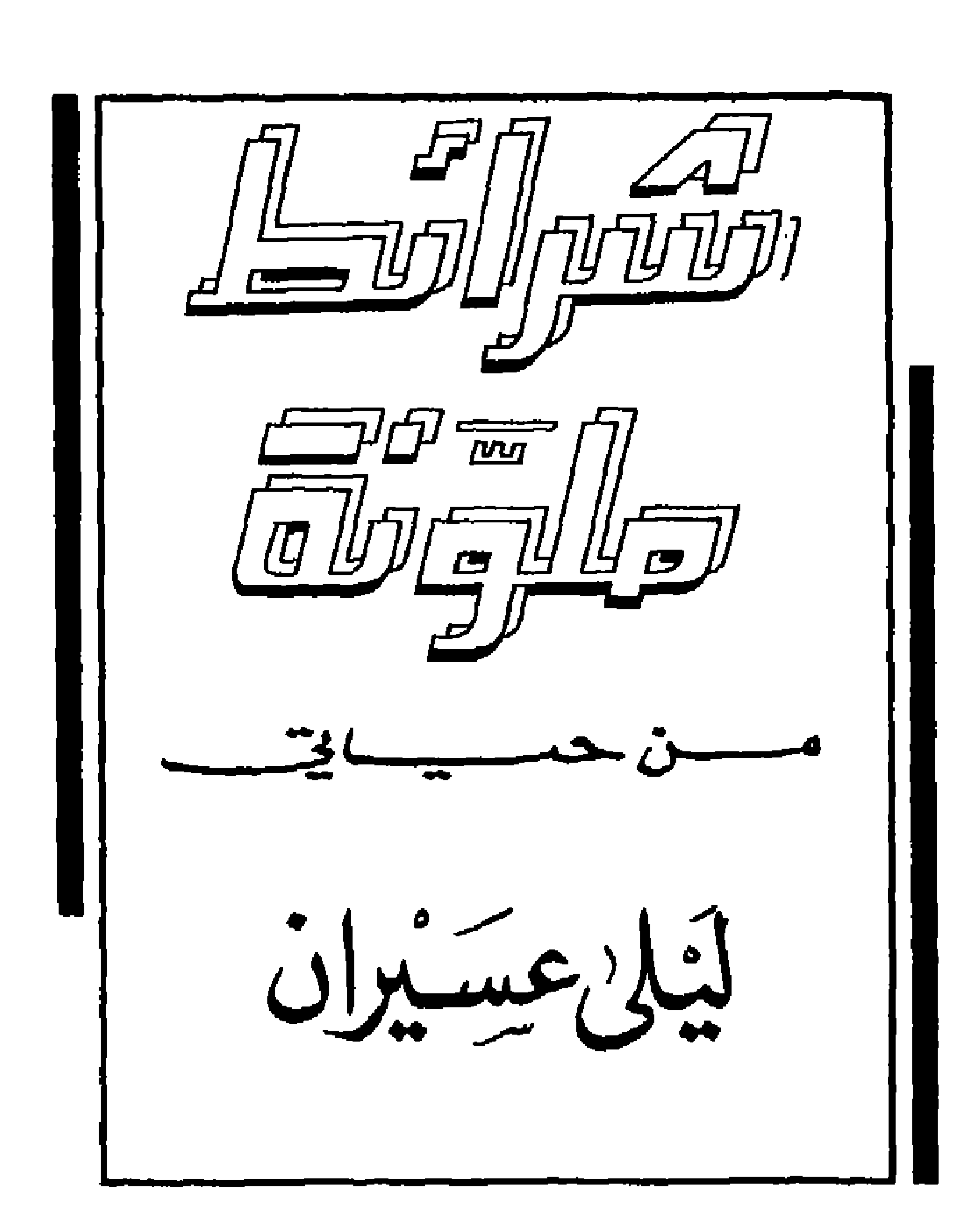
ليلى عسيران

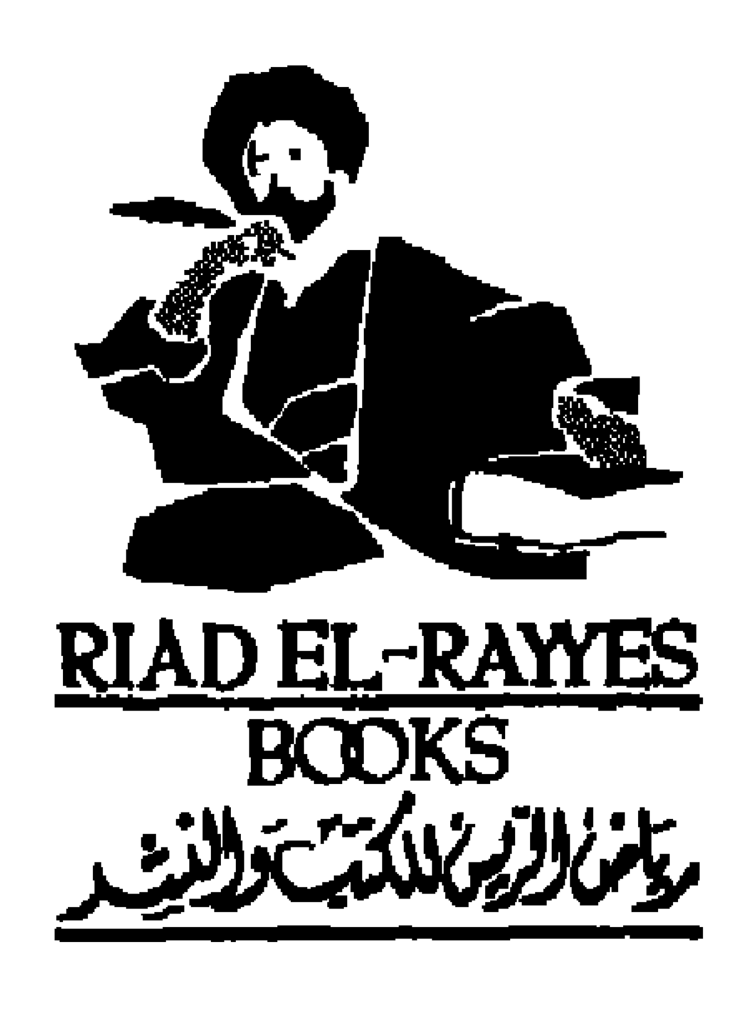





رياض الريس للكتب والنشر

شرائط ملوّنة

من حياتي


شرائط
ملونة
من حياتي
ليلى عسيران


RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

الإهداء

إلى أمين: لولاه لما كانت حياتي هكذا.
إلى رمزي: لولاه لما كتبت هذا الكتاب

ليلى

COLOURED RIBBONS

BY

LEILA OSSAYRAN

First Published in the United Kingdom in 1994

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-262-1

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٤

المحتويات

شرائط ملوّنة

المقدمة

حافلة كانت سيرة حياتي، لكني لم أسردها كلها بين طيات هذا الكتاب. لقد انتقيت منها ما أثّر بي، ورويته بذاكرة انطباعية مليئة بحنين وجداني. لم أكترث بالحيثيات اليومية، واخترت وقفات أعتقد أنها مهمة لامرأة مرت بتجارب غير عادية في حقبة تاريخية مترعة بالأحداث، وبالأفئدة المتحمسة التي لاحقت الحدث وانفعلت به بشعور يفوق عظمة الحب بين الانسان والآخر.

إحباطنا الأول كان مأساة فلسطين، ورثناه وعشناه بعيون حائرة في الثامنة والأربعين. ثم انطلقنا نفتش عن الحل، وفتحت لنا الأحزاب مداخيلها، فدخلنا الباب العربي بشغف وصفاء، ابتدأ في بيروت ودمشق والقدس، وطغى على كافة المواقف العربية من المحيط إلى الخليج. فقلبنا، قلبنا ووجداننا، وهدفنا كان واسعاً هكذا!

وأنا لا أملك ذاكرة سردية وفية للتأريخ، بل هي أقرب ما تكون إلى الذاكرة الانطباعية، المهم في أحداث حياتي ليس الحدث بذاته، بل كيف أثّر على مسار حياتي وعلى ذاكرتي ولماذا. وفي سيرتي انطلاقات عفوية، كانت جامحة، مخلصة، صافية، نقية، انطلقت وتفاعلت وعملت بلا حساب، وبدون أي طموح لمأرب شخصي. شغفت بالعطاء من أجل لذة العطاء. زرع جيلي في

الأرض العربية التسامي المتدفق بعطائه دون مقابل، ونهضت أنا من نفس تلك الأرض انسانة مسيسة، متفانية في المسلك الوطني.

وكانت حياتي الشخصية متأثرة بالمسيرة الوطنية إلى أقصى حد، فقد ظل القياس الوطني للفرد عندي هو «ال» مقياس بدون منازع. ودخلت الحياة السياسية بعد زواجي من حيث لا أدري، ولعلي مررت بأصعب المواقف وأخطر الهواجس عندما كان خط الدولة يختلف عن الهدف الوطني، ولا أتذكّر يوماً أني تردّدت في الاختيار الوطني وترجيحه على مقاييس الدولة، لا لشيء، إلّا لأني ظللت أؤمن أن هدفي السياسي يعمل في الجوهر من أجل الدولة القادرة على تنفيذ الأهداف الوطنية وإعطاء الفرصة بالتساوي لانطلاق الطاقات المخلصة الملتزمة. أنا لم أفتعل الالتزام. وعندما أفلت من يدي، وانقلبت الآية وأصبحت الخطوات الأكثر ثورية، هي الأقرب للتزلف إلى الدولة، ومن بعد ذلك تسلق سلم الدولة على حساب صفاء القضية، أي قضية كانت، شعرت أني فشلت!

ولعل الحرب اللبنانية استطاعت أن تكشف زيف كل المتسلقين القضايا من أجل الوصول إلى مقاعد وطنافس الحكم. أما الذين آمنوا، وعملوا بصدق، فقد شعروا بالإحباط القاتل الذي دمّر صفاءهم ونقاءهم، وجرهم مثلما جرني إلى اليأس المفجع الذي أحسست به وعبرت عنه في رواية «قلعة الأسطة».

لم ألج تفاصيل الحرب اللبنانية، لأن تجربتي فيها وآرائي عنها ضمنتها روايتين من رواياتي «قلعة الأسطة» و «جسر الحجر». إلّا أني لا يمكن أن أنسى ذعر سنوات الحرب، والمقاييس فيها تتحطم مثلما تحطّمت البيوت وقتل الأبرياء، وافترقت الناس والعائلات والأصدقاء عن بعضها.

مزقتني الحرب حتى كدت أصبح «ما ليس أنا»، واليوم أرفع

رأسي من بين الأنقاض، وأفتش عن ابني، وأفتش عن رفاق العمر الذين تبعثروا. منهم من عاد، وتلقفته بين ذراعي الشوق العارم والفرحة الكبرى. وجدت بعض من ضاعوا في أرجاء الدنيا، ثم عادوا. وها نحن معاً نشد العزيمة لنكمل مشوار الحياة ومشوار بناء الوطن.

الشرائط الملونة رمز!! هي وقفات اخترتها من سيرة حياتي كنماذج من مواقف اضطلعت بها دون غيري من النساء، لعلني وفقت، وربما فشلت. المهم هو أني اتخذت موقفاً من الحياة، ولم أمرّ بها مروراً سطحياً ولم أقبلها على عواهنها، بل حاولت التدخّل فيها، ثم أنجزت أشياء وفشلت في أخرى.

شرائطي الملونة صورة مصغرة لنهم جيلي للحياة.

ليلى عسيران

الفصل الأول
البداية

١

اللون الأسود

الطفلة تدور في أنحاء البيت. إنها حائرة. ضائعة. ابنة عمها لا تجيد تسريح شعرها الطويل. لم تربط الشريطة الملونة إلى ناحية اليمين. إنها في بيت عمها. ما كانت تشعر هكذا عندهم من قبل. إنها مكتئبة ولا تدري لماذا. مضى عليها أسبوع كامل، ولم يأخذوها إلى البيت. زوجة عمها غائبة. أحياناً تأتي لتمكث بضع ساعات، ثم تخرج. لماذا لم يأخذوها إلى بيتها؟ لماذا لم تعد ترى أمها أو خالتها؟ قالوا لها اقضي هذه الاجازة مع أولاد عمك الأربعة. إنها لا تذهب إلى المدرسة. كل ليلة تفكر بأمها. تخجل أن تطلب العودة إلى البيت.

إنها ذكرى غامضة. كثيرون غيري يذكرون تماماً ماذا حدث لهم وهم في الرابعة من عمرهم.

أنا أتذكر الصدمة!

اللون الأسود وقد غشي بيتي!

أمسكت زوجة عمي بيدي. نزلنا من السيارة. سرنا في الممشى الطويل الذي يوصل الحديقة بالبيت. أتحرّق شوقاً... أفلتّ من زوجة عمي. أركض داخل بيتي، الأسود في كل مكان! المدخل. المكتبة، مقابلها الصالة. الأثاث في غير محله. الشبابيك مشرعة.

رائحة غريبة. حركة غريبة. الناس ينتقلون من مكان إلى آخـر. كلهم بملابس سوداء.

رآني عمي فـوقف. رأتني عمتي فـركضت نحـوي. طـوّقتني بذراعيها. الأسود يلفني، وعينا عمي تحدقان بي. تقـدم عمي. عمتي غارقة بالأسود. تصيح مولولة ولا أفهم ماذا تقول.

أفتش بعيني عن أمي. لاحت قـامتها المغطـاة بالأسـود. ما هذا. لماذا كل شيء أسود. نظرت إليها بلهفة. لكني لم أفهم. لا. لا. لم أفهم معنى الجرح الذي أحاط بهالـة عينيها. إنـه جرح فيه دماء. رأيت عينيها مليئتين بالدماء.

حـزن خالتي مختلف. أمسكتني وأنـا أدس رأسي في جسـد أمي. سحبتني بهدوء، بلباقة. وأخذتني إلى فوق.

دخلنـا غرفتي، وأنـا أضـج أسئلـة. لم تتـرك لي مجـالاً أن أتنفس. فوق سريري لعبة، كبيرة.

ألعاب الطفلة مصفوفة بترتيب على حافة شبـاك الغرفـة. حافـة الشبـاك عـريضـة من تصميم الأم عنـدمـا شيّـد البيت، وهي واسعة. تستعمل معرضاً للألعاب.

أُخذت الطفلة بـالدميـة الجديـدة. حكت لها الخـالة عن رحلـة الـدمية من بـلاد بعيدة. اختفت الأسئلـة الغامضـة الملحّة من ذاكرة الطفلة الصغيرة. عادت إلى الألعـاب بعد غيـاب أسبوع. انتقلت من مكان إلى مكان. حان وقت العشاء. لم تحس الطفلـة بـالوقت. غسلت يـديها ونـزلت مع خـالتها، تـوجهتا إلى غـرفة الطعام.

تطلعت الابنـة حولهـا. البيت فرغ من النـاس. هدوء مشحـون بصمت مـريب. «ظريفـة» الخادمـة تضع صحـون الأكل عـلى المائدة. أين الناس. تفكر الطفلة؟ أين ابنة عمتها سوسو؟

جلست على مقعدها. تلفتت صوب أمها. أمها كالشمس الغاربـة

في الضباب. شيء ناقص في وجه الأم. إحساس ثقيل يلف الجو. «ظريفة» لم ترحب بها كعادتها. أمها تراقبها، وقلبها يخفق. لم تطل اللحظات الحرجة. التفتت الابنة نحو أمها:

- أين بابا؟
لا جواب..
- ألم يعد من الخارج؟
لا جواب.

اضطرب الجو أكثر. الخالة تحاول أن تأخذ صحن الابنة لتسكب لها الطعام.

صمت جارح. وحشة.

صاحت الابنة متحفزة ناحية أمها:

- أين بابا؟

وصل الجرح إلى صوت الابنة:

- أين بابا، أين هو؟ ألم يعد من الخارج؟

ازداد حرج الأم. الحجارة في عينيها. خرس لسانها منذ أسبوع. نظرت البنت إلى خالتها. تسأل عن أبيها. تطلعت الخالة إلى أختها.

الثلج الأبيض لا يتحرك... الأسود يلف ثلاث نساء وطفلة. خصلة من شعرها مربوطة بشريطة. أزاحت البنت كرسيها. وقفت في مكانها تغالب دموعها، وصرخت:

- أين بابا؟

الأم خافت. تحركت. نطقت:

- سافر أبوك.
- دون أن يودعني؟

سالت الدموع. جمدت الخالة. اختنقت الأم.

الابنة تسأل بصوت متهدج، ولهجة كبيرة على سنها:

ـ دون أن يودعني؟

سكوت. صمت أسود غارق في الأسود. ووجه الأم أبيض كالثلج الحارق. الابنة تلح:

ـ هكذا سافر وأنا في بيت عمي، دون أن يودعني؟

الأسى يلف الأم. لا تملك دموعاً ولا كلمات. الابنة تقترب منها بخطوات مترددة. ترتمي عليها تتوسل إليها بعينين خضراوين كربيع ذوى قبل أوانه.

أخيراً نطقت الأم:

ـ طلب مني أن أعتني بك.
ـ متى يعود؟
ـ قريباً.
ـ متى قريباً؟
ـ عندما تنتهي الحرب.
الأم تعني الحرب العالمية الثانية.

استراحت الأم. لقد نطقت. قالت ما انتوت أن تقول. سكتت الطفلة ومضة. أخذت تبكي. وضعت رأسها في حضن أمها. كأنها ارتمت في الأمان وبكت.

دخل الخوف حياتي من حيث لا أدري. كالوباء هجم عليّ، وعشش في داخل وعيي، وأنا غافلة تماماً، لماذا تولاني هكذا؟

كنت أسمع والديّ يتحدثان عن الحرب بحماسة. وعن «هتلر» بلهفة أكثر. ما علاقة أبي بالحرب، هل راح يقابل هتلر. لكني لم أسأل. بكيت. بين ألعابي بكيت.

الطفلة بشرائطها الزاهية. كل يوم شريطة بلون الفستان. تلعب في حديقة المدرسة. صغيرات وصغار. منهم من يكبرها سناً. ينظرون إليها نظرات مريبة. لم تفهمها.

ضحكت لطرفة حكتها لها طفلة من سنها. تطلع الباقون إليها باستهجان. وإذا صخبت يحدجونها بشرر يتطاير من العيون.

ظل الحال هكذا على أيام. أحسّت الطفلة بعدائية الآخرين نحوها. هذا شيء جديد. لا تفهمه. أيقنت أن هنالك سراً يتشاركون فيه منذ غيبتها عن المدرسة.

ظلوا يتجاهلونها، هي وأترابها في صف الحضانة.

نادتني منى. ما زلت أذكر تعابير وجهها. عيناها زرقاوان باردتان كالزجاج. قالت بنبرات عَالية. ساخرة. جارحة. تشير إليّ:

ـ انظروا إليها، تلعب غير آبهة بشيء. تلبس الألوان، في شعرها خصلة تربطها بشريطة ملونة.

دهشت أن تتحدث عني منى هكذا. كنت أظن أنها تحبني. تصديت لها:

ـ ماذا يمنعني من اللعب كما أشاء؟

فضحكت. وحولها بقية البنات والصبيان اقتربوا مني. وأصرّت منى:

ـ لا يهمها شيء.

هناك بنت أخرى، نسيت اسمها. أتذكر القسوة في تعابير وجهها. كأنها على وشك أن تضربني. سألتني بتحدٍّ:

ـ أين أبوك؟

قلت لها بحزم:

ـ أبويي سافر، وسيعود بعد الحرب.

انفجرت ضحكات البنـات والصبيان. راحـوا يتداولـون بصوت منخفض. وقفت أتفرج. قلبي يدق. يـدق. أحدهم قـال، وكأنـه يلقي علي تهمة:

ـ هذه يتيمة!

اقتربت مني. رأيت جليداً في عينيها، وناراً تتـدفق من لسانهـا. إنها تشير إليّ:

ـ أنت يتيمـة! ألا تعرفـين أن أباك مـات؟ مات! لن يعـود بعد الحرب. ضحكوا عليك! ها ها! ها ها!

فكـرت بحضن أمي، بحنان عينيهـا الزرقـاوين. وشعرت أنهـا بعيـدة. بعيـدة. مـددت يـدي إلى الأمـام ولفّني الـدوار. لفني الدوار. اختنقت بالدوار.

يبدو أني سقطت مغشياً عليّ.

كـل مـا أذكـره ضبـاب معتم هبط عـليّ. ذراعا أمي حـولي. صراخي: «لماذا يتيمة؟ هل مات أبي؟ هل مات؟».

٢

تبدلت بكلمتين: الموت. يتيمة. احتلني غموض الحالتين. طال شعري. أصبحت عندي ضفيرتان. أمي تمشّط شعري كل صباح. تنتقي شريطتين مكويتين ملونتين تناسبان لون ردائي، وتربط بهما ضفيرتي.

أمسى الموت هلعاً لا أفهمه. تحول الموت إلى وباء استشرى فيّ. وكأنني مرضت بمشاعر غامضة. دخلني القلق باكراً من تلك المشاعر التي لا أفهمها. استيقظ وعيي قبل أوانه. اليتم ثياب أمي السوداء. ولكن. لماذا مات أبي؟ لم يخطر ببالي أبداً أن أسأل أمي عن الفرق بين الغياب والموت. هل الغياب مثل الموت؟ ذلك لغز. كيف ينطفىء الانسان؟ الخوف. الخوف. الخوف. رغم أن ألعابي حولي. بعدما كبرت قليلاً، فكرت أن أمي أرادت أن تتمسك بالغياب المؤقت، ويعود إليها أبي بمعجزة، معجزة من تلك التي كنت أؤمن بها في ذلك العمر.

وأنتظر.

لحظات حنونة. تتباسط معي أمي. فأسعى لديها أن تفضي إليّ بلغز موت أبي. ما إن أحوم حول الموضوع حتى ينسدل الجدار. جدار الصمت. وأمي تجيبني بالبكاء فتغلق الباب بوجهي. صمت أمي الباكي الرافض لسيرة أبي يولّد الغموض.

يتمـزق فيّ شيء مـا، شيء يتـوق أن يتكشف. وخـالتي؟ تصمت. تبدل مسار الحديث. ظريفة، ظريفة دائماً صامتة في واجباتها.

ولا يتبدل مسار العائلة المكوّنة من ثلاث نساء يلبسن الأسـود، ويعشن في بيت ليس فيه رجل، يحمن حول ابنة كبـرت أكثر من عمرها. ولم أفهم ماذا يعني أن يحيا الانسان في بيت فيه رجـل إلّا بعد أقل من ربع قرن، عندما تزوجت.

ناءت بالأم أثقال مالية بعد مرض زوجها أمداً طويـلاً، وواجهت مشاكل إرث لم تكن تتـوقعها. والانتقـال من بيت إلى بيت آخر وجع هدّ حيل الأم. كفتها جروح المرض. ثم فجيعة الموت.

الابنـة ليست غافلـة تمـامـاً عن كـل شيء. حـيرة القلق تشتـدّ وترتخي وفقاً لتعابير وجه الأم، وتواجـه الابنة الحـزن المرتسم على محيا أمها، وتشعر أنهـا ناقصـة. الحزن شرفـة تطل منهـا عينا أمها، فيهما ضياع، فيهما بريق انطفأ. تجلس الابنة عـلى حضن أمهـا، وتفتّش عن الأمان. وتقتنـع أنهن انتقلن إلى بيت أقـرب إلى مدرستهـا الابتـدائيـة، ولا يتبـدل النظـام في حيـاة الأسرة. قوانين صـارمة تخصّ النـوم والأكل والـدرس والسهر والاستحمام. النشاطات عينها. زيارات. رحلـة مدرسيـة. رحلة عائلية. أفلام تناسب سنها ولا موافقـة إلّا على أفـلام «طرزان» و «شيرلي تمبل» الصبية السينمائية النموذجية.

الابنة تعاشر الصبيان وتصادق البنات. عاطفتها متشابهة تجاه الجنسين. أقرباؤها أقرب إليها. صديقتها وابنة عمتها سـوسو. سعاد.

بدأت تتعلم اللغة الانجليزية في المدرسة الابتـدائيّة. خـالتها في البيت قررت أن لا تجيبها إلّا إذا خاطبتها بالانجليزيـة. إنها لا تحب الانجليز. هي وأختها تتعلمان اللغة الألمانية.

أنـا لم أنس. أبداً لم أنس عيني منى الـزجـاجيتـين. مـاذا

يعني أني يتيمة. يعني أنني لست كغيري. ثم ماذا أيضاً.
يعني أني ناقصة. كبر الخوف فيّ. شيء مريع. الموت غموض
مريع. توسع الخوف. أصبح من الظلام. من الوحدة. من
أشياء أفهم لماذا أخاف منها. أن يدخل سارق إلى البيت.
أن يحدث شيء غير متوقع. وكل شيء يبدو مؤقتاً.

أجل توسّع الخوف، والانتظار طال. ولكن ما الذي أنتظره؟ بدا الغد والمستقبل وحتى الانتظار من المبهمات لديّ. ماذا أتوقّع بعد الموت؟ أن تلبس أمي عقداً من اللؤلؤ الأبيض؟ لم ينقشع الخوف. أن تظهر خالتي بثياب ملونة؟ لم يتبدّل أي شيء. وظريفة ظلت على ما هي، بملابسها السوداء. المنديل الأسود فوق رأسها، استبدلته بواحد أبيض.

هذا لا يكفي. جاء الصيف الثالث ولم يتغيّر شيء. صعدنا إلى الجبل. برمانا. لماذا نحن في برمانا وسوسو في بحمدون؟ نلتقي أنا وسوسو. سمعت عمتي تقول لأمي: «كفى الأسود». تأخذنا أمي إلى البحر، نسبح أنا وسوسو. أمي لا تدخل البحر، تربط رأسها بمنديل ملوّن، ثم تتمشى على الرمل، وتصل الموجة إلى قدميها، وتتلاشى. قلت لسوسو إني لا أنسى. أحاول. ثم أتذكر عيني منى. وكلمات الصبية الأخرى قاسية كحد الزجاج. قالت سوسو: اطلبي من أمك أن تخلع الأسود. ربما تنسين. أجبتها أني لا أجرؤ. حاولي، أصرّت سوسو، أمي خلعت الأسود. فرددت عليها ما سمعته من غيري أن أمها عندها زوج وأطفال.

عمي المفضل. مثل زوجته وأولاده. أصحاب عواطف، الصدق ينبض منها. ابنهما الوحيد اسمه على اسم أبي. أحبهم كثيراً، وبيتهم يطل على البحر. نلعب بالصدف، حفاة، نضحك، نركض. يظل قلبي ثقيلاً. عندي سر. استلبني الخوف حتى الاختناق. كأني سوف أسقط في هاوية. لأني وحيدة. لأني يتيمة لأني أنتظر. وأمي لا تخلع الأسود. أهبّ من مكاني،

أعـود إلى بيت عمي. إنهم يتسـامـرون. تنظـر أمي إليّ. تفهم. تناديني. في المساء عندما نعـود إلى البيت، أهرع إليهـا. أرتمي بين ذراعيها وأبكي. بكائي مر. تتولّى تهدئتي. تفسّر لي حـالتي: «لا بد أنك تعبة».

أنا لا أعرف ماذا يبكيني على حين غرة هكذا. ولا أدري إذا كانت أمي تعرف مـا الذي كـان يبكيني. أشعر بـالدهشـة. بالخوف. الخوف. الخوف. أستسلم لأحلام اليقظة، أمسـك أطراف وعيي، فأتخبّط. كيف ارتدت أمي ثياباً سوداء. لماذا يختارون الأسود للتعبير عن الحزن. ما هو لون الأمان؟

عنـدمـا كبـرت، بـدأت أرى الحيـاة تبـدأ تنفسهـا من اللـون الأسود(*).

تحـول غموض المـوت والتف بالأسـود الذي رافقـه. اجتاح مسيرة حياتي، وبات علامة فارقة عندي. كالحالـة الخاصـة أتـوقف عندهـا كثيـراً، لا سيمـا بعـد أن كبـرت ونضجت، ورحت أفكر فيما وراء الأشياء. وتداخل الأسود في الألـوان الأخـرى، ووجدت نفسي أشرح مشـاعري بـالألـوان، وظـل الأسود اللون العملاق، اللون الـذي تنبثق منه الأحـاسيس الدقيقة تتكلم في ذاتي بالألوان وتصف حالتي.

غـاب أبي. مات أبي. إذن مـاتت الأشياء كلهـا بـالنسبـة إليّ، وبالنسبة إلى أمي. تقول إنها تعيش من أجلي، وسألتهـا: «لماذا لم أرتـدِ الأسود، وأبقيت عـلى ألوان مـلابسي؟» فنـاحت: «أنت تلبسين الأسود؟ ألا يكفيك الهول الذي أصابك؟».

أجلس عـلى سريري في غـرفتي. ألعابي لم أتخـلّ عنهـا. كلهـا مصفـوفة حـول السرير. إلى جـانب السرير مكتب صغـير أضع عليه دفاتري وكراساتي وكتبي المدرسية. أمسك كتاب الأطفال. فيـه قصص مثيرة، وصـور سندريلـلا والأمير صـاحب اللحيـة

(*) ٣ حزيران ١٩٩٢ بيروت.

الـزرقاء. ليـلى والذئب. المـارد ذو الأربعة رؤوس. خيـال بخيال يراودني في الليل، ويهب فيّ شيء مـا. لا قدرة لي عـلى التركيـز. شيء غامض يؤرقني. رفضت أن أشرب الحليب. ظريفـة تحاول أن تقنعني. لا فـائـدة. تتـركني. أسكت. أقـوم. أجلس. مـاذا يؤرقني هكذا؟ فجأة انتفضت، واتجهت إلى الدار. أمي تقرأ في كتاب. جلست عند قدميها. جواربها سـوداء. رجوتهـا أن تنقل سريري إلى غرفتها.

شعـرت الأم بمتعة كلمـا كـانت ابنتهـا تهبّ من سريـرهـا، وتندس إلى جانبها. كانت تحسّ أنها تلقمها الحنـان لتعوّض لهـا عن غياب والـدها. أختهـا لم توافقهـا على نقـل سريـر الابنـة. الأم تعتقـد أن أختهـا العـانس، لا تفهـم معنـى الالتصـاق بإنسـان، هـو من ذات اللحم والـدم. العـلاقـة عضـوية. والتصـاق بـديهي. يحـدث في الـوجـدان، يملؤه، يفيض بـه، كالنهـر، كالشـلال، ثم يصب في قالب جسـدي. القبلـة. الاحتضان. لـذتهـا في تمشيط شعـر ابنتهـا يفـوق الوصف.

الأم لم تشعر قط بتأنيب الضمير. هي لم تقل الحقيقة. وصفت المـوت بالغيـاب. أحسّت أنها تحمي الصغـيرة من صـدمـة لن تفهمها. ماذا تفعل أمام قسوة الأطفال. أطفـال المدرسـة الذين أخبروا ابنتها أن أباها قد مات.

تسأل البنت بإلحاح شديـد، يوجـع القلب، يفتته. مـاذا يعني: «يتيمة؟». «ماذا يعني الموت؟» «كيف يدفن الميت؟» «لمـاذا قبلت أن يوارى أبوهـا الثرى؟» تـريد أن تـزرع الأزهار حـول قبره. تتوسّل إليها أن لا تتركها. إذن هي خائفة. تبكي كثيراً، تتوسّل كثيراً، تريد شيئاً ما، ولا تعرف كيف تعبّر عنه. فتبكي، تتوارى في غرفتها. تسأل عن الأسود. «ماذا يعني الأسود؟».

وتعود ذكريات الأم إلى طفولتها هي. لقد عاشتها بلا أم. رافقها الأسود في الرسم. عندها هـواية الـرسم. رسمت منظراً للبحـر

عند هبوط الليل، وراح الأسود يملأ اللوحة.

قامت ليلتها لتنام. الليل أسود. ونباح الكلب كـالعواء أقضّ مضجعهـا. لم تستطع أن تنـام. دلفت إلى الحمام. عـادت. اقتـربت من سرير الـزوج المـريض. إنــه لا يتنفس. إنــه لا يتنفس. الكلب ما زال ينبح كالعواء بصوت مزعــج ومخيف. إن صدر النائم لا يتحرّك. تسرّب الثلج الحـارق إلى يديهـا، تسلّـل إلى أطراف أصــابع قـدميها. نـادته. نـادتـه مـرات ومرات. في السابق كان يفتح عينيه، ويبتسم، يمسك يـدها، ويقرّبها ببطء إلى فمه، ثم يقبلها. أنت أغلى ما عنـدي. يردد اسمها. حبيبتي. حبيبتي.

هذه المرة سكت. لقـد مات. قـالوا إنهـا لم ترثـه، فقد جمـدت دموعها. أصــابتها حمى. رفضت السريــر. خافت من السريــر. واظبت على النوم في الغرفة نفسها من أجل ابنتهـا. لتكون عــلى مقربة منها.

هي بحاجة إلى ابنتها. الابنة هي: هو.

٣

الموت قدر غريب في عائلتنا. عائلتنا التي توصف بأنها «مهمة» في البلاد.

بات الموت يزورنا كل سنة تقريباً بعد وفاة والـدي. إنه يجهض طاقاتنا. يلتهم عزوتنـا. ينقض على كـرامتنا. يحني كبـرياءنـا. يخطف أفضــل من هم بيننـا، فيقتنصهم بغفلـة من الـزمن. يسلبهم الحياة. النهر الجارف في الجنوب بأروع ما يسقيـه من ثمار. ينضب، يتوقف. القلب لم يعد يخفق.

وتبقى النساء. يرتـدين الأسود من سنـة إلى سنة. تخلـع أمي عقد اللؤلؤ الأبيض عند وفاة أولهم بعد والدي: عمي المفضل.

ويتيمة أنا، ولا أعرف لماذا يفرح بي الناس، لا سيما الأصدقاء والأقـارب، والأرامل، والعجـائز. يخصـوننا بـالزيـارات، أدخل عليهم في «الصالون». أسلم. يضجّـون بالبكـاء. تتطلع بنـاتهن نحـوي بإشفـاق. أحيانـاً بحسد. أنـا تيتّمت قبلهن. أنـا ذقت الهوان، وتعذّبت، وحـزنت. ابنة عمتي سعـاد تخصني بالحب. أفضيت إليها بخوفي من المـوت. نصحتني أن لا أرافق أمي إلى التعـازي. حـيرة هي. خيـار أقـوى مني أن أتـوسّـل إلى أمي لأرافقهـا إلى التعازي. كنت مشـدوهة مسحـورة بتلك الظـاهرة المخيفـة في عائلتي. خفت عليهـا من الـزوال. تشبّثت بطـلاسم

التاريخ، ورمـوز الدين، واختلط علـيّ الأمر، أيهمـا دين، وأيهما تاريخ؟ لم أسـأل أحداً. خجلت من جهـلي، وإن كنت لم أتجاوز الثامنة أو التاسعة أو حتى العاشرة من عمري.

تعلّمت الصلاة والوضـوء، لكن الصلاة لم تحـلّ لي معضلة مـا جرى لأبي. أتلمس سيرتـه عند أمي، فتطـأطىء رأسها، ويفـرّ الدمع من مقلتيها. تأخذني بين ذراعيها ثم تتأتىء: «بعد حين، عندما تكبرين».

مجالس العزاء استلبتني. عكس ابنـة عمتي سعاد. إنهـا تلعب مع بقية الصغار. قريبـاتي يضحكن ويلعبن في غرفـة أخرى أو بيت آخـر. أنا أتسلـل إلى مجالس الكبـار ويزداد خـوفي. أهي سيرة الإمام علي. وسيدنا الحسين؟ أم النادبات اللواتي ينشدن هذه السيرة على أكمل وجه، وبالتعبـير الملائم تمـاماً للمنـاسبة، حيث البقاء مر.

أجهش بكاء كالكبـار. وأتلوّى. أحس الخـوف يداً تمتـد إلى عنقي. يصبح تنفسي ثقيلاً، وتتـلاشى الدنيـا أمامي. أسبـح عالياً في فضاء مريـع، لا رائحة لـلانسان فيـه. وأسقط بين الـدود. يأكلني الـدود. يغمرني الخـوف، أفتح عيني. أجـد أمي بقربي منكسة الرأس، غائبة في دنياها لا تتكلم.

العمـات وأزواج العم. بنات خـالة أبي أو بنـات عمته، وسـائر قريباته ينتحبن. البكاء لغة الجميع. هو المبتغى من وراء ولولـة الندابات. سكون أمي الرهيب. كأنها بئر مهجور.

تدوم جلسات العزاء طويلاً، أنتقل فيهـا من خوف إلى دهشـة. بنات وأولاد المتوفى ليسوا في بيوت أعمامهم مخبأين من المـوت. أنـا لست مثلهم. لماذا أنـا لست مثلهم؟ وتـأتي اللقمـة التي لا أستسيغها من على سفرة تليق بالملوك. أهمية الميت بما يقام لـه من احتفال.

أعود إلى البيت ممسكة بيد أمي. مثقلة بأكياس من حديد تلتف حول رقبتي وأتصور «النهاية»، الفراغ المدهش. الموقف مفجع. ينغرف منه قلبي. يدق. يدق. الطبول تهتز في رأسي. غداً سوسو تـأتي معي. في الغد نسرع إلى الحمـام. أتقيـأ. تمسـح عـرقي بالكولونيا، ثم تسقيني ماء الزهر.

شَرَحَت لها سوسو أن أباها توفي من السرطان. سوسو لم تفهم ماذا يعني هذا المرض؟ فسّر لها والدها الطبيب أنه داء لا شفاء منه. حبست دموعها. لكن ابنة خالها بكت. بكت. أمسكت يدها وقالت لها بصوت خافت:

ـ خـالي كان شجـاعاً، جـذاباً، وطنيـاً، يتـذوّق النكتـة، سريـع الغضب، كريم اليد. كان خالي أسطورة. هكذا تقول أمي. تعالي نتأمل صوره. أمي تقول إنـه أجمل شبـان العائلـة. كتب لأمك وصية، لم يوقع عليها كاتب العدل.

أتساءل اليوم، هـل تقرّب مجـالس العزاء المـرء من الوعي؟ بت أحسّ أن كـل شيء مؤقت. خفت عـلى أمي. عـلى خـالتي. عـلى عمتي. على سوسو. على ظريفة.

> الموت خلف الباب. مجـالس العزاء مشهـد درامي هـائـل. يهزّ ـ يخض. وأصبح أنا ورقة طائرة بلا هدف. أنـا لا أنفع سياجاً، ولا أتحوّل إلى فراشـة تحطّ على الأزهـار. أنا نقطـة استفهام. أخشى الغد لئلا أفتح عينيّ ولا أجد أمي. لم أذق الشهد. اندلعت مني عواطف جيّاشة. الزمن يجري. يجري. بعـد غد يصـل بسرعة. اللغـز الذي يلتهم الشبـاب. المـوت للعجـائز. أنـا يتيمة. تـواجهني مشاعـر وحوادث لا تـروى بالصوت المرتفع.

استغربت الأم أن خولة صديقة ابنتها وأمهـا جاءتـا لزيـارتها بدون الأب. إنها ثالث مرة لا يأتي صديق «المـرحوم». ظـل يمرّ عليها طوال سنتين. مرة في الأسبوع، يسألها إذا كانت بحـاجة

إلى شيء، ثم يعود ويزورها مرة أخرى مع زوجته وابنته. سألت أختها عن السبب. الناس تتبدل. يا ترى ماذا كانت غايته. بعد ثلاثة أشهر انقطعت زيارات الأم وابنتها. العائلة الوفية دام اخلاصها سنتين وثلاثة أشهر. أما صديق زوجها الدكتور، فإنه لم يتبدل. يأتي في الأسبوع مرة. يتحدّث معها. زوجته تتحدّث معها. وأولاده أصدقاء ابنتها. لم يخطر ببال الأم أبداً، أن ابنتها تعرف سر انقطاع أبي خولة، وأم خولة عنها.

ليت أمي لم تسمح لصديق أبي الوفي أن يأخذني مرة بالأسبوع إلى نزهة في سيارته. ابنته خولة في مثل سني، وكلما سألته لماذا لا تأتي معه، يجيبني أنها لا تحب السيارة. تشعر بالدوار فيها. أفهمني من الأفضل أن لا أخبرها عن نزهاتي لئلا تغار. أكّد أني مختلفة عنها. أفهم أكثر منها. أجمل منها.

أستمع وأستغرب. كيف يفضلني على ابنته. ألأني يتيمة؟ وليس عندي من يأخذني إلى نزهة؟ هو يعلم تماماً أن أقربائي يصطحبونني مع أولادهم إلى بساتين جميلة. إذن؟

حرت بالصديق الوفي. أنساني حيرتي بحديثه الطلي. دعاني أن أجلس على حجره. ألحّ عليّ أن أمسك بيدي مقود السيارة. فرحت. فرحت للغاية. تكرّرت النزهة، وكذلك الإمساك بمقود السيارة. شعور هائل. سأقود سيارة، ثم أفاجيء أمي بشطارتي.

لم يستمر الحال طويلاً، وجلست كالعادة على حجره، ثم أحسست بحركة غير عادية أبداً تحدث تحتي تماماً! صرخت كمن لسعتها أفعى. تولاني شعور مريب وفي الوقت نفسه خجول!!

نقطة. أول السطر. انتهت العلاقة. أمي لم تسأل وأنا جفلت. فقد بدأ الوعي عندي من وقفات درامية في هذه الطفولة. هل هناك أفظع مما حاول أن يفعله صديق؟ ولأبي؟ لم أكن أعرف

معنى الخبث ولا الجنس. فسألت أمي ما تعني كلمة حقير.

قالت الأم لأختها:

- ابنتي قوية الشخصية. لها عالمها الخاص. تكثر الجلوس وحدها مع ألعابها. أريد أن أقترب منها أكثر. أخشى في كل مرة أن تفاتحني بالسؤال عن سيرة والدها.

أجابتها أختها:

- إنها ليست منطوية على نفسها أبداً. تحب الأصدقاء. إنها قريبة منك أكثر مما تتصورين. إنها تعرف أن والدها توفي من السرطان.

أجفلت الأم، فقالت لها أختها:

- لا تجفلي. سوسو أخبرتها. هناك أشياء يعرفها الصغار قبل الكبار. هذا أفضل. يتفاهمون باللغة نفسها، بالهموم نفسها.

أطرقت الأم، سكتت. انتقل بصرها إلى الشباك. المساء ملبّد بالغيوم، قالت:

- إنها تخشى الرعد.

- هذه مخاوف عادية. سأشرح لها كيف يحدث الرعد. هل أخبرتك أنها طلبت مني فساتين طويلة من أجل مسرحياتها؟ تتصرف أحياناً كالصبيان. تحب السيطرة. شخصيتها سوف تكون قوية.

- أرجو ذلك. لكنها حائرة هل هي بنت أم ولد. تتقلب كل فترة بنمط يختلف عن الآخر. شاهدتها تلبس حذائي ذا الكعب الفلين. كادت أن تكسره لصغر قدمها.

- اضحكي معي. وجدتها بالأمس في غرفتي، وقد فتحت خزانتي، وراحت تتفرج على عقودي وأقراطي. جفلت عندما

رأتني، وذعرت، فهدأت من روعها وأجلستها على المقعد، ووضعت كل مجموعتي بين يديها لتتفرج عليها. وطلبت منها أن لا تفعل أي شيء في الخفاء.

هزّت الأم رأسها. لم تتكلّم. سألتها أختها:

– تبدين مهمومة. أما كفاك همّاً. هذه حادثة بسيطة.

– أعرف. أعرف دون أن تخبرني أنها تحس بفراغ معين. هو غياب أبيها. وأنا أخشى عليها مني، من اهتمامي الزائد بها. أريدها أن تعتمد على نفسها. يجب أن أجد لها وسيلة ما.

وتنهدت بحرقة ثم أكملت:

– هل تتصورين ما اكتشفت؟ إنها تمتص أصبعين من أصابعها، الشاهد والمتوسط. كل ليلة أرقبها من حيث لا تدري وهي نائمة. تمتصهما بنهم، ثم تقرّب شفتها العليا من غطاء الوسادة على سريرها، وتحرّكها، ويبدو عليها الشعور باللذة القصوى.

وردت الأخت:

– هذا أمر طبيعي عند الأطفال.

– لكنها لم تعد طفلة. سوف تبلغ السادسة. سألت طبيب الأطفال، نصحني أن لا أجزع، وأضاف أن هذه العادة قد تكون ناتجة عن احساس بعدم الاطمئنان. لا أعرف ممّ حرمتها. أقول لك ابنتي تحيّرني. من ناحية تجدينها كغيرها من البنات. ومن ناحية أخرى أحس أن لديها عالماً خاصاً بها نحن لا نعرفه.

– لكنك لا تحدثينها عن والدها. لماذا؟

– ما الفائدة. لقد راح. تركنا وراح. هل أعيده بالتحدّث عنه، أم أفجّر مزيداً من الحزن؟ ثم إني لا أتمالك نفسي من البكاء.

ـ هل لاحظت أنها تقضم أظافر يديها؟

إنها مرتبكة. .

ـ إنهـا وحيدة. حـاولت أن أشرح لها مسـاوىء هـذه العـادة، فاضطربت اضطراباً شـديداً، وشعـرت أن كبريـاءها جـرحت. فأخذتها بين ذراعي. وبكت. بكت طويلاً.

شعرت بالخجـل يعتصرني. كدت أركض وأهـرب بعيداً. إلى أين أهرب. ممّ أهرب. من نفسي. أنا لست كفيري. أنا بلغت السـادسـة أو حتى السـابعـة، وأمتص أصـابعي وأقضم أظافري. أنا أتراجع في وعيي. أنا أستريح، أوه كم أستريح وأنا أمتص أصبعي، وأتحسس الوسـادة الناعمـة بشفتي. إنه الخدر التام.

٤

بدأ عالمي الداخلي يتكوّن من أحلام اليقظة التي أمارسها. كنت أحولها إلى مسرحية حزينة. أوزّع الأدوار على أصدقائي. زعل أسامة ابن الدكتور، لأني ألبسته فستاناً أخذته من خالتي، وأعطيته دور امرأة. شكاني أسامة إلى أمي. أجبتها أني اخترته كامرأة لعينيه الزرقاوين، ولشعره الأميركي الأشقر. ثم سألتها إذا كانت أميركا صديقتنا أم لا، فاستغربت سؤالي. وعدت أستفهم لماذا تحب هتلر وتكره الانجليز والفرنسيين.

هكذا عرفت معنى الاستعمار. سمعت عن فلسطين لأول مرة.

عائلتنا تتحدث كثيراً عن الحرب، والفرنسيين والانجليز. وطنية بثوب فرنسي، ووطنية بثوب انجليزي. النقاش عالي الصوت. ينبرى معظم الشبان إلى المظاهرات. كنت أتسلل إلى المجالس، ولا أستطيع أن أحادث الكبار كما تفعل أمي. أقعد بطرف الباب. وأستمع.

الدكتور فلان شجعني على الاهتمام بأحداث البلاد، ووعد أن يريني مكتبته. من أكبر المكتبات الشخصية المختصة بالصهيونية. كنا في ذلك الزمن نقول «يهود». اليوم نعود ونقول «يهود». شاهدنا أن كل يهودي يصبح صهيونياً في نهاية المطاف.

دأبت الأم بعد وفاة شقيق زوجها المفضل، أن تطلع الدكتور وزوجته الأميركية على أحوالها، وتنشد منه النصيحة في مشاكلها. وقف إلى جانبها. دافع عنها. وظل يزورها مرة في الأسبوع. ثم تذهب هي وأختها كل مساء أربعاء إلى بيته لتستمعا إلى الموسيقى الكلاسيكية. الدكتور عنده مكتبة موسيقية مهمة.

كنت أخاف! أخاف أن أنام وحدي ليلة الأربعاء، وظريفة بعيدة عني في آخر الدار. أقوم حافية القدمين، أهزّها فتستفيق، أتوسّل إليها أن تأتي لعندي. كانت ظريفة تتردد في البداية، لأنها تعرف عدم موافقة أمي على سهري. بكائي كان يوجعها. تقوم معي، تجلس على الأرض وتحكي لي القصص.

كنت أفكر باليهود بعد أن تنام ظريفة. ثم أفكر بالفرنسيين. المهم هو أن شيئاً ما تحرّك في دمي. بتّ لا أفارق أمي كلما قرأت الصحف، أسألها وتسرد، وأحكي لسوسو، فتتنهد. تنظر إليّ بشغف يشي بالإعجاب، وأستغرب أنا لماذا لا تتجاوب معي في مناقشة الأحداث الوطنية.

توالت السنوات على ظريفة في ليلة الأربعاء. نضبت قصصها، فأخذت البنت دور ظريفة، تحكي لها عن الجغرافيا والتاريخ، وعن المسرحيات وعن زعل أسامة، وعن ابنة عمتها سوسو والهدية التي ستفاجئها بها في عيد ميلادها. وسألت ظريفة مرة متى يقع عيد ميلادها. ضحكت ظريفة. خبأت فمها بيدها لئلا تظهر أسنانها المكسورة. لماذا ترفض أن تصلحها كان منشأ الشجار الوحيد بينها وبين الأم.

ظريفة خيال الأسرة الصغيرة، وصداها. إذا فرحن فرحت، وإذا سادهن الوجوم، ينقبض وجهها وتزمّ شفتيها، وتعيد ربطة رأسها بقوة، ثم تزاول عملها.

اقتعدت ظريفة الأرض على سجادة صغيرة عند السرير، تستمع

إلى تنفس البنت الهادئ، بعد أن استسلمت للنوم، وأصبعاها في فمها. لم تر شفتها العليا تداعب الوسادة في ظلام الليل. رثت لحالها. كان أبوها شغوفاً بها، جهز لها زاويتها الخاصة في حديقة البيت الكبير، لتركيب الأرجوحة المخصصة لها، وتتزلق، وتقفز. يريدها رياضية مثله. المسكينة تيتمت. الأم أرملة. ظريفة أرملة. الخالة عانس. ثلاث نساء بلا رجل وبنت يتيمة.

بدأ وعيي يتفتح، وخفت ندبات البكاء الغامضة. انصببت أراقب، أستمع. أسأل عما يحدث في البلاد. العائلة بأسرها تغلي، تتفاعل، تنشط. ابن عمة والدي في مقدمتهم، على رأس المطالبين بالاستقلال.

تاهت ذاكرتي بين دفتي شخصيتي. شرائط ملونة بلون الفستان نفسه تربطان ضفيرتي. مسرحيات على شرفة البيت. زيارات أسمع خلالها أن ابن عمة والدي بات في سجن قلعة راشيا، ليصبح مع الزمن دعامة للاستقلال.

> خرجت البطولة من بيتي الكبير: عائلتي! وسقط خيالها في ذهني، وانشق درب جديد حط على اهتماماتي. فتحت عيني على وسعهما. لا بد أن أستوعب كل ما يقال أمامي. أبحث بين الرجال عن وجه أبي. راح. راح. يبدو أني ولدت بكيان يمتد من المحيط إلى الخليج، أو من الخليج إلى المحيط، ولا كنت قد رأيت المحيط، ولا قرأت عن الخليج إلّا في كتب الجغرافيا. لكنهم في العائلة يتنفسون هكذا. الدم يجري باتجاه نهر عارم فياض بالحماسة.

رفضت أشياء وأشياء في عائلتي... إلا الدم!

بعد سنة، انتهت الحرب. لم يعد أبي، ظل ميتاً في الواقع، وحياً في كياني الناقص.

راحت الأم تقلب وجهات النظر مع أختها. هل يذهبن إلى مصر؟ ثلاثتهن؟ وصلتها رسالة من خالها الذي هاجر إلى هناك، واستوطن، وجمع ثروة كبرى. فكرت الأم أن تنتهزها فرصة

وتزور صديقتها «مس بدر» لتطلع على أحوال الكلية. الأم تـريد أن ترسل ابنتها إلى المدرسة الداخلية، لكي تتعلم الاعتماد على النفس. الخالة تقول إن الطفلة ما زالت صغيرة السن. ينغـرف شيء مـا في قلب الأم. إذا بقيت الابنة هنـا، فسوف تظـل لعبـة محيطها. لن تشب على قدميها، لن تكتشف حقيقتهـا، لن تتبلور شخصيتها في ظل الآخرين. الخالة تعارض البتـر المفاجىء من جـو إلى آخر. تهتف الأم: «هـذا هو مـا أبتغيه من أجلهـا. أن تستقل. أن لا تبكي مرارة واقعها مهما كان متخبطاً ونـاقصاً». وتصرّ الخالة أن البنت سوف تبتر عاطفياً. الأم تقول: «لكني لا أكفي لبناء شخصيتها، إنها مختلفة عن بقيـة البنات، ولا أفهم لماذا. عليها أن تكتشف ذاتها بدوني». الخالة تعترض: «ولكنها مـا زالت تقضم أظافـرها. وتمتص أصبعيهـا. ربما تحـدث لها صدمة. من يتلقفها هناك؟» الأم تسمي خالتها، أخـوالها، «مس بدر» ربما. كلهم هناك على مقربة منهـا. ثم إنها سـوف تأتي في أيام العطل المدرسية. الخالة تفيض ببعض ذكرياتها مع جدتها من أمها ومع خالتها. وتصفهما بالقاسيتين. وتصرّ الأم: «كـلانا الحنان الزائد. الرأفة المستمرة. الرعاية المثالية».

ربما خف بكائي، إلاّ أن لهفتي نحـو أبي راحت تتلبس مفاهيم غامضة في حياتي، فأشعر بوجع مبهم، وأشكو لنفسي من نقص لا أفهمـه، أفتش حـولي، ولا أجـد مـا يكشّف لي هـذه الغمـة العميقة في وجداني. صرخت ذات مرة بوجه أمي صراخاً مريراً، لا أتذكر مـا قلت لها فجـرحتها، وبكت وقتهـا بغضب متأجـج، فشعـرت أني طعنتها من حيث لا أدري. ومـرت الحـادثـة بـلا ذيول، عاصفة هاجت، لكنها لم تقتلع جذوراً راسخة بيني وبين أمي. وظلت أمي تنثـر الورود في دربي، وأنـا أستنشق بلسمـاً يزيل جروح قسوة أطفال الحضانة في ذاكرتي. جبلتني بأفضل ما عندها، ومنذ أن تفتّح ذهني على وعيي المبكّر، كنت أحس أن أمي تدفعني إلى الارتقاء، وإلى الطمـوح. كانت تصب فيّ الثقـة

بنفسي، وأزاحت هواجسي بمقدرتها الفائقة على احتضاني بالحنان.

خبر لا يصدق! سوف نسافر إلى مصر كي أتعرّف على أهل أمي. سنقضي شهراً في الصيف هناك، وسأفتش عن حقيقة الأمور. فأنا أريد التعرّف. أريد الاستكشاف، لأن كل جديد يبهر. والمتعة تختبىء في تلك الآفاق الواسعة التي سوف أطل عليها. هكذا قالت أمي. لماذا سكتت خالتي؟

استفاق وعيي على أمور لا يجيبونني عليها رغم أن أمي تتدفق بالعطاء، لكنها تسكت طويلاً، وتترقرق عيناها دمعاً وينسال مراراً على وجنتيها. إنها قوية، إنها مرهفة. تحس ما أريد قبل أن أنطق. تحتضن الهم الشخصي، تتداخل في الهم الوطني، تتفاعل مع الهم الحضاري. ترسم، تطرز، تعشق الموسيقى وتحب العمل في الحديقة. تستقبل، تطالع، تتفهم نواقص الناس وتغفر لهم. هي وتد جبار... من الحنان، ومن العطاء.

سافرنا إلى مصر براً، ومررنا بفلسطين، وشعرت أن لهذا البلد حالة خاصة، مما كنت أسمعه من أمي، وعندما عرجنا على مدنها، انتبهت أمي إلى كثرة اليهود في شوارعها والفندق الذي قضينا الليلة فيه. البلاد غير مستقرة. فرق عربية تتأهّب للدفاع عن فلسطين. أردت أن أعرف المزيد، وأجابتني أمي أني على وشك اكتشاف بلد حضاري عظيم هو مصر، أما فلسطين فسوف أعرف عنها أكثر في المستقبل. لماذا تنصحني أمي على غير عادتها أن أكتفي بحالنا، فتقول أني ما زلت صغيرة على هذا، وصغيرة على ذاك. وأنا أريد أن أفهم كل الأسرار.

هناك، هناك في مصر، سوف يحكون لي كل ما تعتم عليّ.

وصلت مصر بشهية، ولكن سرعان ما صدمت. اليوم أتذكرهم واحداً واحداً، أشباحاً سوداء. أحوم بعيداً عن الذكرى، ولكن هيهات أن أنسى. فكم أبعدوني عنهم، وكم

أجهزوا على رغباتي الدفينة بالاقتراب من حرارة تئج بدفء أمي. ظللت حفيدة أختهم اليتيمة! وبعد أن عايشتهم، ونفذ بصري إلى أعماقهم، شعرت كأني أخرج مما كنت أجده زمناً ضائعاً في المدرسة الداخلية، إلى مقعد خلفي من قاعة المسرح.

كان أقرباء أمي أسرة مفككة تجلس كل يوم ظهراً مجتمعة على الشكل المسرحي التالي:

الخال الأكبر يجلس إلى يمين زوجته إلى مائدة الطعام الكبرى، بوجه متجهم، غير وسيم، جدي الطباع، يتكلم قليلاً، همه الأول مصنع الأقشمة الذي يملكه هو وأخوه، ويهتم بالخيول وتتبع الأحداث السياسية في الصحف. تتصدر المائدة امرأته الشقراء بأصبغة زاهية، عيناها بنيتان تتحركان بسرعة فائقة كرقاص الساعة، وتراقبان كل حركة تجري على مائدة الطعام، ويبدو لي أنها تتكلم من عينيها، قصيرة وأنيقة. ابنتها تجلس إلى جانبها، شابة تتخيل نفسها حلوة وذكية وقديرة، وتلقى الاهتمام من أبويها وخالها كونها الفتاة الوحيدة في العائلة. أما الولدان، فإنهما قلما يشاركان في حديث المائدة، الكبير يجلس إلى جانب أخته وله هالة مميزة لأنه الأكبر، يعمل في مصنع أبيه، وهواياته الصيد ونادي اليخوت، والابن الأصغر يجلس إلى يمين خاله، وهو تلميذ سكوت منطو على نفسه، يدعوني للاستماع معه إلى الموسيقى الكلاسيكية، فأنصت دون أن نتبادل الكلام. ثم هناك الخال الأصغر، ويجلس إلى يسار أخيه، يعتبر وتد الأسرة المتحرك، يعشق سباق الخيل، أنيق الهندام، خفيف الظل. يعوج الطربوش الذي يلبسه. يحب الدعابة، لاذع ويصب سخريته على أخته إلى يمينه. والدنيا بالنسبة إليه مرتع دعابة.

أما الخالة التي اختارتها أمي لتشرف عليّ، وتعوض لي عن بعدي عنها، فهي امرأة بشعة المنظر، وتلبس نظارة سميكة، تخلعها عند أول فرصة تتاح لها دون أن تتعرض للانتقاد. لا

تحب زوجة أخيها. يداها جميلتان، وكانت تجيد العزف على البيانو في صالونها الفخم.

أما أنا فإني حللت على هذا النظام العائلي الذي لا يتبدل، دون أن أعرف كيف أدخل في قوقعة تعزلني عما بدأ ينفرني فيه. إلّا أن زيارتي الأولى للقاهرة، كانت متعة سياحية أستجلي رونقها للمرة الأولى. أذوق أكلة الملوخية. أزور الأهرامات. حديقة الحيوانات. أتلقى هدية دمية كبيرة تنطق «ماما» كلما هززتها. أقارب أمي انتقدوها لأنها تلبسني فساتين من الحرير، وتربط لي شريطتين ملونتين تناسبان لون الفستان. قالوا لها ماذا سترتدي ابنتك عندما تبلغ سن الثامنة عشرة، أو عندما تصبح على «وش جواز؟» وكانوا يعتقدون أني سوف أشب «دلوعة»!

خال أمي الأصغر يداعبني بلهجة ساخرة. سألني مرة من أين أنا. أسرعت أجيبه: عربية من لبنان. ها ها. يضحك. يمتحنني: «عربية كارو» ولا «بويك». أنتفض وأعبس وأغتاظ.

اللهجة المصرية فاتنة، لكنها في أجواء أهل أمي لا تلهج بعروبة فيها الأخضر والأحمر والأسود والأبيض. كان علم مصر آنذاك أخضر وفيه ثلاث نجمات داخل هلال أبيض. فريق آخر، غير جو قصر مصر الجديدة، يضج من الملكية وسيطرة الانجليز على الحكم.

دخلت مع أمي إلى جو مكتظ بألقاب القرابة، تركتني وراحت، ولوحدتي. وبوحشة قاتلة أخذت ألمس الصقيع في حياتهم الفارغة. وظلت أمي حتى النهاية تظن خيراً بمن ولدوا ذات يوم أقرباء لها.

٥

اللون البني

لم أبكِ من فرط خوفي!

استفقت، أزحت النـامـوسيـة، غسلت، ولبست مريولاً هو التنورة البنية اللون، وبلـوزة لونهـا «بيج»، وجـاكيتاً بنيـاً مع شعـار «لوجـو» الكلية الأمـيركية الارسـاليـة للبنـات. ضفيرتاي مجدلتان بدون اتقان، وخاليتان من شرائط ملونة!

بدأ اللون البني يجتاح حياتي بعد مهرجان شرائطي الملونة!

عمـري يدق أبـواب العاشرة. أنـا في القاهـرة، تمامـاً في بقعـة تنتصف شـارع الملكة نـازلي ـ أم الملك فـاروق. وبيـن جـدران المـدرسة الـداخلية واظبت أرتـدي هذه المـلابس ست سنوات كاملة!! وكل الطالبات مثلي يرتدين اللون البني. نتجوّل ونتحرك ونـروح ونغدو في أرجـاء المدرسـة يغطينا هـذا اللون الكـامـد الحـزين. لكم بات البني بغيضـاً بالنسبـة إليّ. كانت القمـاشة تتبدل في الصيف، ولكن بالألوان نفسها.

وأنا اليوم أكـره اللون البني و «البيـج». لم أضـع عـلى جسدي بعد ذلك ولا قطعة ثياب من هذين اللونين.

الحذاء بني بكعب واط نظيف. الأظفـار مقلمة، ونظيفـة أيضاً، الخزانة مرتبة. ثيـابي كلها مـرقمة، السريـر مسوّى. المعلمـة ـ

المفتشة تدور على البنات في الغرفة. والغـرفة تحتـوي على اثني عشر سريراً للطالبـات الأصغر سنـاً في المدرسـة الداخليـة، لم يتعـرفن بعد إلى بعض. كلهن مصريـات. أنا وحـدي من لبنان، أتكلم بلهجة مختلفة. وأنا معهن بدون حنان أمي.

وأول يوم في المدرسة الداخلية، مربك بلهجة لبنـانية! والعـائلة تلك التي تربطني بها صلة القـرابة، بعيـدة عني، وكأنهـا كيان غير مستقر. ويظل أهم ما عندي هو هاجس أبي. «لو كنت حيـاً يا أبي، هل كانت حياتي تبدّلت هكذا، فأحرم منك ومن أمي؟!».

الموقف فيه رهبة!

نصطف. ننزل إلى غرفة الطعام. مائة طالبة. معلمـة تجلس على رأس كل مائـدة. أما مـائدة المـديرة وبقيـة المعلمات فهي عـلى حدة. هن يتناولن إفطاراً مختلفاً عنا.

نحن ناس من الدرجة الثانية. والصغار منا من الدرجة الثالثة.

نجلس كلنـا دفعة واحـدة، من دون كلام. المـوقف فيـه رهبـة! ننهض دفعة واحدة، ونصعد كالغنم إلى فوق، إلى طابق المنـامة من جديد لنغسل أيدينا وأفواهنا. ويبدأ اليوم الدراسي من ممر طويل مظلم يؤدي إلى باحة المدرسة الخارجية.

تلتقي طـالبـات الفصـول الأخـرى بصـديقـاتهن في المـدرسـة الخارجية. أقف وحـدي. حقيبة كتبي جـديدة، وبـدا لي كم أنا لست من قدامى أي طالبات. وتراءت لي عينـا منى الزرقـاوان، وقسوة الصبية الآخرين الذين وصموني باليتم.

وقفت أتفرّج. لا أعرف أحداً لكي أتحدّث معـه، ولم تحاول أي منهن أن ترحّب بي. يرن جرس مخيف. يصطف كل طابور عـلى حدة. نقول صباح الخير للمـديرة بالأميركـي. تـوبخنا قبـل أن نقترف الغلطة. الموقف فيه رهبة! المدرسـة كلها رهبـة! الدرس

الأول، الثاني، الثالث. استراحة. أنا وحدي أتفـرج. الطالبـات القدامى يتجمعن. بنات. بنات. بنات. كلنـا نلبس اللون نفســه، التفصيلـة نفسها. الأحـذية نفسهـا تقريبـاً. تركض الطـالبات لشراء الشوكولاتة. أنا لا أشتري. أحب الشوكـولاتة، ولكني لم أشتـرِ. ليس عنـدي دراهم. أمي نسيت قضيـة الاستـراحـة ودراهمهـا. يستمر النهـار بـرهبـة. أختنق. تنتهي الصفـوف. نتناول وجبة الغداء. نعود إلى الدراسة. الساعة الرابعة نتجمع حول خزانة كبيرة مكـوّنة من صنـاديق صغيرة تضــع فيها كـل طالبة ما جلبته معها من أكل لفترة بعد الظهر.

إلا أنا. خالة أمي التي وافقت على تحمّل مسؤوليتي أثناء عطل المــدرســة الــداخليـة، لم تعطني أي شيء. وقفت حـائـرة. ثم انسحبت خجلى.

الموقف فيه رهبة! ندخل غرفة الدروس.نجلس إلى طـاولات تتسع كل منها لست تلميـذات. ننكب على الـدرس حتى السابعـة. في الثامنة نتناول وجبة العشاء. الساعة العاشرة تكون كل طالبة في سريـرها. تحت النـاموسيـة ساكتـة. تطفأ الأضــواء. ممنــوع الكلام. ممنوع التحرّك. نخشى الذهاب حتى إلى الحمام. نقـول «تصبحين على خير» للمدرّسة باللغة الانجليزية. انتهى النهار.

الصمت الرهيب. البرودة. قبور مشيدة تحت ناموسيات بيضاء. تقوم المدرّسة بعدة دورات علينـا، لعلها تكتشف صـوت واحدة منا.

الصبـاح فيه رهبـة، والظهر فيـه رهبة والمسـاء فيه رهبـة. والنوم له رهبة. كيف تغفو الـواحدة منـا؟ لم أبك من شـدة الـرهبة. شعـرت أن سقف الدنيـا قد سقط عـلى صـدري، واقتـربت الجـدران من جسـدي، وراحت تضغط، وتضغط. واجهت أول «مستحيل» جابهني في حيـاتي. بعد مـوت أبي شعرت أنه موقف مستحيل، دون أن أفهم معنى المستحيل.

صراحتي سكتت في صدري من شدة الضغط، من خوف جديد حطّ على حياتي. لم أفهم أبداً لماذا أرادت أمي أن تخلق لي هذه الوحدة القاتلة. أنا خلف قضبان غير مرئية. أنا مضغوطة تحت السقف المنخفض. وقفت الحقيقة تتحداني!

بعد أسبوع على هذا المنوال: بدأت أبكي!

كانت الدموع تشق صباحي بوجع لا ينتهي، واستمر البكاء كالمرض ثلاثة أيام متواصلة. التهب زلعومي. «مس بدر» نادتني تسألني ممّ أشكو. أجبتها أني أريد أمي. أصابتني حمى. عادني طبيب المدرسة. لم يقل إني «دلوعة» مثلما وصفتني إحدى المعلمات. «مس بدر» أنذرتني أنها سوف تخبر أمي أن سلوكي غير مستحب. كيف ستعرف أمي حقيقة الأمر؟ لعل خالتها تنقذني. ولكن الأخيرة لها رهبة، تشبه رهبة المدرسة. تمنعني أن أخبر أمي عن ضيق شديد لا أجيد وصفه في رسالة. وفي المدرسة لا أستطيع أن أشكو أمري لأمي، فجميع الرسائل التي تكتب مساء الجمعة في صالة الدراسة، تقرؤها بعد ذلك المعلمات.

وجدت نفسي في سجن وهمي وبينما أنا أجهش بكاء ولا أدري كيف سمحوا لي أن أخرج لقضاء نهاية الأسبوع عند الخالة التي وبختني، فأطبق عليّ الحصار، لم يعد لي منفذ إلى أي انسان.

بيني وبين العالم الخارجي... أهوال!

سمع زوج الخالة بكاء الصبيّة. دخل غرفة الطعام وذهل! وجد سريراً حديدياً. البنت ممددة عليه. تبكي. ناداها. اقترب منها. أول صوت حنون يصل سمعها. هدأت بعد أن حكت. راح لعند زوجته، ووبخها. كيف تنام الصبية على سرير حديدي في غرفة

الطعام. أجابته أنها لا تستعمل الغرفة لأنها تـأكل في المطبـخ. بدأ الشجار بينهما.

لم أكن أعـرف أنه طقس يـومي. فهي لا تطيق زوجهـا لأنـه لا يحب أخويها. هو ينتقدها لأنها تلحق بهما على حساب الاهتمام به وهكذا تستمر بينهما الدوامة ويكرر لومه لأنها تدور في البيت بقميص نوم شفاف أمام الخادم «بكر». و «بكر» النوبي يضحك بسره. «بكر» يبتسم لي، وتظهر أسنانه كبيرة بيضاء وسط وجهه الأسمر. أرتجف خوفاً لأني سبب الشجار. أسمـع باب الشقـة يغلق بشدة. يترامى إليّ صوتها يـزعق: «روح، والقلب داعيلك، وقُفِـة حجارة تطبق منـاخيرك!». أضحـك رغم دموعي بصـوت خـافت. أهرع إلى الحمـام لأغسل وجهي. أتـوجـه إلى غـرفـة الجلوس.

ترسل إلي «بكر» لتدعوني إلى الفطور. فأسرع إلى المطبخ. تطلب مني أن أعتذر. أنكس رأسي وأسكت، لأني لا أعرف ماذا فعلت لكي أعتذر. «بكر» يقول لها: «أنت طيبـة القلب، حرام عليـك يا ست». أظـل واقفة. تـدعوني إلى الجلـوس. ينتهي الكـابـوس. تشفق عليّ، تقبلني.

وهكذا انغرس الوجل في قلبي. جفلت جفلـة كبرى. مـا هذا؟ لم أفهم هذه المجريات البغيضة. نشأت الغربة. هوة انفتحت بيني وبينها. الحذر بعد اليوم. الحذر.

تصطحبني معها لتناول الغـداء عند اخـوتها. العـائلة بكـاملها تجلس إلى مـائدة واحـدة في القصر الكبير. الأكـل باستعجـال. يتحـدثون عن الخيـول. عندهم اصطبـل مهم. يذهبـون يـومي السبت والأحـد إلى سباق الخيـل. ابقِ أنت مع «نجيـة» إلى أن نعود.

تعطيني «نجية» الخادمة مجلات باللغة الفرنسيـة، ثم تهرب إلى

مطبخ الطابق الثالث، يعلو صوتها. تتشاجر مع السفرجي «عبد الله». أسمع ولا أسمع.

أنتظر وأنتظر، وأواجه وحدتي. أتطلع حولي: أين أذهب؟ إلى من ألجأ؟ من أحاكي، أين القلب الذي يحتويني. لا جواب. وحيدة. وحيدة أنا. تتمزق بعض السكينة الباقية عندي ولا أفهم ما الذي يجرحني هكذا؟

أتطلع حولي. للغرفة شرفة. أفتح الباب وأخرج. المنطقة بعيدة عن النادي الذي زرته مع الخالة، يوم كانت أمي تجهز لي ثياب المدرسة. السيارات تروح وتغدو. الناس قلائل في الشارع. أفكر بأمي ويغشاني حزن عميق شامل. ولا أعرف منه مهرباً سوى التوسّل إلى صدر أمي! أين وداعة خالتي أنا! وحكايات ظريفة؟

تذكرت دموعي مع معلمة البيانو. قالت لي بعد الدرس الثاني إني تلميذة موهوبة. الابنة والابن الأصغر في القصر يجيدان العزف على البيانو، وتتباهى أمهما أن أفضل أستاذ بيانو في القاهرة يعلم ولديها. إنه ايطالي. أنا لم أخبر أحداً أنني أتلقى دروساً بالعزف على البيانو. خشيت أن يسخروا مني. هم؟ هم عندهم أفضل الأساتذة «السينيور پوليبيزي». أما معلمتي فإسمها «مس خريستو». هي عانس يونانية.

تعود الخالة من سباق الخيل، تصطحبني إلى شقتها في الطابق الخامس. أجلس إلى مائدة كبيرة، وأراجع دروسي. الخالة تختفي. ثم أسمع صوتها في المطبخ وهي تخاطب «بكر». «بكر» يرفع صوته. هي تستشيط غضباً. تهدأ الأصوات.

رب أين أهرب؟ أين أروح؟ من أين لي أن أتحمل هذا الصقيع. أنا بردانة. بردانة. والدنيا ما زالت آخر الصيف. أحس كأني أخطو إلى نهاية العالم. حواجز المشاعر تحيطني، تحاصرني. لماذا؟ لماذا سأقضي كل عمري وأنا أتساءل عن الأشياء، وعن الأحداث، وعن الناس؟ وأنا

أخاف من المدرسة. أخاف من الخالة. وأجواء القصر الكبير كالفندق الخالي من الانفعال. لم أجد أثراً للحنان الذي أحاطوني به أثناء وجود أمي.

سبح خيالي في فراغ كالصقيع. تمدّدت على سريري الحديدي في غرفة الطعام. صوت الثلاجة يذكرني أني لست في غرفة نوم. صوت الثلاجة يدمرني. المرآة على الحائط، ومائدة الطعام مع كراسيها تشعرني أني مجرد قطعة من الأثاث متروكة للنسيان. صوت الثلاجة يتوقف. الآن أستطيع أن أخلو إلى الأحلام، وأرى وجه أمي. ويبدو سريري بعيداً نائياً، وقرب أمي استحالة. أين خطواتها في البيت؟ أصوات طمأنينة وسكينة؟ أمي لا تضع الثلاجة في غرفة الطعام. وظريفة لديها غرفة وحدها!

أقارن ما بين الخالة وسيدة القصر. الأولى بنظاراتها السميكة، والغضب المستمر في ملامحها، وإذا ما ضحكت فهي تبدو كالدب الذي يتقلص إلى فأر. بينما الأخرى، تقوم بدور فاتنة من فاتنات المجلات. ترتدي آخر صيحات الأزياء باتزان، وتحرص أن تظهر في كل ساعات اليوم كاملة الأناقة. تلبس القبعة، وتتزين بالمجوهرات المتنوعة، فزوجها يهديها، وأخو زوجها يغدق عليها بذوق رفيع. لا تتكلم العربية إلّا مع زوجها وخدام القصر. تزم شفتيها النحيفتين كلما سخر الخال منها وهي تتكلم العربية ولا تجيدها. ويسألني أنا إذا كنت أستطيع أن أعلّمها العربي، فأصاب بالخجل وأتعثّر بالإجابة. ويضحك هو مردداً الإغاظة عينها التي يوجهها نحوي، رغبة في التودد:

- أنت عربية؟
- عربية لبنانية.

ويرتفع صوت الخالة، فإذا بها تتكلم للمرة الأولى منذ أن جلست إلى مائدة الطعام:

ـ يجب أن تتعلم اللهجة المصرية.

وأتـذكّر كيف تضـحـك بنات المـدرسة، لأني لا أحكي بـاللهجة المصرية.

وللمرة الثانية أشعر أني لست كغيري من الطالبات. أشعر بأني مختلفة، وأني في عالم يهبط عليّ بأسوار الغربـة. وكأني أركض وأركض، والثعلب يلحق بي، عبر صحراء شاسعة.

٦

الساعة الخامسة بعد الظهر. باحة المدرسة خالية. حديقة الكلية واسعة تنتظر ورود الطالبات. الحائط الشاهق بين المدرستين الأميركية وجارتها الفرنسية يسدّ المدى أمام النظر. نحن في دنيا «الممنوع»، فلا يجوز لطالبات المدرستين أن يتسالمن عبر سور منخفض أو نافذة مفتوحة على الصبا والأنوثة القادمة. الطالبات الخارجيات ذهبن إلى بيوتهن، والداخليات متفرقات في مهام مختلفة. أصوات البيانو والكمنجة تصدح هنا وهناك، بانتظار ساعة الدرس في السادسة.

الساعة الخامسة بعد الظهر، وليس في المدرسة كلها إلا رجل واحد. هو البواب! يقف صامداً كالأهرام بلاحته السمراء، وثلاثة خطوط مشرطة على كل ناحية من وجهه الوسيم، يلبس جبته البنية، مع لفّة رأسه البيضاء المسماة «بالعِمَّة». يقف ويراقب، يجلس ويراقب، يبدو وكأنه حفظ وجه كل فتاة ولجت ذلك الباب الحديدي الموارب.

الرجل الثاني في المدرسة يأتي في النهار، هو أستاذ اللغة العربية، طويل، غير وسيم، يلبس طربوشاً يزيد من طول قامته. يدرّس المحفوظات والإنشاء والإملاء والقراءة، أما القواعد فيدرسها الأستاذ «العتر»، بنظارته السميكة الزرقاء، شحيح

النظر، ولذلك أرفقته ادارة المدرسة بمساعدة لضبط نظام الحصة.

عالم مضغوط ضمن أربعة جدران هائلة عالية، لا تطل على الشارع من أية ناحية. يُسمع صوت «المترو» من بعيد، وكأن هديره وحده هو الذي يدل على وجود حياة أخرى خارج اطار الجدران! العالم «الممنوع» يجثم هناك، بعيداً، ذاك العالم المرفوض. وفي الداخل تمارس الصرامة على أشدها، انضباط، مراقبة مستمرة، حياة خالية من المفاجآت. مديرات ومعلمات باردات، يتصرفن بميكانيكية. دنيا آلية، تكاد ان لا تتنفس فيها المشاعر، أو تظهر فيها العواطف. ويضغط السقف المنخفض على صدري. والصراخ يملأ كلمات لا تنطق!

لجأت إلى شرائطي الملونة لأربط إصبعيّ بهما لئلا يكتشفني أحد وأنا أمصهما إلى أن أقلعت عن تلك العادة. ألم تبدأ من الخوف؟ الخوف الآخر من الموت؟ ومن الفراق الذي لا يرحم؟ وها هو خوف جديد يدفعني بعجالة أن أتحرّر من ذلك المتكأ الطفولي.

عقدت سلاماً مؤقتاً مع نفسي انتظاراً لليوم الذي أستطيع أن أحكي فيه لأمي. سأروي لها كل شيء، وهي لن تبقيني هنا. حولتني المدرسة الداخلية إلى انسانة مرتجّة. مفككة. محصورة بين أسوار مخيفة وسقف منخفض. أتوق إلى معجزة تعيدني إلى ذاتي. وأعود فأتساءل: «لو عاش أبي. هل كانت أمي سترسلني أتعلم بعيداً عنها؟».

القروش العشرة التي يعطيني إياها زوج الخالة وهبتني انتماءً معيناً. أشعرتني بأني لست مختلفة كثيراً عن بقية الطالبات. ولو بقطعة الشوكولاته! وتراءى لي أن بإمكاني تلبية نزواتي.

دنياي غرفة واسعة باردة كالجليد. فالدراسة ليست سلوتي.

لم تستهوني أبداً، وبقيت الحرف الناقص في الفصل، أكاد أن لا أتسلق ذلك الرقم الواحد الذي يصعدني إلى النجاح. وأستفيق كل صباح، أفكر بأمي، أركض، أركض إليها بلواعج قلبي، بقلقي، بضياعي، ثم أستكين أمام البيانو. انقذني العزف على البيانو من العراء المطبق. وتأقلمت على ضبط انفعالاتي، فالبنات غيري لا يسكبن دموعهن في حضنهن كما كنت أفعل من وقت إلى آخر. وسئمت أن يشار إليّ باستمرار على أني تلك البنت التي مرضت من كثرة البكاء!

وكانت طالبات المدرسة الداخليات يعشن ظروفاً أفضل من التناقض الكبير الذي كنت أواجهه. فقد كن، كلما خرجن في عطلة، يعدن إلى الجو الذي تربين ونشأن فيه، فلا يتبدل عليهن نسق الحياة ولا العقلية التي يتعاملن بها مثلما يحدث لي. كنا أنا والطالبات الحبشيات، الوحيدات اللواتي لا يخرجن إلى ذويهن.

احتلتني الغربة. أجل! فأنا أنتقل من معاناة إلى أخرى، وما من محتوى عاطفي يصب في وجداني. أنا يابسة كالخشب. وغريبة في المدرسة، وغريبة عند أقارب أمي. لا أجد أي صدى لما أبثه لنفسي من اعتلاجات مؤلمة ومشاعر مشتتة.

ويأتي صباح السبت، فأهبط السلالم درجات بعيداً عن الانتماء، وأصل إلى غرفة الغسيل. هناك يقبع قعر السلم، ففي تلك الغرفة كنا نرمي ملابسنا المرقمة الوسخة على الأرض، فتتراكم الأوساخ على البقع وبقايا الدم، وأصاب بالتقزز والنفور، ثم أهبط سلالم أكثر عندما أدخل الحمام، لأقوم أولاً بتنظيفه من مخلفات مقرفة تركتها البنت التي اغتسلت قبلي.

عاشت معي عقدة الحمام إلى ما بعد الدراسة في الداخلية وبعدها الجامعة. مهما تجوّلت، وأينما سافرت، أهرع أولاً إلى

الحمام لأتأكد من نظافته حتى قبل أن أستكشف غرفة النوم التي سآوي إليها.

اكتشفت أن زميلاتي في المنامة لا يفكرن فيما وراء الأشياء. يأخذن الأمور كما تأتي. يتقبلن الصرامة كأمر واقع. ما من واحدة أفضت إليّ بأنها مصابة بضيق لا تفهمه. وكأني كنت أصعد سلالم وأصعد ثم أهبط. أصعد إلى أجواء الحلم والنسمة المضيئة في حصة البيانو، وفيما بعد، خلال الساعات التي كنت أقضيها في التمرين. هناك تتراءى لي دنياي الحقيقية وراحتي ومأواي.

تعرفت على «يشي» الفتاة الحبشية الجميلة! «يشي» تكبرني سناً، رفقت بي، وأفضيت إليها ببعض همومي. واكتشفت أن «يشي» كانت تتوقع من المدرسة الداخلية فرصة أرحب للحياة، لكنها وجدت أنها تحيا الصرامة عينها التي كانت تعيشها في أسرتها المقربة من الامبراطور «هيلا سلاسي». فلا تناقض هاماً بين جذورها وواقعها. لعل بنات كثيرات يشعرن أن «الداخلية» هي الفرصة الأرحب، هي الحرية المنشودة. صحيح هي صرامة، لكن وقعها أخف من قسوة الأب، أو عدم اكتراث الأم.

ظللت، بالرغم من «يشي»، غريبة. فقد سقطت من الدفء والطمأنينة إلى هنا. هذا المكان، اللامكان! السجن هنا، ترافقه ناموسية بيضاء، وغرفة غسيل مكدّسة بالأوساخ، وليس هناك من كلمة صغيرة صادرة من القلب، إلا رسائل أمي. لم أفهم كيف تعيش الطالبات في أروقة مظلمة لا تطالعها اشراقة شمس الابتسامة، ولهفة الحب الحافلة بالعطاء، إلاّ عندما اكتشفت دهاليز الحياة الداخلية في المدرسة!

البنات كالفئران يحفرن أنفاقاً ليتنفسن منها. حاولت أن أفعل مثلهن. جاريتهن، فقد سئمت أن أظل مختلفة عنهن، أحافظ على حرفية قوانين المدرسة. هل أنا آلة؟ وأين أهواء طفولتي؟

وحبي للتمثيل؟ هل يكفي البيانو أرى بهجة الحياة من خلال أصابعه البيضاء والسوداء؟

كانت الطالبات المتقدمات سناً، ينمن في الغرف البعيدة عن غرفة «مس بدر». أما اللواتي يحطن بها، فهن تلقائياً أمام جبروت تلك العانس الأنيقة بالفراء والحرائر، وعينين خضراوتين تبرقان قسوة من خلف نظارات بدون اطار. «مس بدر» العانس المسنّة، من المتوقع أن تكون غافية الساعة الحادية عشرة!

غرفتي متاخمة لغرفة «مس بدر»، و «يشي» الحبشية في غرفة مقابلة. «يشي» ذات البشرة السمراء، وعينين بنيتين تلمعان لهفة على معظم الأشياء، لها شعر أكرت تجدله بضفيرة مستديرة حول رأسها دون شرائط. أصبحت «يشي» تجدل لي شعري يومي السبت والأحد حيث أبقى في المدرسة.

كنا نخلع الثياب البنية في عطلة الأسبوع، ونلبس ما نشاء. وأضافت «يشي» شرائط ملونة إلى ضفيرتي. أما في الليل، بعد الساعة العاشرة، فقد كنت أهرب من الغرفة التي أنام فيها، وأذهب إلى غرفتها المقابلة، لنتحدث.

أفضت إليّ «يشي» أن الطالبات بتن يتغامزن كلما مررنا معاً أمام مجموعة منهن. وسألتها:

ـ لماذا؟

ـ يقلن أننا... متحابتان.

ـ ولكن نحن صديقتان. كيف لا... نتحابب؟

ـ كلا.. ليس هكذا...

ـ بل كيف؟

وشرحت لي أن كل واحدة من الطالبات الكبار، يفتخرن بعدد الفتيات اللواتي يحببنهن، والهدايا التي تصلهن منهن. وهن

بدورهن يحببن مدرّسة من المدرسـات الأميركيـات، ويستخبرن من رئيسـة الخادمـات «املي»، عن مـوعد خـروج المـدرسـات للسهرة خارج المـدرسة، فينتظـرن عودتهن عنـد السلم المؤدي إلى الطابق الأعلى. والرابحة هي التي تقتنص قبلـة من معلمتها المفضلة.

سألت:

– وترضى المدرّسة؟
– يبدو ذلك.
– و... و... أنت؟ هل... أنت... مثلهن؟
– كلا... أبداً.
– ولا أنا...

سكت واجمة. أصابني الحـزن. الدنيـا معقدة. كتبت لأمي عن «يشي»، وظلت «يشي» صديقتي، وتوثقت علاقتنا عندما انضممنا إلى باقي الطالبات، وغزونـا ذات ليلة الثـلاجة المـوجودة قـرب غرفة الطعـام! سرقنا خبـزاً وجبنة، وعـدنا إلى أسرّتنـا نرتجف ونضحك، وخبأنا الأكل تحت الوسادة. تكررت زيارات السرقـة، فاكتشفت ادارة المدرسة اللعبة وعمدت إلى وضـع جرس يرن في اللحظة التي نفتح فيها الثلاجـة. وقرقـع الجرس سكـون الليل ذات مسـاء بينما نحن نسرق الأكـل، وتركنـا كل مـا أخـذنـا، وركضنا ونحن نمسك بأيدينا قمصان النـوم الطويلـة، وهرعنـا إلى غرفنا، ودقاتَ القلب تطن. وما إن تمضي دقـائق، حتى تأتي مدرّسة وبيدها ضوء، وتلف على الغرف، وتضيء النور، ويقـابلها صمت الطالبات اللواتي لم ينزلن إلى تحت. أما نحن، المذنبات، فلقد بقينا ساكنات نائمات نخشى أن تسمع المعلمة دقات القلب المرتعش، ولعلها سمعته، لأننا في الصبـاح التالي وقفنـا ذليلات أمام «مس بدر»، ومُنعنـا من الخروج لقضـاء فرصـة الأسبوع خارج المدرسة.

البـذنجان والكـوسا والقـرنبيط، خضروات كنت لا أطيق طعمها فأرميها إما تحت مائدة الطعام، أو أبلع لقمتين أو ثـلاثاً، بلعـاً بالماء، فطعمها كان أفظع من أن يطاق، حتى لو عمدت إلى بلــغ اللقمة بالماء.

قضيت ست سنـوات أتعذب بـالأكل. ولكن عنـدما تـدرجت في غرفة المنامة، وأصبحت من الطالبات الكبار، اخترت أبعد غرفة عن «مس بدر»، حتى بدأت أرتوي وأسد جوعي باللقمـة الطيبة من «الحمام بالفريك» الذي كانت ترسله أم نـوال كل أسبـوع، وتخبئه نوال في درج الملابس بدلاً من خـزانة السـاعة الـرابعة للطعام.

٧

انتظار الصيف طويل وبطيء بعد الفراق الأول.
وبعد الفراق الثـاني والثالث، لا يتبـدل الشوق، تتبدل لوعتي على موت أبي إلى لوعة على ذاتي. أما اللقاء، فإنه يحمل شعلة صارخة بالفرح والألم معاً.

عشت حياتي كلها أحسّ بالألم، حتى وأنا في ذروة الفرح!!

حاولت جهدي أن أقنع أمي بعدم جـدوى عودتي إلى المـدرسة الـداخلية. تـوسلت وبكيت، لكن أمـي صمـدت بقلب يضطـرب وجعاً. لا بد من اكمال الطريق. وقبـل وداع يفرض عـليّ، كانت أمي تحاول أن تقنعني أني سوف أجد المدرسة هذه المـرة، أقل غربة ووحشة. رفضت أمي أن تصدق أن خالتها قاسية هكـذا، وظنّت أني أبالغ عندما وصفت أخوالها. بكيت دماً يفور، ونعيت والدي من جديد، وأوقعت لوعة في خفايا صدر أمي.

الشـوق يلتهم الأيام، يلتهم الفـرحة، ويتستـر الألم في ألفاظ لا تفيـه حقه. خـالتي وحدهـا صدّقت شكـواي لأنها في طفـولتها عاشت مع أقاربها. كل صيف يمر، تتكرر المأســاة. لقاء متـرع بالحنان، والكلام يمتد، والقصص تتتالى، والأب الغائب حـاضر أبداً، وأنا أستغيث به، والأم تضطرم ألماً. هكذا القدر.

أعود إلى القاهرة بعد فرصة الصيف خائبة وحزينة، أنخلع من

صدر أمي، وأعود منحنية الرأس إلى روتين الحياة في المدرسة. ويأتي يوم السبت، فيكون دوري في الخروج قد أتى، وأنضم إليهم، تلك العائلة المفروضة على مشاعري. وأستمع. هذه المرة يسألني الخال الأصغر إذا كانت أخته قد سمحت لي بزيارة غرفة «الكرار» ـ أي غرفة مثل «التتخيتة».

لم أفهم في البداية أهمية تلك الغرفة المغلقة، ولا شعرت بأي دافع للتفرّج عليها، بالرغم من أني سمعت كثيراً عنها من زوج الخالة، ومن بكر الخادم، ومن الأخوال، ومنها هي التي تتكلم دوماً عن أغراضها المخبأة في غرفة «الكرار». إلّا أن الخالة فاجأتني ذات يوم، وأذعنت لرغبة مكتومة في نفسها، وأمسكتني من يدي، وأدخلتني معها إلى غرفة «الكرار». ثم أغلقت الباب علينا بالمفتاح.

كنت وقتها أصغر من أن أفهم نفسيتها، فاحتكارها لتلك الغرفة يشي برغبة مريضة في السيطرة والامتلاك. كشفت لي ما احتفظت به سراً على أقرب ما عندها، بجشع يلتمع في عينيها اللتين تشرقطان، ثم تضحك بوحشية، وكأنها انتصرت على الآخرين، أو انتقمت منهم بطريقة ما. ظلّت تردد: «إنهم يتوقون إلى معرفة ما أخبىء». «فَشَرْ» تقول! «هذه الغرفة لي وحدي، وحدي أنا».

ولما دخلت الغرفة دهشت لما رأيت! غرفة مليئة بكل ما يخطر على البال. قماشات من الحرير مكدّسة فوق بعضها، خزانة كبيرة تحتوي على كمية من الخيطان، وكل ألوان الخيطان ثم تموجات كل لون بلون. من الأخضر الغامق، إلى الحشيشي الفاتح. الأصفر ومتفرعاته، الأحمر وأنواعه. ثم وجدت أحذية بالعشرات، وشراشف مكوّمة. ومجوهرات مخبأة بين الأحذية. قبعات قديمة وجديدة تشتريها ثم تخفيها. ملابس جديدة مهملة. تضحك الخالة بخبث وهي تريني ما احتفظت به طيلة

السنين. قالت لي إن زوجها لم ير غرفة «الكرار»!

نسمع صوت الخادم «بكر» يناديها، ويدق على الباب. تصرخ سائلة إياه ماذا يريد. فيسألها كم كباية أرز يطبخ، وتعرف أنه يتحشّر بها لتفتح له الباب. يريد أن يرى ما في غرفة «الكرار». توبخه. يختفي صوته تتنصت. تضع أذنها على الباب. تزيح المفتاح من مكانه، وتنظر من فتحته. تتأكد أن «بكر» راح. تعيد المفتاح إلى مكانه، وتحذرني تحذيراً جدياً صارماً أن لا أخبر أحداً بما شاهدت في غرفة «الكرار».

قالت: «اليوم نشتري لك قمصان نوم». فرحت. استقلينا المترو، ومن شباكه كنت أتفرج كالسجين على الدنيا الغامضة حولي، وأراقب كيف ننتقل من مصر الجديدة، مدينة الشمس: «هيليوبوليس» إلى مصر. لماذا يسمي المصريون القاهرة مصر؟!

المهم الآن أن أمسك يد خالتي لئلا تتعثر في الطريق، فهي قصيرة النظر، وكالعادة ترفض لبس النظارة الطبية.

وصلنا سوق القماش، واختارت لي قماشة من «الكستور»، وهو من النوع الذي يتحمل تكرار الغسيل والكي. وجرت مشاحنة بينها وبين البائع حول ثلاثة أرباع المتر. هي لا تريد شراءها، وهو يصرّ أن القماش ليس كافياً لأكمام طويلة.

لم أفهم عنادها، فقد تركت أمي معها مبلغاً كافياً من المال للاهتمام بما يستجد عليّ من حاجات. لم أعترض خوفاً من غضبها.

كثيراً ما كان الأخوال يسمّعون أختهم على أنها شحيحة، وبدوري لاحظت عليها بوادر البخل والتقتير، إلّا أنها أغاظتني غيظاً استثار دموعي عندما أصرّت أن تخيط لي القميصين. وحدث تماماً ما توقعه البائع، فلم يصل طولهما إلى أسفل رجليّ، ولا غطت أكمامهما طول ساعديّ. ثم إن الطالبات سخرن

من منظر القميص، وبدوت فيه مضحكة، بردانة، مغتاظة. فقد كنت فعلاً أحس بالقشعريرة في أطرافي أكثر من أي مكان آخر من جسمي. ارتجفت في الليالي القارصة، وظهرت مختلفة عن بقية الطالبات، عرضة للسخرية، فاضطررت أن أحكي لهن قصة الثلاثة أرباع المتر، فقط لكي لا أبدو في كل مناسبة ناشزة عن الطالبات.

قالت الأم لأختها:

– وصلتني رسالة من ابنتي. تقول إنها كشفت أسرار المدرسة الداخلية، وأصبحت ترسل إليّ الرسائل مع فتاة في المدرسة الخارجية، وتشتري «سندويشات» الفول بواسطة تلك الفتاة التي تخرج من المدرسة ظهراً، وتعود بالفول قبل نهاية فرصة الظهر، فتتناول ابنتي الأكل بدلاً من طعام المدرسة المجوج. إنها تتأقلم، ولكن بكثير من الألم. تصوري ما فعلت خالتي بقمصان النوم. مسكينة تريد أن توفّر عليّ المال.

استمعت الأخت، لكنها لم توافق أن هدف خالتها كان التوفير.

– هي شحيحة هكذا. كانت تفعل الشيء نفسه معي، وتغتاظ منها جدتي وتوبخها مستغربة من أين تعلمت البخل.

يبدو أنني سألبس النظارة الطبية. من كان يقول إن ابني سوف يواجه المصير نفسه عندما بلغ الثالثة عشر من عمره؟ بكيت أول مرة، واستغثت بالطبيب الصديق الذي نصحني أن أشكر ربي أن ابني ليس مصاباً بمرض يعيق نظره.

الخال الأصغر يداعب أخته بسماجة:

– أنت مش عايزة تلبسي نظارة، والبنت الصُغَيّرة تلبسها. من منكما أحق بالشكل الحلو، هي أم أنت؟

تبكي. تقوم من السفرة. تلحق بها زوجة الأخ، فتصرخ بها:

ـ ده كلُّه منك. كُلُّه منك: علشان تفضلي الحلوة الوحيدة في البيت. مش عايزاه يتجوز!

وتصبح المسألة جدية، ويعلو صوت الأخ الكبير، وينتهر أخته، ثم ينادي زوجته بنبرة قاسية أن تعود إلى طعامها لئلا يفوت موعد سباق الخيل!

مرضت ذلك الشتاء، مرضاً حقيقياً. إلا أن «مس بدر» لم تصدقني في البداية. ظنت أني أمرّ بحالة شوق إلى أمي. من أين تراها ستفهم. إني دوماً مشتاقة إلى أمي. لكن الممرضة التي قاست لي حرارتي، أكّدت لها مرضي، فاستدعوا الطبيب، الذي نصح بنقلي إلى المستشفى لأني مصابة بالتهاب حاد في الرئة.

اتصلت ادارة المدرسة بخالة أمي، التي اتصلت بزوجة أخيها، تسألها ماذا تفعل بشأني. ولأول مرة خلال ست سنوات، شعرت أن الاهتمام ينصبّ عليّ، وتدفقت الطالبات يزرنني في غرفة المستوصف الصغير في المدرسة الداخلية. وأنا غائبة، منهارة من شدة الحرارة.

جاءت الزوجة إلى المدرسة ونقلتني بسيارتها وسائقها إلى أفضل مستشفى في مصر. وجاء الأخوال لزيارتي، وبكيا خوفاً عليّ. فقد تذكّرا أن جدتي، والدة أمي توفيت من اصابة بالنزلة الصدرية. فخافا عليّ.

حدث هائل حطّ على حياة الفتاة في القاهرة. ولدت ومضة حب، بينها وبين زوجة الخال في المستشفى، جمل غير كاملة، أقاصيص صغيرة. حياة الداخلية. قميص النوم الناقص. سخرية البنات من نظاراتها. «يشي» أنهت دراستها وعادت إلى بلادها. الانتقال إلى آخر غرفة منامة على الطابق. صديقات في الداخلية والخارجية. زيارة نادي مصر الجديدة. لعبة البينغ بونغ. بركة السباحة. شراء

«الجلاس». السرير الحديدي. صوت الثلاجة. «بكر» المسكين. الشجار اليومي. تعليم الخياطة. لفق الألبسة. الطعام في المطبخ. الصالون مغلق. فيه بيانو. ممنوع اللعب على البيانو. القسوة وزاوية مهملة من طيبة القلب. عشرة قروش ثمن شوكولاته. فترة وباء الكوليرا الشهيرة في مصر. وحدها. ظلت وحدها مع الحبشيات زميلات «بشي». لم يسأل عنها أحد. الصديقتان نوال المحبة، ونوال الهدامة. اتهام بالخوف. اتهام بضعف الشخصية. الحيرة. لماذا متهمة؟ لماذا مختلفة؟

انتقلت من الشقة إلى القصر بعد أن أبللت من المرض، ثم عدت إلى المدرسة انسانة مختلفة. أخذتني زوجة الخال على عهدتها، ولم تمانع الخالة البتة. وكأني كنت عبئاً ثقيلاً وزال من على كتفها.

دخلت عالماً جديداً. أنام في غرفة وحدي، أرافق زوجة الخال إلى زيارة الخياطات. أجلس كل أسبوع في «صالون» «جروبي» للشاي. وأتعرّف تدريجياً على الخالين. ونشأت بيننا ثمة علاقة مليئة بأخبار المدرسة، وعذابي الماضي مع أختهما، وماذا فعلت في نهاري، ومتى أذهب إلى النادي، ولماذا لا أشاركهما في حضور سباق الخيل. واقترح الخال الأصغر أن أشتري فستاناً جديداً هدية منه، ودخلت المحلات الفاخرة، وانتقت لي زوجة أخيه فستاناً من قماش المخمل البني. ولم أجرؤ أن أعترض على ذلك اللون الجاثم عليّ كالقصاص.

ولعل أثمن هدية منحتني إياها سيدة القصر هي ارتيادي نادي مصر الجديدة بمفردي. تتركني عند الباب، وتعيّن لي ساعة عودتها فأنتظرها عند المدخل أو أعود وحدي بسيارة أجرة. كنت قد زرت النادي مع خالة أمي من قبل، لكني معها كنت أخشى التحرك من مكاني. شاهدتني تلميذة من مدرستي،

فجاءت تسلّم عليّ، لكن الخالة لم تشجعها على الجلوس طويـلاً. فيما بعد، عندما أصبحت أرتاد النادي وحـدي، أخذت أتواعـد معهـا في المدرسـة، ونلعب البينغ ـ بـونغ معاً أو نسبـح في حوض السباحة.

٨

وقعت في الفخ!

دفعتني براءتي وحرماني وضياعي دفعاً إلى امرأة القصر الذهبية. سحرتني بلطفها، بدعوتي إلى مشاركتها في كل ما تفعل، كلما خرجت من المدرسة الداخلية. انهمكت ترشدني، وعلمتني أشياء كثيرة، وأطلعتني كيف تدير القصر، وكيف تستقبل الضيوف، وكيف تهيىء حفلة عشاء. اصطحبتني معها إلى الحلاق والخياطة، وأفهمتني الفرق بين معاملتها ومعاملة زوجة بروفيسور البيانو، والبواب و«البستنجي» والسائق والسفرجي والخادمة.

أشعرتني أني جزء من حياتها، وتذكرت أمي في بعض تصرفاتها، كادت أن تصعدني إلى عرش «الأميرة»، الذي أقعدتني عليه أمي، ولكن سرعان ما واجهت الصدمة، وانكفأت على نفسي أرد عني عذاباً جديداً.

كانت الشقراء الجميلة تحيا عالمين في وقت واحد، وتحب رجلي القصر، كل واحد على حدة، تنسج لنفسها دنيا خاصة لا علاقة لها بعائلتها ولا بزوجها، فتبذخ لتتألق. السر على مقربة منها، السر يلاحقها بانتباه واهتمام. السر هو أن تسعى للمحافظة على حب شقيق زوجها لها، فالرجل لم يتزوج طيلة حياته! وأنا التي

اكتشفت السر، عندما رأيت يده تداعب ركبتها البيضاء، وهربت قبل أن يشاهداني.

أصبت بالذهول، وحاولت أن أتناسى سر تلك المرأة المتألقة بأناقة تستمر منذ الصباح الباكر حتى الليل. تهتم بمظهرها، وفي الوقت نفسه تقوم بالإشراف على سير قصرها بتدابير حازمة، والكل يهابونها ويجلّونها. الخالة وحدها تحدق بها شذراً، وتُسقِط من لسانها اتهامات ملفوفة بكلام بصيغة الغائب.

احترت بعلاقتي بها، فقد أحببتها، وصببت كل حرماني فيها. تأرجحت عواطفي، ولم أجرؤ أن أسأل أحداً ما العمل. ثم حدث ما مسّ كرامتي، وهزّني باستهوال كبير، عندما أخذت تهبني ملابسها القديمة! رمت سهماً قاتلاً في صدري، وطغى عليّ شك أطاح باستقراري لأنها هي التي رفعتني، ثم عادت فهدمت معنوياتي وآلمتني وأذلتني. امتصت كل كبريائي، وتحتّم عليّ أن أضع حداً لعاطفتي نحوها. لم يكن بمقدوري وقتها، إلّا أن أفهم أني بالنسبة لها لست سوى تلك اليتيمة المكسورة الخاطر.

ألم يخطر ببالها ماذا سأحس، ابنة الرابعة عشرة من عمرها، مرتدية ثيابها أمام موظفي البيت وسكانه، ورواد النادي، وطالبات المدرسة؟ خفت أن لا أرتدي الثياب، وهي تسألني إذا فرحت بها، لئلا تظنني متعالية، أو أني لا أقدّر معروفها. لدغتني الامرأة هذه. ما إن حامت مشاعري ثم حطّت على كتفها حتى لدغتني.

كانت زميلاتي كلما عدت إلى المدرسة بفستان من أثوابها يسألنني: «لماذا يبدو هذا الرداء وكأنه ليس لك؟ لماذا تخيطين ملابس لا تليق بسنك؟».

اكتسحتني الحيرة، لماذا أنا سيئة الطالع هكذا؟ ممّ أشكو

حقيقة؟ كنت الانسانة التي تفتش عن ذاتها، ضائعة بين براعم النمو والنضج، لا تلبث أن تتكىء على أحد، حتى يتبخر ينبوع الدفء من الآخرين. كل الذين أحتك بهم ربما علامات استفهام حولي. لم أجد نسمة حرارة تلفح قلبي المهيض، ولا مد إليّ خيطاً يحمل المشاعر الخاصة بي، ما الذي بقي ليضيء وجداني؟ بات الحنان وهماً أفتش عنه في المدرسة، وعند الأقارب، لعله يلفحني ثم يلفني ليختمر وينهض فيّ، لربما تزول برودة الوجدان الواجف المتصلب.

ما هذا العالم الذي تريد أمي أن أشب في محيطه؟

أخذت مسألة الملابس هذه حيزاً من تفكيري، وكتبت لأمي أسأل نصحها. أمي ألبستني ثياباً من الحرير، وربطت ضفيرتي بشرائط ملونة زاهية، وتذكرت كيف حذرتها وقتها امرأة الخال، متسائلة ماذا سألبس عندما أبلغ الثامنة عشرة، وأصبح على «وش جوان»؟ يا لهول المنطق!

لم أعد أحتمل المكوث مع الأقرباء طويلاً أثناء عطلي، وأنا مكسورة الخاطر هكذا. نفرت بشدة، انتفضت من ألمي، وتحوّلت من فتاة تطل بخفر وخجل على أبواب المراهقة، إلى واحدة تريد أن تفترس الحياة رغم أنف الظروف، وتندفع نحوها بجنون. اختل عندي ذاك التوازن المطلوب، وسبحت في دنيا الحلم، هاربة من الواقع. تمسكت بطاقات مخبأة في ذاتي، وانتشيت برؤيا غامضة تنبىء بأني سأصبح إما كاتبة كبيرة، أو عازفة بيانو عالمية.

ابتدأ الحلم يشبّ في ذهني، يحتل مكان الواقع، ومعه تشعبت هواجس الخوف، كلما أحسست أن في دنياي عالماً غير منظور. لم أكن قد استوعبت بعد أن اللاواعي في ذاتي هو مصدر خوفي، وهو أنفاس الجزء المتخبط في مشاعري.

كنت أحلم أن أركل باب ذاك القصر بكل قواي فالقصر لا

يشبهني، والقصر لا يلبي رغباتي الدفينة، والقصر مجرد جدران لا تسكنها عائلة. أنا بت ابنة الخامسة عشر، تململت أنوثتي، وأخذت تشرئب، ورحت أفهم أسرارها واعتمالاتها من داخل سور المدرسة. تلقيت تفسيرات بعضها مشوه مثلي. وبعضها ناقص أو مبتور. وانتصب العيب! العيب هو الكابح الأكبر، والشاب هو الطُعم، والشاب هو المنزلق.

وتسللت إلى داخل أسوارنا في المدرسة الداخلية روايات الجيب، وقصص الحب، لكنها لم ترد عطشي إلى الاكتشاف، فالدنيا التي أفتش عنها هي أكبر من الحب وأعظم منه. بدأت من حيث لا أفهم أفتش عن الانتماء إلى دنيا أكوّنها أنا!

لكني ظللت أجابه نهاراتي متكئة على طيف أمي، وما إن يسدل الليل حتى أستريح من عناء المجابهة، فأفكر بها على سجيتي. أمي الواحة، أمي الينبوع، أمي الوتد، أمي النموذج. وأتأمل كل ليلة الغرفة العارية التي أمست منامتي منذ السنة الماضية، وأنخطف لعندها. هي محور الأمان، ومنهل الدفء، ومع طيفها أرتاح، واستدير لأعود إلى سريري، فيكشف النور عراء الغرفة. عشرة أسرّة حديدية متراصة، وعشر خزانات خشبية، وعشر ناموسيات بيضاء تربط نهاراً بشريطة كحلية، وطالبات مراهقات ينتظرن مرور الساعات، حتى نتقدم في الليل، ونصبح بمنأى عن ثمة مدرسة تستكشف حالنا، لننكب على الطعام الذي ترسله أم نوال. نلتهم، ونتحدث، وفي الصباح التالي، نستفيق بصعوبة ونحن نضحك. أزهار الربيع تتنفس فينا، هن يبتسمن إلى الحياة، وأنا أجاريهن.

تنزل الناموسيات البيضاء مساءً، تخبىء عشر طالبات يتقلبن على سرير حديدي «يزقزق»، ويزفون الربيع بأنفاس حارة مكتومة، وأنا معهن مستسلمة إلى غبطتي بشعري القصير، بعد أن كبرت على ضفائر مزينة بشرائط ملونة. وما

إن تطفأ الأضواء ليلاً، حتى أشعر أن باب الدنيـا قد انغلق بوجهي، وتركني أرتمي في الغرفة عينها، فتلتف حول عنقي، وينكمش قلبي ويهبط صـدري وأتقلّب عـلى حـال من عـدم الاستقرار. من أنا؟ إلى أي دنيا أنتمي؟ يصيح الديك أحياناً ولا أفهم مـاذا يخبـرني. المـاضي أقـرب إلى التنـاول، حميم دافىء في كنف أمي.

أصحـو اليوم التـالي، وأفرط في اختيـار نشاطـات متنوعـة لكي أنسى، وأنا لا أفهم تماماً ماذا أريـد أن أنسى، ربما ذاك العـالم المعقـد الذي أعجـز عن فهمه، ذلـك السقف الـذي يهبط عـلى صدري كالبلاطة. وأزفـر قلقاً، ويتـزايد القلق سنـة بعد سنـة، وتتـأثر دروسي وأهملهـا. تناديني مـديرة المـدرسـة، وتـوبخني بصرامة، وتفرض عليّ عقاباً بالوقوف سـاعة في الممـر الطويـل، حيث تراني كل الطـالبات، بـدلاً من أن تقوّم مـا لا يعجبها فيّ. وهكـذا أزداد توهـاناً وقلقـاً، غير مـدركة مـا هو الـذنب الذي اقترفته.

ضباب من الحزن الـرمادي يغشى عيني ذاكـرتي، وتخرج منـه طيـات حياتي كـأني ألد طفـلاً وأنا بـلا رحم! ذاكـرتي ليست ملكي، هـي تفاعلات الآخرين المفروضة عليّ.

لو كان والدي على قيد الحياة، هل كانت الأحـلام وهواجس القلق وغموض الموت، والخوف المكثف المبهم، يتآكلني هكذا بلا رعايـة؟ ما هـذا الناقص في حيـاتي؟ لا مخلوق ولا حتى نملة تفهمني. كل ما عندي هو ادراك استجمعت معالمـه من وجـودي. فأنـا أفسّر الحياة لا كمـا يفسرها الحيـوان الذي يفقـد ملكة الـدفاع عن النفس، فيتخبط خـوفـاً من الهـول الكامن في الانسان. أنا أحلّل كإنسانة تشقّ أنفاسها من بين الأجـواء المتناقضـة التي يجسدهـا ذلك الهـول. فليس كل انسان ذا انسانيـة متكاملـة. فهل خـالة أمي انسـان مثلما سيـدة القصر انسان؟ ومسؤولـة المكتبـة المتفهمـة انسـان

كإنسانية نوال الأصيلة المتدفقة؟ هذا الآخر الذي أتفاعل به، ومعه، أهو انسان مثلي أنا؟ أبداً، هو نمط مختلف من الانسان.. والعلاقة مع الآخر شرك كبير معقد كخيوط العنكبوت، أتلاطم داخله كما أصارع البحر، ثم ألقي نفسي في مياه السباحة في النادي وأتوق إلى العوم. أين أبي؟ أبي أنا، أجل لقد كان لدي أب كغيري من الطالبات. هو الذي كان سيعلمني السباحة!

بزغ أفق مثير في حياتي. حط عليّ كالاكتشاف المفاجىء، واحتلت الدهشة كياني. ما هذه الأحاسيس الجديدة التي اكتشفتها في نظرتي إلى الفتيان؟

بتنا أنا وزميلاتي نتحدث كثيراً عنهم. صغرت الشلل بين الفتيات، وأخذن يتمشين أزواجاً أزواجاً في أقاصي حديقة المدرسة، ويستمر الهمس، وتبرق العينان، ويسرحن بأذهانهن بعيداً أثناء الدرس. لا بد من ابن عم، أو ابن خالة، أو أخ الصديقة، أو جار «السرايا» يأتي، فيدغدغ براعم الحس الناشئة في قلب الفتيات.

نوال صديقتي كتبت لنا رسائل في الصيف تسرد لنا فيها عن معجبين كمحمود وأحمد. لم تصدق أعيننا ما قرأناه، فقد كانت نوال أكثر انضباطاً، وأفضلنا سلوكاً، وأميزنا دراسة.

وعندما عدنا من العطلة الصيفية، اكتشفنا أن محمود عمره سبع سنوات، وأحمد لم يتجاوز الخامسة. ضحكنا، ورحنا نغيظها حتى فقدت صبرها معنا، وأدارت لنا ظهرها، وبقيت غاضبة عدة أيام.

٩

اللون الأشقر

انفتح باب مبهم ضيق في مشاعري. انقشعت فسحة بين الغيوم، وهبت فيّ حرارة ساخنة، دغدغت حواسّ انبثقت من المجهول، هـزتني. رفعتني. طلت المجهـول وأنـا أبحث عن أصلـه. ما الـذي يحدث كلمـا التقيت «بلامي»، ذلـك الفتى الأشقر الطويل؟ هن في غرفة العشر طالبات يعلمن أن كل ما هـو أشقر يفتنني. ذهب الشمس يطـل عليّ كـل مـرة ألعب «البينغ ـ بونغ» مع صاحبتي ثريا.

ثريا تصف كل خلجة في القلب على أنها حب. إنها فتاة عـادية. سمراء. شعرها أكرت. تصففـه بمهارة. غـارقة حتى أذنيهـا في الحب. تنتظره في النادي؛ يتهامسان قرب حوض السباحة حول «جيلاتي» ملوّن. تضطرب ثريا. تخبرني فيما بعد أنها تنسى كل ما انتوت أن ترويه خلال فترة أسبوعين في المدرسة الداخلية.

أتركها معه. ألعب المزيد من «البينـغ ـ بـونغ» مـع شاب أسمـر طويل، هو ابن عمها. منــه أتعرف إلى نضــارة الربيـع تهل من عيني «لامي». ما هذا الاسم الغريب «لامي»؟ أمه تـركية. هــل هي شقـراء؟ كلا والـده أشقر. لمـاذا يقف هكذا ولا يتكلم؟ ولا يلعب. هل هو شارد في عالم آخر؟ لكنه ينظـر إليّ؟ لا، أبداً. هـو خجول. صحت به بصوت يختنق كذلك خجلاً: «هل تنتظر دورك لتلعب؟» يبتسم، فيهطــل عــليّ ذهب الشمس من بــين شفتيــه،

ويشع من شعره الأشقر المجعد. الفتى وسيم. أنـا ألبس نظارة طبية. كيف سيعجب بي؟ بل كيف؟

ليس هـذا هو الحب. وقتهـا كان الحب أقـرب إلى النزوة. كنت بحاجة إلى بضعة عشر درجة أصعدها في مشاعري أنـا قبل أن أقول إنه حبي الأول.

تلـك هي الإثارة الأولى. الأحـلام فوق سريـر حديـدي تدفئني. أتـذكر جبـال لبنان الصيفيـة، حفلات الـرقص بعد الظهـر مع الأهل والأقارب والأصـدقاء. ابن خـالي يرقص معي. ولا أحـد غـيره. كيف أقبـل اليـوم دعـوة «لامي» إلى حفلـة النـادي؟ لا أستطيع. قلت له لن أخرج إلّا بعد أسبـوعين. القـانون هكـذا. خمسة عشر يوماً في رحاب فسحة الأحلام الـوردية. وبعـد هذا الانتظـار يخبرني ابن عم ثـريا أن «لامي» لم يـرقص في حفلة النادي طوال السهرة. ظل واقفاً يتفرج.

ويرتاد النادي ضابط من سـلاح «السواري»، يـرتدي الكـاكي وفـوق كتفيه شبكـة من الحديـد الفضي النـاعم، تعطيـه رونقـاً أخاذاً، يتمشى في الحديقة مع صاحبه الضابط أيضاً في سـلاح «السواري»، ولكن الأول يخطو بهالة ويئج ناراً مشتعلة في قالب هادئ، تعلوه ابتسامة غـامضة. الآخـر يبتسم دوماً ابتسـامة ساخرة. وروح النكتة تسري بين الاثنين، فيضحكان، وتلمحهمـا الفتيـات والشابـات والنسـاء، وهمـا يجيـدان دورهمـا. عـدم الاكتراث، الابتعاد. النظارة السوداء. وعصاة الحصان. أجـل. هما فارسان متألقان.

الأول أشقـر الشعر، أزرق العينـين، حـالم عـلى فـرسـه أثنـاء التدريب، يفكر بعالم بعيد عن العسكرية. بعيد عن العنف. إنها مهنة وراثية، لا مفك من الانصياع لتقاليد العـائلة. يكتشف في نفسه ميلاً فطرياً لكتابة الأدب. ينسج قصصاً، لقيت رواجـاً في صالونات المجتمع الـراقي في الخمسينيات، سيمـا عند الجنس

الناعم. تجربة كل واحدة منهن موضوع قصة جاهزة بين يديه. إما أن يطويها، وإما أن يحييها في أسطر يغطيها يضمها بين الدفتين من الغلاف الذهبي. وهن، يتهافتن عليه. هو، يحوم وينتقي.

وقعت عيناه عليها. تجلس وحدها. دائماً في المكان عينه. مقهى النادي الذي يطل على حوض السباحة. تحتسي الشاي بهدوء. وتقرأ. تأتي صديقتها ذات الشعر الأكرت. يتهامسان طويلاً. يتوجهان إلى ناحية غرفة «البينغ - بونغ». وبعدها يلمحها تمشي مع الفتى الطويل الأشقر.
قال لصديقه إنه يود اللحاق بها، ليرى كيف تحب الفتاة المراهقة. وحدجه الآخر يحذره من الجري خلف الصغيرات. ذكّره أنها تلبس نظارات طبية. أجابه أن هذا ما لفت انتباهه إليها.

ترصّد حركاتها، وتأملها من بعيد، وحظيت بإعجابه، وظل يؤكد لنفسه أن شكلها لا يدل على أنها مصرية. مرت من أمامه، هي والشاب الأشقر الذي تلازمه. بديا فرحين بندى الشباب، الذي يسقي برعماً يتألق بينهما. هو رآه باهتاً. وقال لنفسه لعلها نسمة حب لم تهب من الجذور.

التهمتُ ساعات الحرية التي منحتني إياها زوجة الخال. أقبلت عليها أملؤها، أعيشها، أتنفسها. وعندما تنتهي أعود إلى كابوس الانضباط، وأحاول أن أكون مثل الآخريات فلا أفلح. دوماً هناك هفوة تقفز من تصرفاتي، وأتلقى الانتقاد.

النادي خطوة براقة، تلتمع فيها عيون وجداني تتنفس مسام جلدي. تتلون عيناي. أحس بجمالها في رأي الآخرين. أحس بطعم الأنوثة. هذا الشيء الجديد. هذا اللغز. يجتاحني. جباراً. يطيح من أمامه كل اللذات السابقة. قراءة روكامبول بالسر. سرقة الأكل. اعجاب بالمدرّسة. درجة عالية هذه المرة في الدراسة. السينما. السباحة. المكتبة. يظل البيانو متعة لا تشبه

غيرها. آخر السنة اختارت لي معلمتي قطعة من راخمانينوف. دعوت امرأة الخال للاستماع إليّ. لبت. هنّأتني. خطوت درجات في الثقة بنفسي عندما تناسيت أن مدرّس ابنها هو الايطالي الشهير. لم أكن واعية أني ألعب لعبة مع زوجة الخال.

> أنا الفتاة الوضاحة. الحلوة. الموهوبة. وشعر قصير لا أثر للجدائل فيه. ومجموعة شرائط ملونة بقيت تذكاراً من طفولة تبتعد، ومعها يتوارى الخوف والقلق وأسئلة غامضة عن الموت. أنا لست ذاكرة أبداً كيف غدوت أتكوّن وأتطور. ظننت أن الحزن غاب. ولكن كيف يغيب وأنا دوماً أحس أني ناقصة لأني بلا أب؟ وحيدة، وأمي بعيدة، أمي الحالة المُطلق. لا جدال حولها. هي المطلقات بذاتها: العطاء. الجمال. الحب. الصداقة. الحنان. الصبر. أمي؟

تقول لي «مس بدر» إني لا أشبهها. لن أكون مثلها. هذا صحيح لا يمكن أن أصبح مثل أمي!

أنا أتخيل نفسي ابنة المطلق. أميرة في دنياها. الحلم. الخيال. هكذا نشأت. والدنيا لا تعاملني كأميرة. وامرأة الخال تقوم بدور المرأة النموذجية. تحب أن ترى نفسها في عينيّ: «المرأة النموذجية»! ومعها شعرت أني لن أكون مثلها، لأني لا أريد أن أكون مثلها. حياة البذخ والترف والحفلات والأوبرا. أجل، أخذتني معهم إلى الأوبرا. انبهرت بالمبنى، بالذهب على الجدران، بملابس الممثلين. لكني لم أحب الأوبرا. الملابس والحرائر والفراء والجواهر والقبعات ثم الحذاء والحقيبة ذات لون واحد. كل صيف في أوروبا، تدليك، مياه معدنية، كازينوهات. ما الجدوى من كل هذا.. بلا عاطفة؟

كلا لم أنس سباق الخيل. كل أسبوع سباق الخيل. وفي العطلات يصطحبني الخال الأصغر إلى الاصطبل.

أتفرج على الخيول. وفي أعماقي توق جارف أن أركض نحو

الحصــان، وأقفز عــلى ظهره، ويجـري، ويجري، ويجـري بـلا توقف. وإلى ما لا نهاية. أظن أنه كان بودي الهرب من دنيـاهم إلى دنيـاي أنا. لا يهم إلى أين، المهم أن أركب الحصـان. لكن. مـا من مرة. كـلا. ولا مرة. ولا كلمـة تحمل اثـر دعوة إلى تعلّم ركوب الخيل. كنت أتوق أن أمتطي حصاناً. لم أجرؤ أن أطلب. ولا شعرت بنفسي قريبة منه كفاية كي أطلب. أنا في النهايـة: في نهاية كل موقف: «اليتيمة».

أمي تعمــل كي نعيش. كــي أدرس في القــاهــرة. كيف أتــعلم المدنية، وأتلقى مبـادىء الحضارة. كـل هذا، ولـدي الجرأة أن أتمنى ركـوب الحصان؟! كـلا. كلا. إنـه موضـوع غير قـابـل للنقاش. نسيته. تناسيته. ســألت صاحبتي ثـريا عن العصـاة التي يهزها الضابط الأشقر الجالس أمامنا في النادي. تشرح لي ما هو سلاح السواري. أتفرج وأسكت. هو يبتسم.

علاقتي بثريا غريبـة. هي الصاحبـة التي تعرف الـ «ممنـوع» الذي لا يسمح به الأهل عادة. مصاحبة الشبان. لكن، لا أحس أني أستطيع الإفضاء إليها بما يدور في خلدي، ولا عمـا يعتمل في أعماقي من مشاعر وتناقضات ومخاوف وهـواجس. علاقتنـا مسطحـة. تحكي لي عن صاحبهـا. أنا أستمـع. لا تسألني عن نفسي. ولا عن «لامي». كـل همهـا هـو الـزواج. أنـا لا أفكـر بالزواج. مسافة بعيدة جداً عني. لم يرد على خاطري ولا مـرة. سمـيرة الطالبـة صاحبـة السرير قـرب النافـذة هي صديقتي. تلبس نظـارة مثــلي. أحكي لهـا عن أمي. عن «لامي». تفهمني. ربمـا لأنها أكبـر مني سناً. لم أعـد ألقي بالاً لنـوال الأخرى. نوال الطيبة لا تهتم بالشبان. نلتقي في المكتبة. أما ابنـة الخال فهي أبعد عني من أطراف أطراف الصداقة. لم تحاول أبداً أن تصاحبني. تنظر إليّ نظرة إهمال. وكـأني لا شيء. حشرة ربما. فـأتجاهلهـا. الخال الأصغـر يداعب أختـه، يسـألهـا لمـاذا لا تدعوني إلى تناول الغداء معهـا. أين؟ في النادي. في «جـروبي»

الشهير. تتمتم الخالة بلا شيء. ومن قال أني أريد أن أرافقها إلى أي مكان. هي السجن الذي هربت منه. هي فراغ الإنسان من العطف. هي الفشل. هي الأنانية الشحيحة. لن أغفر لها قميص النوم القصير مدى حياتي. لقد عرضتني للسخرية. و«بكر»؟ كيف أطاقها؟ عندما ماتت، كان هو الذي اكتشف وفاتها، واتصل بإخوتها. واستولوا على أغراض غرفة «الكرار». يا لسخرية القدر! يومها بكت أمي وخالتي. لماذا بكتا بتلك الحرقة؟ لم أفهم. إنها لم تعطف عليهما أبداً، ولا بدا منها ما يدل على حنانها. بعض القرابات مظاهر. يخيل للمرء أن هؤلاء الأقرباء أدنى الناس إليه. ثم يكتشفهم في غيرهم، في آخرين لا يمتون بأي صلة قربى.

يخيل إليّ أن الشبان هم الذين اكتشفوا انسانيتي! تطلعوا إليّ برفق. عاملوني برقة. ابن الخال الأكبر اشترى سيارة جيب. ركضت أتفرّج عليها. وعد نفسه بها منذ زمن طويل. يناقشه أبوه في جدوى شرائها. أخيراً لبّى له رغبته وتركه يشتريها. أمه مولعة به أكثر من الآخرين. تحسب له ألف حساب. وقف الشاب في الشرفة يراقبني. ثم هبط إلى فسحة السيارات ووقف معي. فجأة سألني إذا كنت أحب أن أركبها معه. وافقت في الحال، وقفزت داخلها. وركض بها كالحصان. راح يومها يكتشف مجاهل مصر الجديدة، في الأرض الصحراوية المحيطة بالمطار. يهبط في حفر ويطلع فوق منحنيات. قلت له أن يأتي إلى لبنان في الصيف كي يتفرّج على جباله. وعدني بالمجيء. وسافرت أقضي العطلة الصيفية، ثم وصلتني رسالة منه يقول فيها إنه نوى السفر إلى بيروت فوجد نفسه في السودان! فهمت ماذا حدث. تدخل الأهل في اختيار بطاقة السفر. ما الفائدة من كل هذا. أتى عبد الناصر وأمّم مصنعهم، ومُنِعَ ابن الخال هذا من دخول نادي اليخوت، وهاجر إلى كندا، ثم تقابلنا في جنوب فرنسا. وراح يتكلم عن عروبته!! لم أخجل منه. لم أرحمه. مع

أنه يستحق الرأفـة، فقد عـاملني ذات يوم عـلى أني انسانـة.
فقلت له هل تذكر مصر؟ كنتم تسخرون مني لأني لا أجيد اللغة
الفرنسيـة كما تجيدونها لشدة ما كنتم موغلين في التفرنج!

١٠

تبتل روحي بدموع أمي السعيدة، وتقفـز بسنيّ عمري حولها. أنـا معها، أنا أحتضنها، أنا أكاد لا أصدق روعة لقائنا فكلما تجدّد، كلمـا ارتفع صـداه إلى الأعالي، فقـدري معها، وقدرها معي، ولا مفر من التلاقي.

فندق عائلي في مصيف «برمانا» بلبنان. المصطافون موزعون على طاولات متناثرة في أرجاء الشرفة الواسعـة المطلة عـلى الوادي. طاولة «بينغ ـ بونغ» خلف الحائط الأيمن للفندق، فوقها عريشة تتدلى منها عناقيد العنب غـير الناضجـة بعد. وتظلـل الطاولـة أشجـار الصنوبـر، ويرافقهـا صوت «الـزين» الـذي يقز زيء. زيء. زيء، فيكمِّل مواصفات مصايف لبنان الفريدة.

سيدتان في منتصف عمـرهما، تلعبـان سويـة «البينغ ـ بـونغ» بحماسة. تلتقط كل منهما الكرة الصغيرة. بعض الحركة وقليلاً من الركض. تتعب السيدتان بعد نصف الساعة، فتعـودان إلى الشرفة، وتنتقيان الطاولة نفسها التي تجلسـان إليها كـل صباح الساعة الحـادية عشرة. تطلبـان فنجاني قهـوة «سكر زيـادة»، ترتشفانهـا بلذة، ثم تشعـل كل منهمـا سيجارة «كنت»، وتنفث دخانها في الهواء دون أن تبلعه. وبعدها تفتح كل منهما كتابها، وتستأنفان المطالعة.

ابنـة السيدة الكبـرى مختفية مـع ميمي. وميمي فتاة كشعلـة النار، ولها طاقة من الحيوية التي لا تذوي. أبوها توفي، وتركها لتـربية أمهـا الفرنسيــة الصارمـة. وهيهات أن تكتـرث ميمي لتعليمــات والــدتهـا. إنهـا كـالنيـزك الـذي يختـرق الممكن والمستحيل، تزيح آداباً حرصت أمها عـلى التقيد بهـا، وترفض التقليـديات ومظـاهر العنـاية بـالملبس والشعر والأظـافر، حتى نظارتها الطبية ترميهـا هنا وهنـاك، تتسلق الأشجار، تقفـز من فوق الأغصان، تخـرج من صدرهـا سجائـر كانت تسرقهـا من حقيبـة أمها، تـركض، وتنط برشـاقة، وتبتسم بعـذوبة إذا مـا استقر نظرها على رجل وسيم مسن يتطلع إليها باهتمام.

ظلت ميمي تحب الرجال الأكبر سناً منهـا، تغفّ وتأخـذهم على حـين غرة، لا أحـد يدري مـا الذي تقـوله أو تفعلـه، إنمـا هم ينشدهون بها ويتعلقون باهتماماتها البـريئة أحيـاناً والمغـرضة أحياناً أخرى.

تتربع ميمي عـلى الأرض أينما حلت، فـالحرج وشرفـة الفندق، وأدراجه العالية التي تؤدي إلى مدخله، أمكنة استراحة، سيان الفرق عندها، تجلس حينما حلا لها.

وأنــا أحببت ميمي، هي وصخبهــا وضجتهــا! أحببت فيــهـا مقدرتها الهـائلة عـلى تحطيم كل الأعـراف التقليديـة. تحبسها أمهـا في الغرفـة، فتتسلط على خـادمة الفنـدق، فتفتـح البـاب وتخـرج من حبسها إلى الأحـراج المجـاورة. وتنطلق عـلى غـير هدى، إلى أن تهدأ، وتعود إلى أمها فتقبلها، وتطلب المغفرة.

وميمي لم تكن فتاة جميلة، لكنها جذابـة، تتحشر بالنـاس، هي القـادرة على اقتحـامهم ببسمتهـا الحلـوة تقـدم لهم خـدمـات مجانية، تحب أو تكره، ولا تعرف الوسط.

كنا ذات صباح نستـريح في فيء الحـرج بعد أن حـاولنا تسلق الأشجار. كنت أرتدي «الجينز» الذي اشتريته من القاهرة، ولم

أجد مثله في بيروت بعد، مما لفت الأنظار، وأسعد تلك الناحية الخفية المنبثقة من سني الخامسة عشرة. وقالت ميمي بلا مقدمات:

ـ يجب أن نصل إلى «جينو» هذه الليلة، لكي نعرف إلى أي فندق سوف ينتقل.

حاولت جهدي أن أثنيها عن مطاردة عازف الغيثارة «جينو»، خفت عليها، فهو ليس من سنها، ولا من محيطها. قلت لها إنه قد يؤذيها ويضحك عليها. وتسخر ميمي بصيحات عالية وتقول إنها تستمد الحماية مني ومن قريبي الغليظ الذي يرافقنا إلى كل حفلة تقام في فنادق الجبال. صحيح انه راقص جيد، ولكن.. ضحكت ميمي وتحدتني أن أكمل جملتي، اعترفي ولكن ماذا؟ آه منك يا ميمي أعرف أنه ثقيل الظل ويغار على كلتينا بلا سبب، ولكني أعترف، أجل، أعترف أني لم أعد أطيق الرائحة المنبعثة بعداً من فمه.

تضحك ميمي وهي تمتص السيجارة بنهم، وتقدم لي واحدة، وتصرّ علي أن أجرب طعمها ولو مرة واحدة. أنصاع إليها، وأمتص اللفافة دون خبرة، فأختنق ثم أسعل، فأتضايق وأعطيها السيجارة.

تنهّدت ميمي وهي تفكّر بعمق. فسألتها: ماذا يقلقك الآن؟ ونفخت دخان لفافتها بوجهي، وهي تقرّ أنها سوف تشتاق إليّ بعد أن أسافر. وحكيت لها عن «لامي». وعلقت بهدوء اليائس:

ـ أنا لست جميلة مثلك.

ـ أنا ألبس نظارة!

ـ لكن عندك صديق.

ـ أيهما تقصدين؟

ـ لا بد وأنك تفضلين واحداً على الآخر.

ـ أسألك أيتها الجنية أيهما تقصدين؟

ـ لا أعرف من دخل قلبك أكثر هذا السوري أم المصري؟

ـ ميمي! أتظنين أن «معروف» مثل «لامي»؟ كلا. أبداً.

ولم تفهم ميمي، أو ربما افتعلت عدم الفهم لتعرف أكثر. وقلت لها إن «معروف» شاب حزبي يحدثني عن حزبه وعن عقيدته. أما «لامي» فلا شك أنه دغدغ شيئاً ما في مشاعري. سكتت ثم تساءلت:

ـ من يعلم إذا كنت سأجده عندما أعود إلى القاهرة.

ـ أين سيذهب؟

ـ قد يواصل دراسته في أميركا.

ـ لماذا لا يخطبك؟

صحت صارخة:

ـ يخطبني؟ عمره سبعة عشر عاماً! ثم من قال أني أريد أن أتزوج؟ أنا لا أفكر بالزواج أبداً.

أتذكر «لامي» كلما لعبت «البينغ ـ بونغ» مع أمي أو خالتي. هو النجم المتألق في أحلام اليقظة، هو الفرحة التي أتنقل في أرجائها ساعة الليل، أو على عذوبة أنغام الموسيقى على «سطيحة» هذا الفندق أو ذاك. هو اللحن الحلو، لكن ليس المتعة الأبدية. المطلق آنذاك هو أمي! حنانها، فهي الوسادة الخالية من الشوك، والقلق والحيرة والاكتئاب، ومن السؤال المتدلي من سقف الدنيا بلا جواب. هي الجواب، هي منتهى الأشياء واكتمالها.

أمي تواظب على قراءة الصحف كل صباح، قبل أن تمارس رياضة «البينغ ـ بونغ». وبعد الظهر تبدل فستانها، وتضع الحمرة الفاهية على شفتيها، ثم تضيف عقد اللؤلؤ والقرطين اللؤلؤيين. إنها بسيطة، شامخة، نسيت الضحكة العميقة، وكل اهتماماتها جدية. خالتي ترافقها كالظل. لماذا لم تتزوج، لا

أدري، إلا أنها في هندامها عكس أمي. فهي تكثر من الحلى والثياب الملونة.

تعرفت أمي على «معروف» خلال جلسات القهوة على «سطيحة» الفندق. سمعها تحكي عن حزبه، فاقترب منها، واستأذن بالجلوس معها. استمعت إليهما ذات مرة، فكنت إذا ما رأيته جالساً معها أسحب كرسياً وأنصت إلى حكاياته عن حزبه. وبعدما بدأت أطرح الأسئلة، وانتقلت الأحاديث من أمي إليّ، ووجد «معروف» فيّ شيئاً ما، ربما رفيقة وجدان ينبض بتوق هائل إلى الاكتشاف. كان يكبرني سناً، ولكن ذلك لم يحدّ من نقاشه معي، فيجدني كل يوم تقريباً بانتظاره الساعة الخامسة، نشرب الشاي، ونتحدث.

كنت أحيا دنياوين: ميمي الجامحة التي تخترق كل ما هو عيب وممنوع أو مناف للأعراف. تقتحم بلهفة، وعراكها مع أمها لا ينتهي، بينما كنت أنا عكسها في تلك المرحلة من حياتي. كنت أقترب أكثر فأكثر من أمي. بت أفكر بـ «أمي»، كيف تحس، ماذا ينقصها. بدت لي متماسكة، راسخة، هي توأم روحي. وراحت تتحوّل من ملاذ، ومن حضن يحميني، ومن استقرار يزيل قلقي إلى «الصديقة». وبدأت أنا أستوعب سنوات الوحدة التي عاشتها من أجلي، سنوات التوق العاطفي. وهي ربما بحاجة إلى سند أو إلى حبيب، وحتى إلى زوج. وتراءى لي أن أمي مترهبة. وهنا استعصى عليّ أن أفهم أم «ميمي». لماذا هي قاسية، ناقمة على حظها، بينما أمي تنساب في العطاء، وكأننا أنا وهي حلم يتحقق!

بدأت أخرج من دائرة اللاوعي، إلى دائرة الفهم على الاكتشاف. أمي لم تخف عليّ من صحبة «ميمي». وأنا كنت أخشى على «ميمي» أن تضيع منها حقيقتها، فيأخذها جنونها بعيداً عن بلورة ذاتها، بينما هي تنتقم من الناقص المبهم في

حياتها، في صحبة الرجال المسنين. هل كانت تسعى إلى عاطفتهم لأنها تتوسل بكبرياء شديدة أن تملأ الفراغ الذي تتركه قسوة أمها؟ وغيبة والدها؟ أنا لم أجرؤ أن أسألها، لأني شعرت لو استفهم مني أحدهم عن ظاهرة كهذه، لكنت أحسست أنه يطعنني بخنجر.

أدهشتني قابلية «ميمي» على الحياة، والحركة المستمرة. «ميمي» تغفو كالأطفال. يومها يومان.

حدث في تلك الفترة، خلال صيفيتين قضيتهما في برمانا، أن استيقظ في نفسي ايقاعان، أو نمطان من الحياة. واحد يفتح مصراع الجدية، وآخر جموح ولكنه خفيف ويسلي. تستيقظ فيه الأنوثة مع الوعي. ولد فيّ شيئان: واحد، يقفز والآخر يتمهل. الوجل قبل اكتشاف الشوق لإنسان بالذات، ليس مثل شوقي لأمي وخالتي وابنة عمي سوسو ونوال ومديرة المكتبة، وسميرة الأخرى التي تلبس نظارة طبية مثلي، وسريرها آخر سرير في آخر غرفة من طابق المنامة في المدرسة الداخلية. شوقي «للامي» كان مثل توقي إلى التنفس من الأعماق، بعيداً عن تنفسي المرتج كلما وجدت نفسي مع عائلة أمي.

ثم «لامي» كان يدفعني إلى الانطلاق على سجيتي قبل أن أفهم وأعي معنى الايغال في الجو الصاخب بالحركة وبالمسابقات الرياضية، وحفلات راقصة مرحة تنتهي الساعة العاشرة مساء.

«ميمي» الصخب، لامي نسمة التعاطف. ومعروف الوعي. الحزب. السجون. المظاهرات. العقيدة. رئيس الحزب. كلها أمور جديدة، ايقاع مختلف في دورة الحياة. فأنتفض صلبة، متمسكة بعروبتي. أحس أنها اسم عائلتي الآخر.

طلب معروف أن يراسلني، أجبته أني لا أستطيع تلبية رغبته لأن أمي لا تسمح لي بذلك.

عنـدما التقينـا «معروف» وأنـا في الصيف التـالي، تصـافحنـا بحـرارة. ولكني كنت «أنا» جـديدة، فقـد دخلت حياتي تجـربة بصيغة غير متعارف عليها، لأنها كانت العيب بـذاته!! ووجـدت نفسي «كميمي» الجـامحة، لكن وبخفـر وبدهشـة من نفسي على نفسي. لعلي كنت أتساءل مـا هي هذه المشـاعر التي تـولد رغم القرار الذي لم أتخذه!

١١

تفاصيل القـاهرة. مصـاعب القاهـرة. غربتي في القاهرة. متاعبي. أحلامي. مخاوفي. كلها حالات تـذوي وأنا في كنف أمي. انتهى الصيف. العـودة إلى المدرسـة وزرٌ لا يحتمل. مهما أخفت أمي من انفعـالاتها أمـامي. أحس. أهتز. مشاعرها تطابق مشاعري.

السنوات تمر. أنـا أعارك ارادة أمي من حيث لا أدري. وأحقق ارادتهـا من حيث لا أدري. غرست فيّ تصميمـاً لم أختـره أنـا لإكمال دراستي. لتفاعل شخصيتي.

وقفت أمام نفسي هذه السنـة أواجه الحقيقـة وحدي. أعتـرف أني خيّبت أمل أمي. أنا تلميذة فاشلة! يلاحقني التوبيخ كيفما نقلت ساقي من فصل إلى فصل. تناديني المديرة. أقف أمامها. وجـه صارم. نظـارات بيضاء مستـديرة بـلا إطار. عينـان بلا إحساس. صوت بـارد. فأرتجف. أفتش في مـلامحها عن بـاب يوصلني إلى مناقشة اضطرابي المـدرسي، وتقهقري غـير المبرر، فإذا بها توبخني على اهمالي، وتأمرني بالوقوف ساعتين في ممر المدرسة. مما يعني أن كل تلميذة سوف تشاهد نتيجة خيبتي.

أنا أحس بسوء التفاهم الدائم بيني وبين المجتمع. الأشرطة الملـونة عـلى شعر اليتيمـة.. أحس أني كلما خطـوت خارج

الأطر التقليدية، تتألق شخصيتي، وتتلوّن وجنتاي، وأنبعث واحدة أخرى غير تلك المنزوية في غرفة البيانو، أو بين خزانات الكتب في المكتبة.

المكتبة والبيانو والنادي، هي التي استدرجت مواهبي. أنا أشعر بالفشل!

قالت لي مديرة المكتبة إني يدها اليمنى. مدرّسة البيانو قررت أن «باخ» سوف يكون مؤلف القطعة التي سألعبها على البيانو آخر السنة. «باخ» أصعب الملحنين. الموسيقار «الرومانسي» «الماتيماتيكي» إنه نصر أصل إليه بعد ست سنوات من التمرين. إنه ارتقاء موسيقي بالغ الروعة أن ألعب «باخ» أمام الطالبات والمدرّسات والمديرة، وسائر الزوّار.

ذهبت إلى النادي في عطلة الأسبوع. هذه المرة كنت وحدي، معي قصة لكاتب أميركي. جلست أفكر، لم أفتح الكتاب. طلبت الشاي. الساعة الخامسة بعد الظهر. تذكرت صديق المصيف: معروف. التأثير البريطاني لنادٍ «مصّره» المصريون بعد جهد. ولم يخطر ببالي أن ذلك الضابط الأشقر الطويل الوسيم هو بالذات الذي سوف ينقذني من الانكسار.

ألاحظه من بعيد، يجلس مع صديقه الضابط الآخر ويتسامران، ويضحكان كثيراً. دوماً عيناه عليّ، دائماً تلاحقاني. ويبتسم. كنت أتجاهله السنة الماضية. لا أعرف كيف، لكني ابتسمت له هذه المرة. قام من مكانه، واقترب مني، وجلس. سألني عن اسمي. عن مدرستي. عن هواياتي. ثم استأذن وغاب، وعاد بيده كتاب. وقال لي إنه كاتب ويريدني أن أقرأ له هذه الرواية.

كنت أعرف من هو. كل الناس يعرفون من هو. ارتبكت لقربه مني، وتلهيت أتصفح الكتاب.

قرأت الرواية في أسبوع. خبأتها بين ثيابي. لم أخبر أياً من صديقاتي عما جرى في النادي. أشعر أني اقترفت ذنباً بالجلوس معه. ولكني لا أحس أني محرجة حيال نفسي. لم أكن راغبة ولا قادرة أن أقفل بوابته المشرعة أمامي.

خرجت من المدرسة في عطلة الأسبوع الذي تلاه، هرعت إلى النادي آملة أن أراه، وبيدي الكتاب ملفوفاً بجريدة. وجدته ينتظر، وحده هذه المرة. جلست معه، فابتسم. لبثت صامتة، هو يتفحص وجهي بعينين متلهفتين، وأنا أرى السؤال في وهجهما: كيف وجدت الرواية؟ سألته بلا مقدمات: لماذا لم يكتب شيئاً عن مصر؟ ضحك. وقال إنه لا يفهم ماذا أقصد.

> كانت مصر تتأجج في تلك الفترة من فساد الملكية، وسيطرة الانجليز على قرارات الحكم. وشب حريق القاهرة انذاراً هائلاً على الأزمة الحادة في البلاد. ثم أظن أني كنت لا أزال تحت تأثير حواراتي الصيفية مع «معروف». الوطن. الأحزاب. الهوية. وطأة المستعمر.

سكت وظلت ابتسامته أقرب إلى الضحكة الساخرة من الابتسامة البريئة. فغضبت، واتهمته مباشرة أنه ضابط في الجيش لا يهمه سوى التألق بالحديد البراق على كتفيه. لم يكترث، بل استمرت ابتسامته ساخرة، وسألني عمّ جعلني أحشو رأسي بمشاغل أكبر من سني؟ نظرت إليه فاغرة فمي بدهشة، وفهم أني كنت على وشك أن أسأله ما الذي يجمعه بي، أنا ابنة السادسة عشرة. فأجابني أنه ينتقد النفاق الساري في المجتمع. فسكت، وفكرت قليلاً، ثم قلت إنه ربما على حق.

جاءني بكتاب جديد: اليوم لا أذكر عنوانه، لكني لم أنس أن الرجل مراد كل فتاة وامرأة، فهو الحلم الهائم في وعيهن. وهو لا يعرف أن ما جذبني إليه هو الإحساس بالمغامرة. التحدي.

الولوج إلى عالم غير عـادي. لم يكن «نوبـوكوف» قـد كتب بعد روايته «لوليتا». رجل في الثلاثين، ماذا يريد من فتاة بعمري.

عظمـة ذلـك السن تكمن في السر الـذي يغلف الحـوادث والمشـاعر والكلمـات بمطلقات جـازمة، لا مجـال للتـردد في آفاقها.

انتقلت من عالمي ومن دنياي إلى مكان ليس دنياه هو الآخر، بل ولد لدينا مكـان معنوي جـديد، نـابع من ذلـك الغموض الملتهب في أعمـاق كـل منـا، حـوار يـدوم، لا ينضب كـل أسبوعين مرة.

ظهرت عبلة بعـد الكتاب الثـالث تفتش عني. ولم أفهم من هي هـذه الفتاة التي تـريد أن تتعـرف بي. هبطت عليّ كـالمعجـزة، وابتسمت بخجل قائلة إن خالها يسلّم علي، ويسـألني إذا كنت بحاجة إلى شيء. عـانقتها بعفـوية، ثم أمسكت يـدها وأخـذتها معي نجول في ساحة المدرسة على غير هدى.

وخـالها كـان هـو. تبعني واقتحم مـدرستي والسـور والبـواب والانضباط والصرامة والقسوة، واللون البني الكئيب.

ظلت عبلة تهديني علبـاً من الشوكـولاته، وسنـدويشات الفـول المدمس، وأكياس الفواكه، وقطـع «الجاتـوه». كنت قد أخبـرته عن المغامرات التي فرضتها علينا حالـة الجوع التي تنتـابنا في المدرسة الداخلية. وكنت أفرح بالهـدايا، رغم ضـحكـة سـاخـرة على نفسي ترتسم في وعيي.

وبعدها تآمرت عليه، مع عبلة، وكتبت له رسالة اعجاب. حددت له موعداً في مكان ما دون أن أذكر اسمي. واتفقنـا هـي وأنا أن توصل له الرسالة على أنها من طـالبة معجبـة به من المـدرسة. وكـان تاريـخ الموعـد، في الفترة نفسهـا التي أخـرج فيهـا من المدرسة لقضاء عطلة الأسبوع.

ووقفت في المكان المحدّد غير بعيدة عن النادي، ولففت شعري بمنديل. وانتظرت وصوله. وصل على الموعد تماماً، وراح يلتفت يميناً وشمالاً، وأنا أراقبه من الخلف. ما لبث دقائق معدودة، ثم بدا عليه السأم، فالتففت حوله بسرعة من مخبأي قبل أن يعود من حيث أتى، وفاجأته بوجودي ضاحكة، فبغت وصاح، ثم غلبنا الضحك نحن الاثنين، بينما كنت أعاتبه على مقابلة غيري!

ينتابني الوجل. يدفعني الفضول، حب التوصل إلى أعمق غياهب المشاعر، كما لو كانت أوراقاً مكدّسة أفتش بين ثناياها عن الحقيقة المدونة: عن السر. عن الرهبة: عن الشوق. عن الراحة. عن العيب. عن الاطمئنان الذي أجده معه. العيب لم يثنِني عن متابعة علاقة مع رجل متزوج له أولاد. وجود عبلة في المدرسة، أراها كل يوم، ألمس عبرها استمراره معي كل يوم. ونمضي هي وأنا كل استراحة من الدرس في زاوية، نتمتم همساً ماذا قال، وماذا أحس، وهل حدث كل هذا من قبل. عبلة سعيدة. عبلة أصغر مني سناً، لكنها نهمة لسماع الأخبار. ونقل الأسرار مني إليه ومنه إليّ. إنها تعرفه من منحى آخر، وأمها تستغرب اقباله الشديد على زيارتها دون أن ترتاب بشيء.

بدأت ألاحظ نظرات الناس إلينا في النادي. بدأت أخاف أن يصل الخبر إلى أخوال أمي. بدأت أخشى أن تلاحظ زميلاتي انزوائي عنهن. بدأت أختلق حوادث أرويها لهن عن كيف أمضيت عطلتي، وأشرح لهن لماذا لم تعد السينما من هواياتي المفضلة. ورحت أنسج قصة حول عبلة صديقتي الجديدة، لكي أبرر لزوجة الخال توقفي عن سرد نشاطاتي في النادي كما كانت عادتي.

وسرح ذهني يخرج من أسوار المدرسة العالية، إلى عوالم أتخيلها بصحبته. انهمكت به، توترت، خفت ثم أحسست أني

كبرت فجأة! أصبحت أكبر من عمري دفعة واحدة! تطلعت إلى وجهي في المرآة. فشاهدت خليطاً غامضاً يشع من عيني، وعفوية تطل على هدوء الفتاة الناضجة. لفني استقرار مجبول بالتوتر، كنت أسيرة حالة لا أفهمها، وإنما مسحورة بها.

تجسدت فيه أحلام اليقظة، واستيقظت أنوثتي من ستة عشر عاماً مترعة بالتكوّن. القفز ما بين الشوك وبين الزهور. ما بين المستحيل وبين الممكن، ما بين انكشاف الوجدان على اشراقة توجع لكثرة ما هي جديدة على حياتي، وبراقة في وجداني. رجعت إلى طفولتي، أتذكر الحزن الذي غلّفها، وقارنتها بشبابي الحائر. رحت أسأل من أنا، فقد نقلني بمشاعره إلى ما هو أبعد من خيالي، ووهبني طمأنينة تتبخر كلما امتدت يده وغلفت يدي، فأشعر بالرعشة تصل إلى أخمص قدمي، وأحس بشيء ما يقف في حلقي، يبتلع المعاني المطلقة، ويطبق على أنفاسي، فتتحشرج كلماتي، وأتوق إلى أن أركض وأهرب لأرتمي في حضن أمي.

وكلما تكشفت علاقتنا عن آفاق ليس بوسعنا أن نطالها، أو نمسها، أمسى اللقاء بحد ذاته سجناً لا نستطيع أن نستريح فيه.

فهمت باكراً أننا حالة مرفوضة، لكني بت أعيها لقاءً بعد لقاء. ما يريده مني ليس بوسعي أن أعطيه إياه، مهما بلغت جرأتي. ولم تتكوّن معاناتي من لهفتي لاقتحام المستحيل، أو أي شيء من هذا القبيل، بل انبلجت من استحالة بزوغ الفجر. فالانتظار فيما بيننا مهما طال، سوف يكون الغروب نهايته. الباقي هو موقف نشأ مع تكويني وتربيتي واقتناعي. فالشرق مغروس فيّ.

وهكذا كنت أهرع إلى بيت الأخوال بعد أن أودعه وأدخل الحمام فأستحم، وكأني أغسل عني آثار كلماته المعلنة، ورغباته الدفينة. لقد كان حريصاً عليّ، بقدر ما كنت رصينة في التصرف بحريتي.

أدهشني بحبه لي، لكن ذلك لم يطغ على حدود افتتاني بـه. ولو لم أعـرف الحب الطاغي فيمـا بعـد، لظننت أن الـزخم الـذي يندفع مع انسياقنا، هو الذي يحمل الحب في طياته.

باتت الكلمات تفقد مصداقيتها، بهتت عنها معانيها. هـل يعقل أن يقول لي «سأحبك إلى الأبد؟» أنا كنت أعيش سني ولا أقتنع بغير المطلقات، كيف أصدقه إذن عندما يهمس بـذلك، ونحن لا نملك الأبدية في علاقتنا؟ إنها حالة لا مستقبـل لها، ولا حـاضر يقبل بها، ولا زاوية تتقبلنا فيها لكننا نصرّ عليها. وندلف إليها، فيهبط علينا الأمان.

طرقنا كل شوارع مصر الجـديدة في سيـارته. وبعـدها؟ تنتهي الشوارع والدروب والـزوايا في سـاعة متقـدمة من المسـاء عند موقف التاكسي، أنزل من سيارته، أستقل تـاكسي لأعود إلى بيت الأخوال، وكأني عدت من النادي بوجنتين محتـرقتين من شـدة الألق والخـوف. وأين أمي، هي ليسـت في ذاك القصر الكبـير. أمي بعيدة، أمي واثقة من تقديري لحدود الحرية التي وهبتني إياها.

أخيراً كتبت لها عنه. وبدأت أسرق التلفـون لأخاطبـه ليلاً بعـد خروج الآخرين، أو بعد نوم مبكر لهم.

لم أعـد أطيق الابتعاد عنـه. بتنا نجـد أن انتظـار أسبـوعـين لنتلاقى عذاب يعبث بتصرفات كل منا. أخبرته مرة أن المدرسة سـوف تأخـذنا لـزيارة حـديقة الحيـوانات. حـددت له اليـوم والساعة، وحدد لي المكان بواسطة رسائل صغيرة تأخذها عبلـة وتعيد جوابها.

وجاء اليوم الموعود، وكنت جذلة بما سأقبل عليه، فقـد ظل كـل لقاء مغامرة، وتجربة ننفرد بها أنا وهو. وتساهم عبلة في إرساء خططها.

ركضت في أنحاء الطابق المخصص للمنامة، ثم أقبلت على الدرج، أهبطه إلى غرفة الطعام، وفجأة تعثرت، ووقعت. ولويت قدمي! صرخت في مكاني من ألم الخيبة أكثر من الوجع الذي أصابني من جراء السقطة.

أخذوني، ساعدوني، دلكوا قدمي، وربطوها، وأجبروني على ملازمة الفراش، بينما أنا أصرّ على مقدرتي أن أقفز على قدم واحدة. بكيت. ظنوا أني جبانة. ومنهم من حسب أني متحمسة لزيارة حديقة الحيوانات. سكت أمسح دموعي، ثم ناديت سميرة، رفيقة غرفة المنامة، تلك الفتاة الرقيقة المحافظة، تلبس النظارات الطبية مثلي. وقع اختياري عليها، وكتبت له رسالة، ووصفت لها المكان المتفق عليه، ورجوتها أن توصل له الورقة دون أن يكتشفها أحد.

١٢

تعاظمت الضغوط عليّ، ولكن، كيف، كيف أفلت منه؟ كيف أهرب من دائرة الحنان والإثارة؟ كيف أنفض عني جاذبيته السحرية؟ دنياي باتت تدور حوله، وأنا متلهفة، حائرة. أطرد طيفه، ثم أجد نفسي قد ألقيت رأسي المتعبة على كتفه، فأستريح عنده من حيرتي في أمره. أرتمي في الراحة المنشودة وسط التناقضات المحيطة بي، ولا أجد مكاناً لي، إلّا على كتفه. أواجه الأبواب المغلقة حولنا، فأجري لعنده، وأحتمي تحت خيمة لا سقف لها، معرضة للضوء، للبوح، للانكشاف. تهطل دموعي مطراً فرحاً، مطراً خائفاً، ثم تنتشي رذاذاً حزيناً. وتدور الدوامة، فأختنق.

لقد بدأ الخوف!

وقعت حادثة حديقة الحيوانات فاصلاً بين التهور والتعقّل. عقلي آنذاك كان معرضاً لحمى القلب، والتواء قدمي، أعاق سيري، واستحال انتقالي بسهولة من مكان إلى آخر، فالتهبت وحشتي إليه، واسترسل الجنون.

استطاعت عبلة أن تهرب من الرقابة المشدّدة، وصعدت إلى الطابق الأول، لتزورني. دلتها سميرة على الطريق، وصلت إليّ تلهث خوفاً. عبلة الصبية وقعت في هوى الحب الذي تسقيه استمراراً وأملاً. ثم نشأت بيني وبينها صداقة لا علاقة له بها.

في البداية كنت أبحث عنه فيها، أسألها عن أسراره، لكني لم أسألها، ولا مرة، عن زوجته. تجاهلت وجودها لكي أصدق وجودي أنا.

كان يجب أن تنتهي قصتنا هنا، فأقع من فوق الفرس التي يجيد ركوبها، وأكسر ساقي، فيحملوني إلى المستشفى، ويزورني هو، فأبكي، فيحيطني بذراعيه، وتدخل امرأة الخال، وتقع الفضيحة!

كيف لم يفطن الخال هذا يوماً إلى لهفتي إلى الحصان كلما رافقته إلى الاصطبل؟ لم يعرض عليّ ولا مرة أو فكّر أن يتيح لي فرصة الركوب. الحصان عنده كان المغامرة. الربح المادي. الشهرة. أنا فهمت الإثارة في الارتقاء على ظهر ذاك الحيوان الجميل، الأبي، الشامخ، المترفع. يركض بي إلى ما لا نهاية، فتهب الحرية فوق الأرض، وأنتعش في دنيا لا قيود لها. كنت أضغط على نفسي كي لا أحيط الحصان بذراعي. ألهبتني فروسيته وشهامته، لذلك، ربما لذلك، انشدهت فيما بعد بلوحات «رفيق شرف» عن «عنتر». واقتنيت منها ما استطعت لا سيما حصانه «الأبجر». (حصان عنتر) الأسود الهائم. ثورة في الهواء يبحث عن الفارس، والفارس قد اختفى، والأمة ضائعة، ونحن نشكو الإحباط.

لقد سرقني الاسترسال بالتنقل بين الماضي والحاضر. نعود إلى الفارس الذي رفعني بعاطفته إلى فسحة المستحيل، فأتخيّل نهاية بعد نهاية لتلك العلاقة المتوهّجة. كان من الممكن أن تنتهي في حديقة الحيوانات. وما إن تلوح هامته من بعيد، فأركض نحوه كما يحدث في الأفلام، ثم أقع، ولا تكون المدرّسة التي رافقت الطالبات مجرد معلمة، بل خطيبي المجهول، الذي يكتشف هول خيانتي له، فيتعارك معه، ويرمي أحدهما الآخر

أرضاً، وأهرب أنـا، ويصل الخبـر إلى عائلـة أمي، فيقطعون لي تذكرة في أول طائرة إلى بيروت.

الغـريب في سردي هذا هـو أن رواياتـه كانت تسري عـلى هـذا المنـوال، ولم أكن أستسيغها أبـداً. لم أحلم أن أكتب روايـات خيالية هكذا، فائضة في الحب الناعس، والمثاليات غير الواقعية. بل أظن أنه انجذب إليّ لأني كنت مختلفة عن باقي المراهقـات، وبنات الجنس اللطيف اللواتي أحطنه بالانشداه، والذوبان. أنا ظللت أتحدّاه حتى آخر لحظة.

أنا أحيا حالة التكـوين، ألقي ذاتي بلا حسـاب في البيانـو، والنغم والآفـاق غير المحـدودة التي انفتحت في مخيلتي. لم أتـرجمها إلى كـلام. حالـة تداخلت في مشـاعـري، وسكنت وجداني، وأنا أكـاد أن لا أصدق عـواطفه المنثـالة عـليّ بلا حساب، وبلا مستقبـل. الارتباك معـه كان اثـارة، الارتباك معه دلّني على أمـان لم أجده إلّا عنـده. لربمـا وجدت فيـه ملامح الرجل القـادر على حمـايتي. فأنـا لم أكن قد عـرفت بعد، عاطفـة لفتتني بالحمـاية، وبـالاستقرار. هـل جمعت في قلبي العاطفتين معاً؟

أما هو فكان يرى الدنيا كما يصفها كتابة، رآها مغلفة بالمخمل، وقيّم عـلاقات البشر من زاويـة لا تحتوي إلّا اللـونـين الأبيض والأسود. هي حب أو هي لا حب. ولا صداقة مجردة بين امرأة ورجل. أنا لم أكن هكذا، كنت أؤمن بعلاقـة الصداقـة الصرف الحلـوة. وجوابـه لي كلما اختلفنـا في مناقشـة الآراء، أن أترك هواجسي هذه إلى غـيري، وأحصر تفكيري بـالمدرسـة وبه. كـان يحلو له اغاظتي ومداعبتي.

ولا أستطيع اليوم أن أشرح لماذا لم أحاول الكتابة آنذاك. يبدو أن معايشة التجربة التي بـدت لا معقولـة وقتذاك، استحـوذت عليّ. ومهما خطوت في عواطفي خارج المتعارف عليـه، فقد كنت

أحس أني لا أزال سجينة المدرسة. لم أغامر أبداً بالكتابة، ولم أدوّن ما جرى لي، ولا حتى كتابة المذكرات لم تغرني مثلما فعلت معظم الفتيات اللواتي عرفتهن.

هل كانت تنقصني الجرأة؟ لا أتذكر.

شب حريق القاهرة في تلك الأثناء ولم يتذكرني أحد من أهل أمي. فقضيت الأيام التي أغلقت خلالها المدرسة، وحدي. وخرجت كل الطالبات الداخليات مع أهاليهن، إلّا أنا والحبشيات. لم تكن الثورة على الملك قد وقعت، لكن التأجج السياسي بدأ يتفاقم في البلاد. وأذكر أني في الماضي طالما سألته وهو ضابط الفرسان عن دور الجيش في هذه الحالة المتردية، فكان يضحك قائلاً «لماذا تصرّين على حشو رأسك بما لا يعنيك. هذه الأمور تهمّ الرجال. فكري أنت بمدرستك، وبي».

شفيت قدمي بعد فترة طويلة من التوقف عن المشي، وفي أول يوم فتحت المدرسة أبوابها هرعت إليّ عبلة. تعانقنا نقلت إليّ قلقه عليّ، ثم أعطتني رسالة وصلتني من أمي بواسطتها.

أمي. أمي. أمي!

أمي سطرت لي بإسهاب جواباً عن رسالتي التي كتبتها عنه.

أيقظتني أمي من حلم وردي، يقدم فيه «الملبس» الأزرق الفاهي، في صالون أثاثه من قماش «الساتان» الوردي المموج، وعليه وسادات مطرّزة باليد، وملابس مخملية فخمة تتداخلها خيوط ذهبية وفضية، وأحذية مصنوعة أيضاً من قماش «الساتان»، والرجال يرتدون الأطقم الغامقة، مع ربطات عنق حمراء قانية. هناك البطل يقول للبطلة «دمائي بلون ربطة عنقي، تلتهب فوراناً من شدة حبي لك».

بهذا السرد المضحك اليوم، أبدو وكأني أصف روايات البارحة.

وذات يوم ظهرت في النادي بصحبة شاب أشقر من عمري.

من أين أتتني القسوة التي بترت بها علاقتي معه؟ أعتقد أني هربت، وركضت، وهرولت بعيداً عن قلبه المفتوح لي، وكأني أهرب من ذاتي. ظلت كلمات أمي تدق بابي وتحذرني، فلم أستطع أن أواجهه، وإذا بها كالصفعة.

هو اعتقد أنها منوال حياة جديدة أخطتها لنفسي، بينما هي كانت مجرد صدفة مقصودة أن أتعرف ـ عبر صديق ثريا صاحبتي ـ إلى شاب أشقر، طويل، وسيم، يجيد كتابة الشعر باللغة الفرنسية، ويرسم أزياء للنساء. ابن «باشا»، بل ابن «باشا» مقرّب جداً من الملك، لكنه لا ينطق بجملة واحدة بالعربية! أمه تركية.

نظرت إلى ذلك الوجه البعيد، وابتسمت، فراعني الأسى الذي ارتسم على محياه، كأنه طعن بأغلى ما يملك. كأنه تلقى أسوأ خبر في حياته. كأن صوابه قد طار وجُنّ. أما أنا فقد غرقت خجلاً في ضعفي، وجُبني. أحسست أني تافهة، لأنه لا يستحق أن يعامل هكذا. فأنا بهذا الموقف إنما أجرح نفسي، قبل أن أحاول الابتعاد عنه.

لم أحتمل طويلاً هذا الوضع، أصبت بدوار، ولم أعد أعي ما يحدث حولي، فقمت فجأة، وتوجهت نحوه، والدموع تملأ وجنتي. أطرق هو ساهماً، ومكثنا بلا كلام، إذ ماذا يحق لي أن أقول؟ لا شيء. أين هي الحجّة التي تبرّر موقفي المفاجىء هذا؟

اختنقت بمشاعري، أحسستها قطعاً من الحجارة تسدّ حلقي. نفرت الدموع من عيني مرة أخرى، ومددت يداً ترتجف نحوه، تطلع إليّ بدهشة، وابتسمت مرة أخرى، فأدرك ما تقوله عيناي. خرس كلامي. فما الذي لم أفاتحه به في الماضي من عوائق لاستمرار علاقتنا، لم يبد لي المسوغ والمبرر؟ فاستمرت العلاقة؟!

خجلت. ندمت.

لو كنت أملك نضجه، لو كان لساني سلساً كحديثه.. لعرفت كيف أتكلم.

سأقع في هاوية، اتشبث بعينيه، أتمسك بالمستحيل، والمستحيل.. هو. وليس هكذا تقطع العلاقة! بل كيف أنفصل عمن لفني بالحنان والطمأنينة؟ قبله كنت أحيا القلق، اللااستقرار. قبله كنت أتعثّر بالدنيا. لا أفهمها. قبله كنت ألهث وجعاً وضياعاً.

خرجت من النادي معه. جبنا شوارع مصر الجديدة. توسّلنا إلى الحل كي نستريح في رحابه. بلا جدوى. كلمات أمي ظلت أقوى من حججه. غمرني الحزن. خفت أن أنزل من السيارة. خفت أن أتركه. خفت من برودة الحياة التي سأحياها من دونه. أروقة المدرسة. طوابق القصر. البرد ينتظرني.

وقفت السيارة قبل المغرب بقليل عند تجمّع سيارات الأجرة، فركبت واحدة، كما كنت أفعل في الماضي. عدت إلى القصر، وكأني عدت من عند ثريا، ودخلت المتاهة.

> وصلت غرفتي. ارتميت على سريري. بكيت. تذكرت طفولتي، تذكرت يتمي. تذكرت مجالس العزاء. تذكرت عيني منى القاسيتين. أيقنت أن المجتمع كله قاس كعينيها. سألت نفسي بحرقة فائقة: لماذا تحدث لي هذه الأمور دون غيري من الفتيات. لماذا؟ لماذا؟

كتبت لأمي تلك الليلة، ودموعي تخز عيني، رجوتها أن تكون هذه السنة آخر واحدة لي في القاهرة. أمضيت الأشهر الباقية كسيرة النفس، أتجنّب الذهاب إلى النادي. في أواخر السنة أعطتني عبلة كتاباً مذهباً، نسيت عنوانه. أتذكر اهداءه: «منها وإليها كيفما كانت وأينما كانت».

وصلت بيروت أحمل حزني، وسنوات أضافتها التجربة إلى

سني حياتي. وأخذتني أمي إلى حديقة الاطمئنان بين ذراعيها.

لـو كنت أعـرف وقتهـا أني سـوف أراه فيمـا بعـد، ونصبـح صديقين حميمين. لو عـرفت لوفـرت على نفسي تـأنيب الضمير، وذلك الحزن الهائل بعد فراقه.

الفصل الثاني

الزحام

١

الأخضر

انتقلت من اللـون البني، والفـروسيـة وأحـلام الأميرات في السادسـة عشر من عمري، وقفـزت إلى الحرية في بيروت.

كليتي الجديدة، هي أبواب مفتوحة، والعيب فر بـاستحياء عـلى دنيا تتفتح. براعم تشق التراب، وتتنفس. تتمطى الأنوثة بخفـر مـا يلبث أن يتوارى، فعيب الجـدة والأم والأب، بـات يجـاري العصر إلى حد، إلى حد، إذ لا بـد من أن يجاري مـدينة فـائقة التبرج، متنوعة الاغراء، ساحرة اللهو. الجبال لآلىء من أضـواء فرحة الصيف، والبحر هادىء يحتضن المتشـوقين إلى أمـواجه الناعمة، والمسابح متعددة على الشاطىء المتعرج الطويل.

«رأس بيروت»، يحتوي على أجمل مـا في العاصمـة من تنويـع. وأنـا الهاربـة من اللون البني، والـدنيـا البـاردة بـين جـدران المدرسة الـداخلية، وفي فؤادي بقـايا مـذاق الحلم الرومـانسي. وقفت عند باب هذه الأرجاء المتـلألئة علـوماً، وآمـالاً، ووطنية، ونقـاشاً، وحفـلات، وخطابـات. والخضرة حولي تسقي العينـين حياة فائرة. ومن بين كل ما هـو مباح أمـامي، اخترت الصعب، «الاسبرطي»، القاسي، كأولى سنوات المدرسة الداخلية الخـانقة خوفاً ورهبـة وصرامة. وفي غمـرة هذه الـدنيا المتنـوّعة، راحت

الأحلام الصغيرة، وتبخر التاج من على رأس الأميرة، رأسي أنا. لبست بزة العمال، وأنا أدخل عالم الماركسية.

وكأني أتحدى نفسي!

دخلت دنيـا أخرى، محـررة من العيب، ولكني معبأة بـالفراغ. اشتممت أريج الحرية، وأردت أن أملأها فعلاً. وكأني اكتشفت لتوي أني وحيدة حتى لو عدت إلى كنف أمي. ولعل وفاة والدي في تلك السن المبكرة جعلتني أركض في حياتي بحثاً عن هـوية. ولذلك بدأت أتساءل منذ أن وعيت الدنيا من أنا؟ ولِمَ أنا. لا بد من انتماء، لا بد من هدف، لا بد من بيت معنـوي، أشيده أنـا بطاقتي، فيكون هويتي.

انسحبت من تحت أسـوار المدرسـة الـداخليـة في القـاهـرة لا لأمرح، أو لأركض خلف الأمنيات المختبئـة في العيب والممنوع، أو لأتسلق أحلاماً جديدة. اخترت من «رأس بيروت» أن أتعرّف إلى ابن صـديقة أمي. إنـه طالب مـاركسي طـرد من الجـامعـة الأميركية، وسمعت نبرات شبه سـاخرة من اخـواته عـلى جهلي بالماركسيـة، فانقلب التحـدّي الذي تـدافع في أفكـاري إلى عزم شديد بذلته في دراسة «الديالكتيكية ـ المـادية»، و «المـانيفستو الشيوعي» الذي كتبـه «ماركس». قـرأت «للينين»، ووصلت إلى جبروت «ستالين»، ذلك الامبراطور الجبـار الذي اعتـلى عرشـاً استمد قوته من ملايين الجماجم وأسرى «سيبـيريا». واستعنت بـأساطـين «الماركسيـة» المعروفـين في أجواء الجـامعة، لأتعلم، لأفهم، حتى أتخمت بالموضوع.

نقـاش. كلام. استمـاع. تفسير. مقـارنة. تنـاقضات. عـدم اقتناع. ولوج عالم طبقة العمال والفلاحـين. نظريـة «فائض القيمـة». قسوة. قسـوة. النضال بـأنواعـه حتى يصل إلى النضـال المسلح إذا لـزم الأمر. كلهـا للحصول عـلى حقوق «البروليتاريا» في جو ضبابي انضباطي. لا وسيلـة لتطريتـه ولو بعض الشيء.

لا أثر للحنان الانساني، كيف؟! يا لهول ما أفكر. الشيوعية منتهى الانسانية! يا عمال العالم اتحدوا! يـا أقطار العـرب اتحدوا. أيهما الأهم؟ أيهما الأسرع إلى تحرير فلسطين؟ أنا لست فلسطينية: ثغرة عروبتي، بل أوج التعبير عنها يقع في الوقوف ضد الكيان المفتعل في بيتي الواسع الشاسع. مئة مليـون عربي مقـابل الصهيـونية. والجـزائر يـاخوان تلف الشـوارع لجمع التبـرعـات. مـال. ذهب. خـواتم الـزواج. رفضنا التقسيم. الاتحاد السوفياتي صوّت إلى جانبه.

قضيت سنة كاملة في كلية بـيروت للبنات، أتنـاقش مع أستـاذة العلوم الاجتماعيـة حول المـاركسية. هي كـانت تبتسم بوجهي وتلاطفني. كم كان بالها طويلاً عليّ. لم تأخذني أبداً على محمل الجد، وكأنها كانت تقول لي: كيف يمكن أن أصدق بـأن واحدة مثلك تؤمن بالماركسية؟ كانت على حق، لأني وجدت غربـة بيني وبـين تلك النظـريـة، وإن كنت أجـد لـذة في النقـاش. تفتحت مـداركي، وبت أرى ناحيـة من التركيبـة الاجتمـاعيـة لم تكن منظورة عندي. ظلت العروبة ولهي القومي، أبحث لها عن اطار يسمح لي بالعمل على تحقيقها.

عـادت إليّ أثناء تلـك السنة ذكـريات الطفـولـة، واهتمـام أمي وعائلة أبي بالأحداث العامة. وفتشت عن أبي، لم أجده، وتاقت روحي إلى تحقيق الذات، فوجدت نفسي أركض حماسة نحو كل قضية، ولم أكن أعرف، أني سأظل هكذا حتى ما بعـد زواجي، قلقة، ثائرة، متحفزة نحو كل قضية شغلت الرأي العام.

أمـا مدرّستي فكنت أعجب بهـدوئها، وثقتهـا بنفسها، وأتـأمل ملابسها الأنيقة البسيطة. جعلتني أتـذكر أن قمـاش «المخمل» ليس موجوداً في دنيا «الماركسية»، ولا البسمة الفرحة بالوجـود القادم عليّ.

واليوم وأنا أستعيد تلك المرحلة، أجـدها فتـرة صارمـة تقع في اطار متجهم، ليس للابتسامة المستـريحة مكـان بين فـواصله،

وكأنها نظرية وجدت من أجل تعاسة النـاس. لم أتصور كيف سيتحـوّل المجتمع إلى طبقـة واحدة سعيـدة ومكتفية. وأتـذكر اليوم أيضاً ما قالته لي، عقيلة السفير السوفياتي في بيروت فيما بعد بكثير، تعقيباً على اعجـابي «بدوستـويفسكي» وتأثـري به، إنه كاتب يجعل من قارئه أو دارسه انساناً حزيناً، فكيف أحبه إذن؟ كـان ردي عليهـا شبـه صـامت، إذ كيف أخبـرهـا عن الـرعشـة التـي اضطـرم بـهـا وجـدانـي أول مـا قـرأت «دوستويفسكي». لا كان بـوسعي أن أفضي إليها بـأن ماركس هو الحزن، ولا أن أصف لها كيف استفاق وعيي «للأنا»، لـلأنا المـوجـودة التي تتنفس في أعمـاقي، أو أحكي لهـا عن إحـدى عباراته البارعة أن «اثنين زائد اثنين يساوي خمسة!».

أي عبقري هذا الذي أكّد لي ما كنت أتلمس طريقي إليـه، وهو أن البورجوازيـة السائـدة بين النـاس لا تقبل كقـانون إلاّ مـا ينطبق على منطق معين ينظّم لهم طريقهم في الحياة. فلـولا هذا القـانون، أو هـذا المنطق لأكل البشر بعضهم. وهـا هم يتهمون «دوستويفسكي» بالجنون إذ كيف يعقل أن يكـون جمع «أثنـين زائد اثنين يساوي خمسة» وليس أربعة!

بدأت في تلك الفترة أشق طريقي «أنـا» بين جمـوع الناس. وجـودي «أنا» في المجتمـع، ما هـو؟ عـلى أي أسس يسـير؟ وبدت التصرفات التقليدية معرقلة للإبداع، رفضتها بعفوية. إلاّ أني من نـاحية أخـرى، كنت أفتش لنفسي عن قـامـوس أخـلاقي اجتمـاعي أنظم بـه حيـاتي، ومقـاييس أفكـاري وقيمي. لعلي رفضت المجتمع من اللحظـة التي رفضت فيها أن أبتعد عن أمي. رفضت المدرسة الداخليـة، وعقلية أهـل أمي، ورفضت اللون البني، فأنا لا ألبسه أبداً، مطلقاً، حتى يومنا هذا.

ربما رفضت موت أبي أصلاً منذ البداية. إلاّ أن الفلسفة التي أقبلت فيما بعد على دراستها، أقامت كياني وأقعـدته. سرَت إلى أعماقي، وراحت تتداخـل في مشاعـري وتتفاعـل. وكنت أراقب

غيري، أحاور غيري، أستمع إلى غيري، أقارن بينهم وبيني، فوجدتهم يقبلون الأشياء كما تأتي، يقبلون الأحداث، المجتمع، المصير، يستسلمون إلى كل ما يفرض عليهم بلا اعتراض، بلا تدخل، بلا قرار.

وكنت قد أدركت الوعي منذ ذلك السن المبكر، وشعرت من وقتها أني لم «أكمش» سر الحياة في قبضتي، وأني منساقة كالشلال العنيف إلى البحث عن معانٍ أخرى، غير تلك التي تملى عليّ وعلى بنات جيلي. كنت أفتش عن الانتماء. وكأني أنا الخائفة في سري من نقص، هو عدم وجود أب أستند إليه، أرتكز إليه، وأرمي ثقلي وجزعي وأوهامي عنده، عشت أنتظر شيئاً ما، ليعوض عني غيابه عن حياتي. كنت أحيا وكأني أبحث في الحياة عن «استراحات» مبهمة، لربما ألقاها في وجداني، فقد ظل يتملكني شعور بالنقص، لا أفهمه. وهو بدوره «نقص جديد» في مواجهة المفاهيم السائدة والمتعارف عليها، لأنه لم يلجم سعادتي، ولا قابليتي إلى الحياة.

كنت أحس وكأني إناء نصف فارغ، أي ناقصة، وليس اناء نصف ملآن ينتظر المستقبل لكي يمتلىء. كلا، ظل «النقص» هذا مستمراً في حياتي. لقد تحوّل إلى قلق جارف مؤلم، مدمر ظل يكربني بفراغات تثقب اكتمالي، فأهب، وأفتش عن مجهول، عن إناء آخر أملؤه فأتعب من البحث، وأظل أغوص في اهتمامات تغريني أن هذه هي الحقيقة وبعد أن أبذل نفسي فيها، فأشعر على وشك الذوبان أو التلاشي، أو ما ظللت أسميه الانتماء. وبعدها بفترة أستيقظ ملتاعة، أجد أن الاناء ليس انائي، وليس «الأنا»، وليس تعبيري، وليس حقيقتي التي أبحث عنها.

وظل وجداني يحيا، حتى اليوم، في المعارك! وماما. أمي. عظيمة العطاء. هي أول من ألبسني ثوب الوطنية، هي كانت تسمعني كلاماً غير مستفيض عن وطنية أبي وحماسته. حاولت أن

أستزيد منها، إلّا أني وجدت معظم أفراد عائلة أبي غارقين في الشأن العام. ومثلهم أردت أن أكون، ربما لأنني قلقة الوجدان وحائرة الهوية. من أنا؟ إلى أي دنيا أنتمي. لبنان؟ أم العروبة. ولكن كلا، ليس الماركسية.

كانت فترة الانصباب على الماركسية قد جعلتني أشعر وكأني أحيط نفسي بجدار سميك. ظلت حقائقها تلح عليّ، تخبت أحياناً، ثم تفيض. كنت أتناولها كفكر، كتجربة راسخة في تلك الأيام خلف الستار الحديدي. ثم أتركها وأتلهّى بأمور أخرى، منها الانعتاق من آثار «الحصر» الذي فرضته عليّ المدرسة الداخلية.

كثيراً ما كنت أفكر بأكتاف «سلاح الفرسان»، وأتساءل عما كان دور صديقي في ثورة محمد نجيب ومحركها الأساسي «عبد الناصر». تذكرت حريق القاهرة، والضابط الذي أنيطت به حراسة المدرسة. نراه نحن البنات من بعيد، من شباك غرفة النوم بالذات! وذات يوم جاءت إحدى المدرّسات تسألني رأيي في الزواج منه!

وحتى اليوم لا أعرف لماذا أجبت المدرّسة بسؤال «بائخ» كما يقول المصريون: «معاشه ثمانية وعشرون جنيهاً؟ ها. أنا آكل شوكولاته بهذا المبلغ!». هذه القصة ليست لصالحي أبداً، لكنها حدثت!

الطالبات في الكلية غارقات بين الدرس وبين الأبواب المفتوحة بدون بواب، وأنا أيضاً أخرج من هذا الباب يومياً برفقة «سكينة»، فهي مثلي لا تحب المساحيق، وبيتها قريب من الكلية.

ذات يوم مات ستالين! هكذا مرض ومات كبقية البشر!

استفقت في الصباح، والجريدة بيد أمي، وهي تغيظني قائلة: «صاحبك مات. لنر ما سوف يحدث».

ابن صديقتها الذي هرعت لعنده، أكّد لي أن لا شيء سوف يتبدل، ولسوف يستمر النظام الشيوعي. هؤلاء الشيوعيون لماذا يجزمون هكذا؟ في كل شيء، حول كل موضوع، يجزمون.

كنت أقضي معظم وقت فراغي في حرم الجامعة. وشاركت في تمثيلية اضطلعت فيها بدور شاب، على أن يكون الطالب الجامعي «العروسة»، وأنا العريس! يا للمفارقة. قبلت بدوري هذا لأن «العروة الوثقى» هي الجمعية الأرفع مقاماً بين الجمعيات الأخرى، وهي راعية التمثيلية تمثل البؤرة الوطنية للجسم الطالبي.

لم أنس الموسيقى. أمي ألحّت عليّ أن أكمل تماريني على البيانو، ووجدنا أن هناك مدرسة للفنون بالقرب من بيتنا، تؤجر ساعات تعليم البيانو شهرياً، وابن إحدى صديقات أمي هو المعلم. [لماذا كنت محظوظة هكذا بأنجال صديقات أمي، لا أدري] إلاّ أن هذا الصديق كان وراء اهمالي التام للبيانو، لأنه اختار أن يتودد إليّ أثناء الدرس، وينتظر حتى يحين موعد تماريني فيدخل الغرفة، ويحاول أن يتمادى في وده، إلى أن وبخته بشراسة، وهربت، ورحت عند أمي أبكي شاكية لها «قلة أدبه»!

لكن هذا لم يجعلني أنقطع نهائياً عن عالم الموسيقى، فانهمكت في إعداد برنامج اذاعي لمادة الموسيقى. انتقيت «كونشيرتو» لـ «تشايكوفسكي»، وأخذت مقاطع منها لترافق قصة حزينة مستوحاة من رموز الطبقة العاملة. ونال ذلك المزيج اعجاب المدرّسة، لكنه أدى إلى نوبة عارمة من البكاء لدى الطالبات اللواتي استمعن إلى ذلك التأليف.

كنت ألتهم الكون بنهم، أنهل منه بشهية هائلة، أريد أن أثبت أني سأصبح انسانة مهمة، ليس لأنني أنتمي إلى العائلة الفلانية، بل لأني أنا ليلى الفلانية.

وظلت أمي. حبيبتي أمي، تلاحق خطواتي، تحيطني بالاهتمام، تستمع ويدها على قلبها. وكنت أخبرها بصدق عن حياتي، وعن أفكاري. تعبس أحياناً، وتضيء عيناها الزرقاوان، وهي تستمع إليّ أحكي لها أني لا أهتم بالشبان إلاّ على نحو أخوي، كأصدقاء. لم يضعف قلبي أمامهم، بل كنت شرسة في نهيهم عن محاولات الغزل هذه. وقيل عني إني جئت من القاهرة مصدومة بعلاقة ما، فأهرب من الشبان. لكن الحقيقة هي كما رويتها. انصبّ شغفي على الأفكار، وانطلقت أستكشف رموزها وتفاصيلها. تركت الناس جانباً حتى أفهم مم يتكوّن هذا العالم؟ ومن أي باب سوف أستقر، ويبهت قلقي، وأستكين إلى الانتماء الذي اختاره.

٢

لون الحرية

رحلة الفكر لا تنتهي. قد ينسى المرء التفاصيل، الأسماء، المناهج الفكرية أو الفلسفية التي حدته إلى أن يؤمن بهذا الأسلوب أو بتلك المدرسة العقائدية. ولكن التشرّب الفكري يستمر مع رحلة الحياة.

اكتشاف الذات هو أول خطوات الوعي، ولولا الوعي «اللعين» هذا، لما جرى حوار بين الانسان والفكر. ويأتي وقت يتوقّف الانسان فيه عن متابعة البحث. فهو يتعب، أو يصيبه الغرور، أو ينخرط في مدرسة فكرية، ويغلق على نفسه أبواب الانفتاح على اتجاهات أخرى. وأنا كنت أراقب الآخرين، وأستغرب. لماذا لا ينفعلون مثلي؟ لماذا لا يفتشون مثلي عن «اناء»؟ «انائهم» هم. وأنا أحس أن لا بد من اناء لكل عقل، يتفاعل فيه مع فكره. وتتداخل ذاته «بالأنا» عنده، وتتأثر بالفكر، تعتمل، ترفض، أو تتشرب.

لم أبدأ بأن أصدق الدنيا على أنها هكذا مطابقة للواقع الذي أحياه، إلّا بعد مرور أشهر عليّ إثر دخولي الجامعة. قبل ذلك: ظللت أعيش هاجس «عطلة الأسبوع» وخوفي من نهايتها، ومعها فرصة سرقة الوقت بعيداً عن أعين أهل أمي. ثم العودة إلى سجن المدرسة الداخلية، حيث يحشى الدرس في الدماغ حشواً، وتتلاشى «الأنا» المستفيقة بحماسة على عمر الربيع، من

كثيرة ما تتعرض للصدّ والقمع، والخضوع لكل ما هو تقليدي صارم.

وأخيراً بدأ الحلم يجد له رحاباً واسعة، لا تصطدم بسور المدرسة. هي رياح هبّت عليّ، مصدرها وهج الألوان المتداخلة بالشمس رواح وعودة الأمواج في بحر بيروت، والخضرة اليافعة حول سطوح القرميد في «رأس بيروت». انطلقت عفويتي من السبات الذي كانت مرغمة أن تبيت فيه، ومدت عنفوانها إلى العالم الخارجي، فرفرفت كالفراشة بين وردة وزهرة، تمتص الرحيق.

«امبراطور» هذا السن العابق بالأسئلة المنمنمة! هذا السن الذي يزيح «الأين» و«اللماذا» المحشورتين في التربة الخصبة منذ الولادة. آن للنفس أن تتنفس، وأن تتفاعل. أنا فتحتُ أبواب سراديبي، هززت جدران العيب، والممكن، والمحدود، والمرئي، والمجهول. اكتشفتُ أني عطشانة إلى الاكتشاف، تواقة إلى المعرفة.. وبدأت «الأنا» فيّ تفتش عن ملابس المستقبل، وتبحث عن جواب بات يلحّ عليّ: من أنا؟ ولماذا أنا لست كالآخرين؟ أخذ الخوف يتلاشى من ذلك السؤال اللجوج: «لماذا ردود فعلي مختلفة عن الآخرين؟» في الماضي كانوا يحشرون أسئلتي كقطن الوسادة. أنام عليها فتخزني، إذ القطن له أشواك قبل أن ينُدف. لم يبق شيء إلّا ووخزني. الآن انهزم الخوف، لكني ما زلت قلقة أن يعود. أتمطى سني وأحياه بلذة وشغف حتى الثمالة.

اليوم، أتوق للعودة إلى تلك الحجرة بالقرب من باب الجامعة الخلفي. هذا «الصف» الذي كنت أتلقى فيه مبادىء فلسفة العلوم السياسية. ومن بعده بخطوات، هنالك «الصف» الآخر الذي درسنا فيه الفلسفة البحتة، وتجوّلنا في رحاب أفلاطون وأرسطو والوجودية وغيرها وغيرها.

استغرقت كلياً في اكتشاف بدايات المجتمع وقوانينها، وتنفست

الحرية من خلال النقاشات الحامية التي كنت أجريها مع زملائي وأساتذتي. نيتشه و «القوميين الاجتماعيين»، يا ناس أين تذهبون بعيداً عن العروبة؟ تنظيم مهم. انضباط لافت. فكر موحد حتى غايته. ولكن كلا، لديكم غربة لا أستريح إليها. أتذكر هتلر! اختفى صديقي «القومي الاجتماعي» الذي كنت أحاوره في صيفيات برمانا. أين هو يا ترى؟

كنت أشعر كلما دخلت محاضرة، أو قرأت كتاباً أني على وشك الولوج إلى عالم الكنوز وأسرار الكون. انفعلت وتفاعلت، حتى إن بعض الطلاب كانوا يرجونني أن لا أكثر الأسئلة والتعليقات في «الصف»، لئلا أحرج صمتهم.

كنت أعيد تشكيل نفسي، أهرع إلى أمي التي ولدتني، وأحكي لها عن اكتشافات مولدي الجديد. تغمرها الفرحة، تناقشني، أستفيض بالشرح، خالتي تبتسم. وبعد كل هذا الولع، وهذا النشاط، والقلب يدق، نستريح في الليل، ونسمع دقات قلوبنا مثل ساعة الجامعة. يسمعها كل سكان «رأس بيروت» بعد أن تهدأ الدنيا وتدق في منتصف الليل. كيف تجرؤ يد آثمة أن تنسفها. هذه ساعتنا نحن، نحن الطلبة، نحن الذين انطلقنا بأولى مبادىء الوطنية. كنا منذ ذلك الحين، لا نحب سياسة أميركا. صدقونا.

أذكر ليلة امتحان الفلسفة، انتابني مغص شديد، لم أستطع النوم ولا المطالعة. وأظن أنها كانت أول مرة أسحب فيها سيجارة من علبة أمي. أمي تدخن «بلين» الانجليزية. أول سيجارة من بعد مغامراتي مع «ميمي» في أحراج برمانا. ميمي اليوم تزوجت وتعيش في «سيدني» استراليا. يا عزيزتي ميمي، أرسل لك تحية من بين أنقاض بيروت الملكة! اللؤلؤ! الأميرة!

أشعلت السيجارة أمام أمي، وبدأت أدخنها. دهشت خالتي وعبست أمي. فلم أجد عذراً أنبري به سوى أن أخيرها ما بين

التدخين سراً أو علناً. فأسقط في يدها، لكنها سرعان ما استعادت هيبتها وقالت: «أنا لا أريدك أن تدخني أبداً!» فأجبتها إني أواجه امتحاناً، ومتألمة، فلنؤجل مسألة التدخين إلى ما بعد. وظلت حالي مع التدخين هكذا طوال العمر، سواء بحثته مع زوجي أو مع ابني. التأجيل. التأجيل. أسرتني السيجارة، وباتت صديقتي بجنون. وأي مدخن لا يعرف هذا الشعور؟!

المهم هو أن الليل انقضى، وأنا متهالكة تعباً، وذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي، أجريت الامتحان وأنا لا أعرف ماذا كتبت. مر أكثر من أسبوع، وأنا قلقة، واجفة من النتيجة. استجمعت شجاعتي، ورحت أفتش عن نتيجة امتحاني، وجدت اسمي، وقرأت. فصحت. لم أصدق ما رأيت! كانت علامتي فوق التسعين على مئة حسب ما أتذكر. وما إن لمحني الأستاذ الكندي من مدينة «ڤانكوڤر» ذو الاسم الفرنسي، حتى أقبل عليّ مهنئاً لأني نلت أعلى علامة في الصف بالرغم من أن مادة الفلسفة اختصاصي الثانوي وليس الرئيسي. حكيت له عن العارض المرضي الذي أصابني، ولا أدري لماذا قصصت عليه أيضاً حادثة سيجارتي، فضحك عالياً، ثم علّق أن كل ما جرى لي يدلّ على أني قد تشربت الأفكار، ولم أحفظها عن ظهر قلب، كما فعل الكثيرون.

نادتني الفرحة كي أتمتع بها، كي أنسى فيها كل إحباطي الماضي من المدرسة الداخلية. ألم يتدنّ مستواي العلمي فيها إلى حد جعلني أشك بمقدرتي، فانطويت على نفسي إلى أن وصلت بيروت؟ بيروت دفعتني أن أفرد جناحيّ وأطير، ثم أحط على العلم وأستمتع به. إنها بيروت التي جعلتني أوقن أن الانسان في حريته هو أقوى بكثير مما لو كان مكبلاً بالعادات والتقاليد.

أُخذت بفكرة الحرية. العنوان الأول لمعجمي الفكري. لا بد من كسر هذه التقاليد البالية، وإلا لن يتبدل المجتمع. لن يتقدم، أما أنا، فلن تُفرَض عليّ بعد اليوم أفكار تحد من انطلاقي، فالبشرية لم تتقدم إلاّ عندما انتفضت منها الثورات، وتبدّلت الأوضاع، وانقلبت المفاهيم. الدنيا في تبدّل مستمر، فلا يمكن أن تتكرّر الكلمة، ولا اللحظة، ولا التجربة. الجديد يأتي بعد كل دورة من دورات الحياة. الاستدارة تكتمل، وبعدها تبدأ استدارة أخرى بالتكوّن.

سنوات الجامعة شملت اقترابي من هدفي الوطني. «الأنا»، «الهيكل» الذي أريد أن يلبسني أو ألبسه. أليس غريباً أن يلين قلبي في تلك الفترة لهذا الشاب بالذات من بين زملائي في صف العلوم السياسية؟ لماذا هو وليس غيره؟ كان يلاحظني، ويتقرّب مني، ويدعوني إلى مقهى الجامعة واسم المقهى حتى اليوم هو «بار الحليب»، باعتبار أنه لا يقدم المشروبات الروحية. لم يسارع هذا الشاب إلى التودّد إليّ كما حاول غيره. ليله كفن يكفشفني إذ خقدر ما كنت أشعر أني قريبة منه، كنت أحس أنه هو أيضاً قد اقترب مني. اكتفى أن يناقشني في موضوعات الدراسة. في الوطنية. في العروبة. في حال العرب. مأساة فلسطين. وحدة العرب ضرورية لتحرير فلسطين. دخل معي في حوار مباشر إلى أعماق الموضوعات التي تهمني خارج أطر المناهج الدراسية.

أمن أجل هذا لان له قلبي، فتولعت به؟ لم يكن وسيماً ولا طويلاً، لكنه كان ذا شخصية جذابة. يحب النكتة. سريع الخاطر. متنوع الأهواء. السينما. كرة القدم. انتقى لي اسماً للتحبب «جوجو». اسم افرنجي لواحدة ملتصقة بالعروبة؟! لم أعد أذكر لماذا سمّاني هكذا، لكنه اسم حلو وإن لم يدل عليّ أبداً. إني أتذكره بحنين.

ذات يوم أخبرني أنه ملتزم بحزب البعث. ومن وقتها بات

نقاشنا محصوراً في الحزب. اطلعت على مبادئه، ناقشتها معه. وجدتها شبه ناقصة إذا كان المرء سيقارنها بالماركسية. ولكني وجدت الكثير من نفسي فيها. ظلت فكرة الانتماء للحزب تراودني، ترددت، وأصابني نوع من الوجل، وفي النهاية أبديت رغبتي بالانتماء. ولكن كلا. الأشخاص لا يقبلون في الحزب هكذا. ببساطة. كان عليّ أولاً أن أقوم بنشاط معين، خلال فترة طويلة لكي أثبت جدارتي.

٣

أبيض أخضر أحمر أسود

كيف يكون الارتقاء الوطني؟ وأيهما أهم، رعشة الحب، أم لوثة الايمان بقضية؟

ما زلت أفتش في عيون الصبايا عن مجرد ايماءة تدل على ميل نحو الهاجس الوطني. طُلب مني أن أجمع أكبر عدد ممكن من الفتيات، كطاقة قادرة على الانضمام إلى الحزب، أو لمؤازرته على الأقل. واستمر بحثي سنة كاملة. كان القلق يتآكلني خوفاً من أن لا أوفق، لكنني في الوقت نفسه كنت متحمسة أن أحقق ذاتي. كنت أرى الالتزام أبواباً مشرّعة لممارسة الحرية التي اخترتها أنا، لا تلك المفروضة عليّ بحدود من قبل المجتمع. أصبح عددهن يناهز الستين، واجتمعنا كلنا في بيتي، علقنا العلم العربي على ستائر أمي، بعد أن حولنا المنزل إلى صالة محاضرات وألقينا الخطب وأطلقنا الهتافات الوطنية.

كنت أظن وقتها أني ربما أفلحت، نعم لا بد من أن أكون قد وصلت بقدر ما سعيت واستنبطت، وأوعزت، وانتظرت.

في تلك السنة، تزاحمت الأحداث في أيامي. أركض، أركض وكأني في سباق. سباقي لم يكن مع الزمن، بل مع الساعة واليوم والأسبوع. أخشى أن تفلت اللحظة ولا أملؤها حماسة وجدارة. أنظر حولي، ولا أجد من يشجعني، ولا من

يعترف بي، إلاّ صديقي ذاك. وأتساءل: «اسمع، افهمني، اشرح لي ما الذي يصب عليّ، أو يخرج من ذاتي؟ أهي رعشة الهوى والندى، أم اليقظات الأولى لأحداث جسام؟ أم هي الزهو بربيع العمر ورياحينه تغشى مدى عينيّ، فإذا بالدنيا لا تسعني».

أحداث خطيرة تجري، وأحس أنها تمسني، وكأني أنا وحدي مسؤولة عنها. ولذلك لم أسأل عن أمي، عن خالتي، ولا عن أي شيء واندفعت في المظاهرة... ضد حلف بغداد!

عبد الناصر عقد صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا. ازدادت حماسة الناس. تحدّى الولايات المتحدة. والوطنيون في الجامعة الأميركية، والوطنيون في لبنان تجمهروا، تفاعلوا وحددوا موعداً للانتفاض. سقف الوطنية كان منخفضاً، وشعرنا أن عبد الناصر يرفعه إلى فوق، إلى حيث تتجسد الكرامة.

ونحن أيضاً، و «أنا» بت من مجموعة الـ «نحن». يا لعظمة الموقف وروعة العطاء. لم تعد تهمنا خراطيم مياه قوى الأمن، اندفعت المياه علينا، ضد المتظاهرين. تابعنا السير، ومشينا. إنها درب الوطنية، درب العزّة النابعة من أعماق ذاتنا. البراءة. الصدق. الاندفاع. فجأة تسكت الهتافات. نسمع صوت الرصاص! أليست هذه أول مرة أسمع فيها صوت الرصاص؟ كلا، لم أخف، فقد أخذتني رعشة النشوة. يا له من شعور يقتحم الكيان بعظمة وسمو، نعم، وارتقاء. إنه نوع من القَسَم ينطلق من الوجدان أكثر مما يندفع بالكلمة.

أكملنا السير. اقترب صوت الرصاص. الخطر. الخطر يحدق بنا. ونكمل المسيرة. لقد تعمدنا. ولكن لكل هذه المذاقات العظيمة ثمن. لم أدفعه أنا، ولا صديقي الذي يسير على مقربة مني. اثنان هما اللذان دفعا الثمن. طالبان: حسان أبو

اسماعيل من الحزب التقدمي الاشتراكي. وآخر حالته خطـرة. [سوف يصاب بالشلل].

جرني صديقي بعيداً عن الزحام. النشوة لم تنطفىء، بل ازداد وقعها عليّ، وشعرت أني دخلت عالماً جديداً. الموت. المـوت ثمن المواقف، حسان استشهد! لم يمت!

هكذا تعلّمت الدرس الأول. وازداد عنـادي وتمسكي بالـزحام. يجب أن أكمل المسيرة. هيهات أن ألتفت إلى النصح. هذا وقت عطـاء. «تعالي معي، تعـالي افعلي شيئـاً مهمـاً، اكتبي عنهمـا. اذهبي إلى أسرتيهما، واكتبي في مجلة «الأوتلـوك». وغداً تلقـين أول خطاب سياسي لك، علينا أن نجهزه منذ الآن».

لم أعد إلى البيت إلّا متأخرة، مرهقة ومبللة. قلبي يتخبّط. مـات الطالب. كلا، كلا. لقد استشهـد. هكذا فـاجأت أمي. مـذعورة كـانت هي وخالتي وهمـا تنتظراني. ولكن كلمـة «موت» سقطت عليهما كالصاعقة.

ارتسم الغضب على محياهمـا، وقطبت أمي حاجبيهـا، وجلست على مقعدها المعتاد بقرب الباب، وأشعلت سيجارة.

أمي التي تدخن أربع سيجارات لا غير، في اليوم الواحد. ومهما حـدث لا تزيـد ولا تنقص. لم تلتقط هذه العـادة إلّا بعد وفـاة والدي.

بدت أمي صامتة هكذا، بخصلة من شعرها الأسود الفاحم وقد ساده الشيب، وعيناها الزرقـاوان هابتـان غضباً، تهـزّ قدمهـا اليمنى كما تفعل كلما توتـرت أعصابهـا أو اهتزتلخبر سيىء. سكتت. لم تجبني عـلى مسوغـات اشتـراكي في المظـاهـرة، لم تؤنبني، لم تـوجّه إليّ تـوبيخاً. تحـوّلت إلى قطعـة جليـد. كنت أتكلم وأتلفت بينها وبين خالتي، لعل إحداهما تفهمني. فسكتّ، ومن كثرة انفعالاتي المختلفة وجدت نفسي فجأة أبكي. ذكرتهـا

بكل السّير الوطنية التي سردتها لي، ذكرتها بوالدي. ألم تقل لي إنه كان رجلاً وطنياً. بينت لها حيرتي أمام ما أؤمن به: «هل تريدين أن أتكلم عن المبادىء، ولا أمارس ما أقول؟ أدعو الطالبات إلى النضال، ولا أناضل أنا؟».

وأخيراً صاحت بي: «ولكن أنا ليس عندي إلا ابنة واحدة!».

هببت من جلستي، واقتربت منها، بل جلست على الأرض عند قدميها، وسألتها، ودموعي ما زالت تسيل، «لماذا أنت غاضبة هكذا؟ هل فعلت شيئاً مشيناً؟» وأجابتني بصوت متهدج منخفض: «أنا فخورة بك، لكني أخاف عليك. كيف أحل هذه المعضلة المحشورة بين قلبي وعقلي؟».

قبّلت يديها، وقبّلت خالتي، ثم أخلدت إلى النوم.

كان لديّ حافز محفور في كياني، يتنفّس من دمي، من حرارتي، من ايماني بضرورة فعل الشيء الذي أؤمن به. لم تكن بقية الطالبات هكذا، ولا أعرف لماذا أنا مختلفة عنهن. لم يطلب مني أحد القيام بكل هذا النشاط كنت أندفع وحدي، وأصعد السلم. إلى أين سيؤدي هذا السلم؟ لا أدري، ربما إلى الهدف، والهدف مهما ابتعد فهو المهم، هو المحرّك هو اللوثة التي تفتن عقلي، وتستحوذ على كل حواسي. كالمسكونة.

كانت أمي قد تعرّفت على صديقي الذي يناديني «جوجو» في المظاهرة ضد حلف بغداد. لكنها لم تتقبله إلاّ على مضض. ظلت مهذبة، مبتسمة، ولطيفة، وخلف هذا القناع اللائق يرقد عدم الرضا. وأنظر في عيني خالتي، فتشيحهما عني، وكأنها تقول لي «بالله ما لنا وله».

وما لبثت الأوضاع المزدهرة بالإنجاز في حديقتي الخاصة، أن تجهمت وتبدلت على مراحل. وتدخل الواحدة تلو الأخرى في

خانتين متشابكتين، همـا رفض أمي العنيد لعـلاقتي بصديقي، وتـرك صديقي الحـزب لأسباب رفض أن يخبـرني بها. وبقيت وحدي ألاطم المصاعب دون أن أجد حلاً.

أنقذني العمل الحـزبي، وأنقذتني سمعـة جديـدة أضيفت إلى صفاتي، وبت أسمع نعتي بأني «وطنية»، أحياناً ذماً، وأحيانـاً اعجـاباً. كـلا لم يكن مألـوفاً أبـداً أن تنتظم الفتـاة في العمـل الوطني.

وكنت قد تعرّفت أثنـاء نشاطي إلى بعض الشبـان المنتظمين في الحزب. كانوا في البداية لا يجرؤون على التحدّث معي، أو حتى إلقاء التحية عـليّ. ربما إيمـاءة اعتراف من هنـا وهناك كـانت تجعلني أشعر بالانتماء إلى عالمهم. ولقـد أزعجني هذا إلى حـد كبـير. ثم تعودوا عـليّ، وبدأوا يكلمـونني بعد أن تـرك صديقي الحزب!

وأمي، يـا لها من امـرأة حازمـة جبارة إذا صممت. يتـولد عندها عزم الرجال في الملمات. هي رقيقـة كالنسيم، شفـافة كـالياسمـين، والغضب إذا غشي عينيهـا، يهـد حيـلي، يثبط همتي، ويزلزل أفكاري. فتربكني حججها.

في البداية حاولت أن أجابههـا ـ أمي العظيمة هـذه ـ فوجـدت سداً منيعاً كالصخر. لا تتزحزح. تبدو وكأنـهـا لا تبالي، فـأغرق في التيه.

ومن أنـا من دونها؟ ومـا أهمية كـل ما أنجـز إذا لم أرضـهـا. قطعت الصمت الذي ران علينا، فـلا هي تحكي، ولا أنا أحكي، إلى أن استجمعت قوتي وطلبت منها حواراً كما عودتني.

فاستجابت، لكنها بقيت على حجتهـا الأولى: «لا يناسبـك، ليس بمستواك، لن يؤمن لك حياة كريمة. ليس كل شـاب تستلطفينه

مصـيرك منه الـزواج. العلاقـة الصداقـة. المشاركـة. إلى هذا الحد، وكفى!».

اختنقت.

واخترت الحل الأصعب. بترت العلاقة مع صديقي، هكذا، مرة واحدة. ولا أدري إذا كان قـد تولّاه الغضب أكثـر مما غشيـه الحزن. ويبقى السؤال بلا جواب.

خيّـل إليّ في البدايـة أني سأسقط في دوامـة من الفراغ.. ولكن غيـوم أمي وخالتي انقشعت وهمـا تدفعـاني إلى المواظبـة على اهتمـاماتي المتنـوعة. وجـرّني البتـر العـاطفي إلى مـزيـد من الحماسة والاندفاع في العمل الوطني، ومعه انبسط حلم الكتابة وأنا أحرر في مجلة الجامعة «أوتلوك»، وأيقظ القلم تلـك الرغبـة الكامنة في ذاتي أن أصبح ذات يوم مؤلفة رواية. وبـدا لي ذلك أمراً صعباً، فالورقة الفارغـة هي دوماً أمـام بصري، والكلمات تتـدفق في مخيلتي، أتصور العـوالم التي أود أن أعبّـر عنهـا، فأجفل وأتردّد ثم أتوقف، وكأني أتنهد أمام طاقـة الصبر التي تنتظرني حتى أكتب روايتي الأولى. اكتفيت بالصحافة آملـة أن أتدرّج منها نحو النضج والمعرفة، فتتكامل مقوماتي كروائية.

أحسست أني أركض في الحيـاة، لئلا يفـوتني أي شيء، وربمـا هذا هو الذي دفعني ـ رغم انشغالاتي ـ إلى المسرح.

أستفيق صباحاً، فأركض.

شيء مـا في ذاتي، يجـري لاهثـاً يبحث عن الـزمن، عـن السـاعة، وعن اللحظـة، لأمسك كـل هـذا. كنت أريـده أن يتوقف وينتظرني لكي أجهز عليه، واستنفـده. كأني أوجـد أن أمسـك الـوقت في يـدي، وأعصره حتى آخـر قطـرة من حيويتي، واندفع بشهية فـائقة لاحتـواء كل مـا هو منبسط أمـامي. لم أفهم أبداً تلـك الطاقـة فيّ، وذاك الجزع من أن

يمر الزمن. الآن. الآن. هكذا كنت أشعر، أريد الماضي والحاضر أن يكونا «الآن»! فأمتلكهما. ربما كنت أعوض عن النقص الذي سحقني خلال الدراسة الثانوية. وكأن حياتي لوحة فارغة بيضاء تحدق بي، بتحد. فأنقض على النشاط بجموح. أعبّ الدنيا كي أملأ المساحة البيضاء على اللوحة، ولا أترك أي بقعة فارغة.

وهكذا بات المسرح محطتي التالية. ربما هو الطفولة غير المكتملة في ذاتي، أتوجع عندما أتذكرها، ومعها محاولاتي المسرحية على الشرفة المؤدية إلى الحديقة. ووجدت نفسي منساقة، لئلا يفوتني أي شيء، أريد تجربة نفسي في مجال التمثيل.

وقفت على المسرح أقرأ نص دور البطلة في المسرحية. عرفت أن عشرات من الفتيات فشلن في الحصول عليه. واندمجت أقرأ، وأقرأ إلى أن نسيت نفسي، فإذا بالمخرج يصيح فرحاً وقاطعني قائلاً: «ها هي البطلة! هذا هو بالضبط ما كنت أفتش عليه».

فرحت حتى الأعماق الضاحكة المغتبطة عندما حصلت على البطولة، واكتشفت أثناء مطالعتي الجدية للمسرحية أن البطلة تقول في أحد المقاطع بتحد شديد: «أنا شقراء أليس كذلك؟» ولمع فوراً خاطر بذهني. ورحت صباح اليوم التالي إلى المخرج، ورجوته أن يساعدني على إقناع أمي لتسمح لي أن أصبغ شعري أشقر. جاءتني الفرصة النادرة لكي أتحوّل فيها، ولو لمرة واحدة في حياتي إلى شقراء، فأحقق حلماً قديماً، تزحزح من رقاده، وانبرى يطالب بأنتقاله من النزوة إلى الواقع.

وبعد توسل ملح. وافقت أمي على مضض، وهرعت إلى الحلاق. وبعد ساعات مضنية من الانتظار، نظرت إلى نفسي في المرآة، أكاد أن لا أصدق صورة هذه الفتاة الشقراء التي تطل عليّ.

هي أنا! قفزت الفرحة، وأحييت ذلك السر المخبأ فيّ، بدا ما كان مستحيلاً منذ أيام، واقعاً، بل معجزة.

وفي صباح اليوم التالي، وجدت نفسي تلقائياً أضع منديلاً على شعري، وإلّا... كيف سأدخل صف العلوم السياسية، ثم أناقش بمبادىء حزب البعث؟!

كان من الأسهل أن تلغى تلك الجملة من المسرحية، وينتهي الأمر. إلّا أن كل العاملين معي فيها، كانوا يبتسمون حولي، يهنئونني على شجاعتي. وضحكت في سري، وقلت لصديقتي سوسو: «هي صرخة خرجت مني، ما المانع أن أتلذذ بها؟ لقد مضيت في هذه التقليعة بمزاجية الأطفال. لن يهمني أن يقال عني أكثر مما قيل: «مجنونة!!».

٤

صديقتي سوسو فلسطينية، ولكنها لا تفقه شيئاً في دنيا السياسة. والهاجس الوطني ليس مشكلة بالنسبة إليها. حلته بشكل غير مباشر، من خلال هوية أمها اللبنانية. وأمها سيدة رصينة فتية تتفهم «ولدناتنا». لكن سوسو لم تستوعب أبداً ما عزمت عليه.

قضيت عطلة الأسبوع في بيتها ببرمانا، وفي ذهني أن أزور «الأستاذ»! استفقت باكراً، وانطلقت أمشي باتجاه بيته. كنت أعرف أنه يصطاف هنا، وسبق أن طلبت من صديقي أن يعرّفني عليه، وكان يراوغ، لا يقول هيّا، ولا يفسر لي عدم تلبية رغبتي.

سألت أكثر من دكان وبيت عن منزل «الأستاذ»، حتى اهتديت إليه. قرعت الجرس وأنا ألهث. قلبي خفق كجناحي فراشة، أنفاسي تلاحقت لرهبة اللحظة، والعرق تصبب من كل خلايا جسمي. أخته فتحت الباب. عرفت أنها أخته لأن كل الناس يعرفون أنه يعيش مع أمه وأخته. قالت لي بوجه متجهم إنه ما زال نائماً. «متى أعود؟» وأجابتني بنبرة جافة: «تعالي بعد ساعتين».

رجعت إلى سوسو. لم أمكث على المقعد أكثر من نصف ساعة،

بينما هي تتهكم على فشل تجربتي. «أنت عجيبة، ما لك ولوجع الرأس هذا، تعالي نتمشَّ ونجلس في مقهى».

أنا لا أتضايق من مزاح سوسو. ولكن، عندما ذهبت إلى الحمام، اكتشفت أني مصابة بالإسهال، لم أجرؤ أن أخبرها هرباً من تعليقاتها الساخرة. وجاءت أمها تستفهم إذا كانت المقابلة قد تمّت فسكتّ، لأن سوسو تولّت الجواب عني. ثم سألتني الأم لماذا بدا وجهي باهتاً شاحباً هكذا؟ لم أخف عنها ما أصابني. وراحت سوسو تضحك، وابتسمت الأم وأسقتني كأساً من عصير الليمون وماء الزهر. ابتلعتهما، وركضت إلى الحمام. وظل حالي هكذا، أهرع إلى الحمام كل ربع ساعة، إلى أن أشفقت عليّ أمها، وهي تحس بقلقي على موعدي، فأعطتني دواء لإيقاف الإسهال. ونظرت إلى ساعتي وصحت: «ما العمل!» ضحكت سوسو حتى استلقت على ظهرها، لكن أمها أسكتتها وقالت لي: «اركضي إلى موعدك، ولا تخافي».

جلست في الصالون المتواضع أنتظر دخول «الأستاذ». لم أكن قد رأيت صورة له. ومرّت برهة متوترة غير قصيرة، ثم دخل عليّ رجل في الأربعين من عمره، بسيط المظهر، ذو وجه لا ينبىء بما يخالجه. فوقفت، وذكرت له اسمي، ثم جلس فجلست، وبدأت أحكي.

قصصت عليه تجربتي الوطنية كلها، أفرغتها بتفاصيلها ومتفرعاتها، منذ وعيي الأول أني عربية الهوية في القاهرة، إلى اهتمامي بالماركسية، إلى صديقي البعثي، ونشاطي في الجامعة. ثم سكت. وهو ساكت، منكس الرأس يستمع. بعد قليل خيل إليّ أن الأمر الصعب قد مرّ، سوف يسكن روعي الآن. توقف، على الأقل، العرق الذي كان ينصب عليّ من كل مسام جسدي. إلّا أن الرعشة لم تفارقني. ظل شيء ما يقفز في أعماقي. اضطربت كل عضلة في جسمي، وتسارعت دقات نبضي. لقد

أفضيت له كل ما عندي، وهو لم يعلق بشيء.

ظل ساكتاً، ينظر في الأرض، أو نحو الأفق المسدود بحائط البيت، لكنه لم يلتفت نحوي ولا مرة واحدة. فخيّل إليّ أنه ربما كانت انجازاتي ضئيلة فلم يكترث بها، فعدت أتكلم. أخبرته أني مقتنعة بالحزب، ولكن الشيوعية قادرة أكثر على حل مشاكل الكادحين والفقراء.

أظنه كان يستمع. ولكنه سكت. ظل ساكتاً. وعدت إلى وساوسي، ماذا يعني له توزيع مناشير، أو السير في مظاهرة. أو إلقاء خطاب سياسي؟ أو تجميع الفتيات. لا بد أنه يجدني سخيفة وإلا لكان نطق. لم أكن قد عرفت عنه قلة الكلام والاقتضاب فيه، واستسخفت نفسي، فماذا تعني له تجاربي هذه، هو «الأستاذ»، مؤسس الحزب!

سكت، وسكت. ومرت فترة صمت خلتها ساعة طويلة محرجة. لا هو يتكلم، ولا أنا عندي المزيد من الكلام. انتظرت أن يعلّق، أن يقول أي شيء. أخذت أعبث بحقيبتي لكي أفعل أي شيء ينشلني من هذه الورطة. حقاً أنا مغرورة. لماذا يهتم بفتاة لم تتخرج بعد؟ هي ليست حتى مقبولة رسمياً في الحزب. فكرت أن أنهض، وأن أغادر. معها حق سوسو أن تسخر مني، وتضحك عليّ.

طال الصمت، وظننت أن ليس عنده ما يقوله. ألا يكفي أنه استمع. ربما هو يفكر هكذا. رحت ألوم نفسي على عفويتي، إذ كيف أزور شخصية مثله دون أن يقدمني أحد إليه؟ ويمضي الوقت، أنا ساكتة، أتأجج في أعماقي، وهو صامت. لا يتحرك. كلا، لقد أشعل سيجارة نفث دخانها على مهل ثم أطفأها. أخذت أراقب كيف يطفىء السيجارة. إنه يفصل الرماد المشتعل عن عقب السيجارة، بحركة من يده ويترك التبغ ينطفىء وحده. خجلت أن أطلب منه سيجارة. وكدت أصرخ

من عنـاء الصمت. وتذكـرت أني شربت فنجان قهـوة. كنت قد نسيت ذلك تماماً. فقد قدمتها أخته. لم تنطق بحرف ولم تجلس معنا.

ما هذا العذاب؟ شعرت أني على وشك الاختنـاق. عقلي تـوقف. لم يعد سهلاً عليّ أن أقوم كما كدت أن أفعـل في البدايـة. يبدو أنـه كلمـا طـال الصمت، يصعب قطعـه، ويصعب التحـرّك، ويستحيـل الفكر. لجـأت إلى الدعـاء، لعل ربي ينقـذني. مـاذا أفعل؟ سأترك العمل. سـأنسحب من الورطـة هذه كلهـا. ربما يظن أني لست جدية لأني أخبـرته أن صـديقاً لي عـرّفني على مبادىء الحزب، ثم تركه، بينما أنا أريد أن أواصل العمل. إنه صـامت. إنـه لا يتكلم. عجيب. شعـرت بشبـه دوار. مـاذا لـو عـاودتني الحاجـة أن أذهب إلى الحمام؟ أنـا بالفعـل أريد أن أذهب إلى الحمام. «وبعدين»؟! إن ما يجري غير معقول. بل إن ما لا يجري غير معقول. سوف أجن. كفى. كفى. سأقوم الآن.

قام من مكانه. فقمت. دخل إلى إحدى الغرف دون أن يقول أي شيء. احترت بأمري، هل أغادر، أم أبقى؟ هل أجلس؟ أم أظـل واقفة؟ واستمرت حيرتي طيلة الفترة التي غاب فيهـا «الأستاذ» عن الغرفة. عاد بعد وقت بدا لي طويلاً وبيده كتابان، ثم جلس. فجلست.

تطلّع إليّ أخيراً، ناولني كتاباً منهما، ثم أخيراً نطق، قال لي إنه سـوف يساعـدني عـلى فهم العـدالـة الاجتمـاعيـة بعيـداً عن الماركسية. ثم ابتسم بخجـل شديـد، مما جعلني اضطـرب من شدة الانفعال، وبصوت هادىء راح يفسّر لي الكتاب الثاني على أنه مجرد «كتيب» من تأليفه هو، وليس عنده إلّا هـذه النسخة، وسيعطيني إياها. أخـذتها منـه، وقرأت العنـوان فإذا بهـا «في ذكرى الرسول العربي» كتبه سنة ١٩٤٣!

ارتسمت على محياه ابتسامة محبّبـة، واصطبغت وجنتاه بلـون

وردي رقيق، وسألني إذا كنت أتردد على دمشق، وحدّثني قليلاً عن بداية تأليف الحزب. فاسترحت. لم أتصـور قادة الأحـزاب بهذه البسـاطـة، فانطلقت أسرد لـه أحلامي القـادمة، وقبـل أن أستأذنه بالانصراف، أعطاني عنوانه ورقم الهاتف في دمشق.

صافحته مودعة، وقد تبخّر كل الجزء الـذي اكتنفني وغمرتني النشـوة، واستعدت ثقتي بنفسي، فقـد بلغت مـأربي، وتعـرفت عليـه دون الاستعانـة بأحـد، وحتى بدون أن أكـون عضوة في الحزب.

تجـدّدت حمـاستي، وهتفت لنفسي: الآن ســوف أنغمس أكثـر وأكثر في العمل. وعدت إلى سوسو أقفز فـرحاً. معهـا استعدت عفـويتي المخبأة في «حـديقتي السرية»، وهي تكـاد أن لا تفهم أهمية اللقاء. جمعية المسرح، والتمثيلية التي قمت بدور البطولة فيها، تعتبرها نجاحاً أكبر ممـا حققت بلقاء «الأستـاذ». وأنا لا أنفي أني كنت مثلها في بعض الأحيان، أجنح إلى الرومـانسية، وأتذكر بحنـين سن المراهقـة. وأبقيت بعض هذه الـرومانسيـة المثالية في نفسي.

وكم واجهت متنـاقضـين في مســيرة حيـاتي: أحصـل عـلى نصر جـدي، ثم ألتفت إلى مشاعـر رقيقة تجـذبني، فأحلم بـالشعـر الأشقـر كمـا فـعلـت في المسرحيـة، أو أغـوص في «مص» الشـوكولاتـة، وأسترق خلسـة منفضـة تعجبني في مطعم. ثم أعود إلى أحلام من نوع آخر، فقد كانت تلك المرحلـة بالنسبـة إلى أبناء جيلي «حديقة سرية»، تتوالد في تربتها الأحلام، فيطـير الواحد منا برؤياه، ويحلّق عالياً، يرسم مـلامح الـدنيا القـادمة عليه بمبادىء صافية مستخرجة من الكتب، متداخلة بـالواقـع الذي أحاط به. رومانسيتنا كانت مثل الوردة وهي تتفتـح، نقية تلهج بمصير مئة مليون! كنا نرى المستقبل هكذا: أزاهـير مقبلة علينا في ضمة أو باقة مشرقة تتكوّن من صفوة المئة مليـون. ما

علينا إلّا أن نخطو إلى الأمـام، أن نبادر، أن نطـالب، أن نرسم محيّا انساننا، لتنطلق الطاقة المخزنة فينا من بين أنياب وبراثن قوى الطغيان التي طمستنا وأعاقتنا عن الخلاص الوطني.

عشنا العمل الوطني كنوع من الوجد، هـو أشبه بـاللوثـة التي سلبت لُبنا، فتحمسنا وعملنا، وأخلصنا. وبـدأت بعض الأزاهير تشرئب من الشفق، عندما اصطدمنا بمـا لم نحسب له حسـاباً دقيقاً، فتوجعنا ثم انكسرنا، بعد السابعة والستين!

لم أخبر أحداً غير أمي عن لقائي بـ «الأستاذ». وبدأ الحزبيون وحدهـم يتعوّدون على مشاهدتي في بيتـه في دمشق. وكنت أثناء كل زيارة أجلس سـاعات طـوالاً برفقتـه، يحدثني عن أفكـاره، فـأسجل بعضهـا وأكتم البعض الآخر. تـأثـرت بقـدرتـه عـلى التقشّف وميله إلى هكذا نمط من ممارسة الحيـاة. ومن ناحيـة أخرى تفتحت أمامي آفاق غير عادية، فقد أطلعني على تفاصيل نشأته، وتـأملاتـه في باريس حيث درس، وكيف تـوصل إلى أن يضـع قـواعـد لمسـار الأمـة التي اعتبـر حـزبـه مسؤولاً عن مصـيرها. وراح يشـاركني أحلامـه الشابـة وعمله المتـواصل. حديثه سقـاني أبعاداً وسّعت مـداركي، وشعرت أني بـين يدي خصوصيات إحدى الشخصيات التـاريخية في عصرنـا. بادلتـه ثقة اخلاصاً وتفانياً وعاطفة. واحتفظت بسر صداقتنا الخاصـة النادرة تلك إلى ما بعد وفاته.

بعـد أن انقطعت لقاءاتي بصـديقي القديم الـذي وجهني نحو الحزب، أخذت أنظـر حولي، فـألفيت صداقـات عدة تنـاديني، فـاستجبت. وتوالت مـرافقتي لشاب عـربي حـزبي، شـاركتـه اهتمامه بـ «الـوجوديـة»، ونظريتـه بأن القـرار الفردي الـذي يـواجه الانسـان دوماً في مـراحل حياته، لا يمنـع من دخـول الأحزاب، والعمل من أجلها، وكان هذا الشاب يقـاسمني ولعي

بالموسيقى، فكان يدعوني لحضور الحفلات الكلاسيكية في الجامعة.

وزميلي هذا، كان أيضاً من الطلبة الحزبيين غير اللبنانيين، نتحاور كثيراً، ونلتقي في مطعم «فيصل» المواجه لباب الجامعة الرئيسي. ومن المتعارف عليه وقتها، أن روّاده هم من الحزبيين. أما «الأنكل سام»، المطعم الآخر على مقربة من «فيصل»، فهو الذي يختاره كل أنواع الطلاب على اختلاف مشاربهم وأهوائهم، لكنهم لم يكونوا يأبهون كثيراً للجدية المهيمنة على أجواء «فيصل»!

طال الوقت عليّ، فاحتواني القلق لأني لم أدع إلى قسم اليمين، والدخول رسمياً إلى الحزب. اعترتني الحيرة، فلقد مضى عليّ عام كامل وأنا أسعى إلى اثبات جدارتي. فقررت أن أكاشف زميلي بمشكلتي. والتقينا في حرم الجامعة، وسرنا على غير هدى بين الحدائق المختلفة، نتكلم قليلاً، ثم نتوقف ونتأمل روعة الطبيعة حولنا، ونواصل السير، ونرنو إلى البحر يتماوج تحتنا أسفل حرم الجامعة. كنا محاطين بأروع مناظر رأس بيروت، حيث الربيع الدائم. وكم من مرة قال لي زوجي فيما بعد: «أنت كنت تظنين أن كل الوطن العربي مثل حرم الجامعة الأميركية في بيروت!» وكنت أغتاظ من ملاحظته، وأحتفظ لنفسي بتلك التجربة المترعة بالعطاء.

ابتسم زميلي لما طرحت عليه مشكلتي، التفت إليّ ثم سكت، وقطب حاجبيه. وسألت: «هل من عقبات؟ هل أنا غير مستوفية للشروط؟» فضحك وقال: «إن وضعك يحيرنا جميعاً، كل شبان الحزب».

شعرت كما لو قلبي سوف يتوقف، وصحت: «ماذا؟ مم أشكو؟» وعاد فضحك طويلاً، وسألني بدوره لماذا أبدو جزعة هكذا. فرددت عليه: «بالله قل لي مم أشكو؟» تنهّد ثم قال: «انت لا

تشكـين من شيء، بل العكس، كـل الشبان الحـزبيين معجبـون بنشاطك، إلاّ أنهم لا يعرفون في أي حلقة حزبية يضعونـك بعد أداء اليمين؟» وسألت متلهفة: «ماذا تقصد؟» وأجاب: «أقصـد أنه ليس في فرع الحزب في لبنان كله أي فتاة غيرك!!».

وأجبته بلا تفكير، بلا تردّد، بلا خوف: «أنا أحضر الحلقـات مع غيري من الشبان، مثلهم تماماً».

وصـاح زميلي: «ولكن؟ كيف؟ إننـا نلتقي في مسـاكن بعضنـا»، وأجبته: «فليكن. ألسنا حزباً؟ ألسنا مستقبل هذه الأمة؟».

وقال لي: «مرة أخرى تتفوقين علينا بمناقبيتك الحـزبية. سـوف نحدد لك موعداً خلال الأسبوع القادم».

ظلت سنـوات الجامعـة مـزدحمـة بـالأحـداث إلى آخـر يـوم. الشيوعيون، البعث، القـوميون السـوريون، القـوميون العـرب، الحـزب التقدمي الاشتـراكي، ثم الاندفـاع مـع عبـد النـاصر خاصة بعد العدوان الثلاثي.

بقيت أتردّد كثيراً على دمشق، متألقة فخراً بـوجود حـزبيين في الـوزارة. وكثيراً مـا كنت أسأل «الأستـاذ» لماذا استطـاع عبد النـاصر أن يستوعب حمـاسة الجمـاهـير أكثـر ممـا استطـاع الحـزب. وتناقشنـا حول دور الشخصيـة التاريخيـة والحـزب التاريخي. وكان «الأستاذ» يعتقد أنه إذا تم اللقاء بين الاثنين: «الحزب والشخصية»، فإن الأمة ستتـوحد حتمـاً بسرعة أكثـر. وبعد أكثر من خمسـين سنة من التجـارب، لم يحدث أن التقى حزب منظم بشخصية قيادية ليقودا نضال الأمة نحو الوحدة.

وسادت الحزب في لبنان حماسـة فائقـة لعبد النـاصر، وتحوّلت نقاشات حلقاته لا للبحث في تطـوير فلسفـة الحزب، أو عن دور الحزب في ظل عبد الناصر. بل ما زلت أتـذكر آخـر مرة حضرت فيها اجتماعاً، أن أعضاء الحزب أخذوا يناقشون مقالات كتبت

في الصحف تمجيداً لعبد الناصر! وأصابني يأس ساحق وكدر عميق على وضع الاجتماعات الحزبية.

وأستطيع أن أقول اليوم، إنه بقدر ما كان دخولي إلى الحزب محطة هامة، ولحظة قرار رئيسية بالنسبة لي، كإحدى أهم ذروات مسيرتي في الحياة، بقدر ما كان قراري بترك الحزب هزيل الموقف، تافهاً عادياً.

كنت قد تخرجت من الجامعة، وعملت في الصحافة، وتزوجت. وكانت ليلة صيف حارة في مقهى على الروشة ببيروت اشتهر باسم «دولشي فيتا»، ونحن مجموعة من المثقفين والوطنيين نناقش في السياسة علناً، وفي الهواء الطلق.

فجأة هبطت عليّ غيمة من السكون، وإذ بي أتراجع بعيداً، بعيداً عن نقاش الآخرين. لم أعد واحدة من بينهم. واجهت نفسي بأسى هادىء، واعتراني ذبول وشجن، وأنا أنسج ذلك القرار الحزين، وأتساءل: «ما فائدة البقاء في الحزب؟».

هكذا قررت أن أنقطع نهائياً عن حلقات الحزب، لم أكن عضوة عادية، إذ ارتقيت إلى مناصب أهم، وأنيطت بي أعمال مسؤولة وهامة. شعرت وكأن أعز ما عندي قد فني وراح. أكله التاريخ، ومضى، ذكرى حلوة، حلوة حتى اليوم.

٥

لم أحسّ أني عشت كغيري من فتيات جيلي، أو حتى كشبانها. كنت أجد نفسي مجتاحة كل تيار وطني. كنت مصابة بشبه لوثة الانتماء، افرغ فيها قلقي.

لم أسع ولا مرة للوصول إلى عبد الناصر عن قرب. لا كمناضلة ولا كصحفية. إلاّ أني كغيري من ملايين البشر اعتبرته زعيم الأمة العربية. وبانضمام سوريا إلى مصر، بدأ عبد الناصر يحقق النصف الأول من شعار «البعث»: «أمة عربية واحدة»، ثم احتضن مبادىء هذه الأمة ليكمل بقية الشعار: «ذات رسالة خالدة».

وبعد خيبة أملي من مسار الحزب، لم أصبح من غلاة «الناصرية»، فقد وهبت «البعث» أول اشراقة وطنية في حياتي. كان كالحب الأول، لا يمكن أن يتكرر بالطريقة نفسها. ولما كانت مبادىء عبد الناصر تعبّر عن آمال معظم العرب، انطبع بها الناس، وتأثّروا بما كان يدعو إليه. هناك من عارضه، وحاربه، وأبغضه، إلاّ أن الجميع اعترفوا بعظمة شخصيته. فقد خلق سابقة في التخاطب المباشر مع الناس، بتلك الطلعة السمراء، والعينين الثاقبتين اللامعتين، والصوت الجهوري الرخيم، بادئاً كل خطاب يلقيه بـ «أيها الاخوة المواطنون». أنشأ علاقة حميمة بينه وبين الناس، فكان الواحد منا يحسّ أن ذلك القائد

الشامخ ينساب بعفوية معنا. ولقد أرست عفويته هذه علاقة عميقة دخلت العقل والوجدان، وفتن بها الناس بشتى طبقاتهم.

ولست هنا في مجال تحليل شخصية عبد الناصر، وحصرها في صوته. إني أسجل ظاهرة، وواقعاً أثرّا في كياني. ولا بد من ذكر أهميته العارمة، لأنه استطاع أن يُدخِل مصر في البعد الحاسم للحركة العربية الوحدوية.

ولقد أنهض عبد الناصر بثورته طبقة مهمة من المثقفين المتفرقي الاتجاهات الوطنية، وانضم إليهم رهط واسع من الفنانين والأدباء والشعراء.

ما جرى فيما بعد لذوي العقائد، وقادة الحريات الديمقراطية، مسألة أخرى تدخل في الخانة السياسية البحتة.

لم تعد مصر مجرد ذكريات أليمة كنت قد عشتها في بداية صباي داخل مدرسة صارمة، بابها يقع مقابل بائع عصير قصب السكر في شارع الملكة نازلي سابقاً. مصر عبد الناصر أضحت تسجل ذكريات جديدة حافلة، متحفّزة، جنونية، صاخبة، ساحقة مع كتّاب، ورسامي دار «روز اليوسف». واندمجتُ في بداية تكوين حضاري مكمل لمصر الغنية أصلاً بتراثها.

ولأبدأ الحكاية إذن من البداية.

تفاعلت بيروت في ذلك الزمن، مع عبد الناصر، من خلف الباب، هناك، هناك في دمشق، أمطرت السماء بألوف الجماهير اللبنانية الزائرة، تحيي انبعاث تاريخ عاد وتفجّر. وحل حزب البعث نفسه، كما فعلت الأحزاب الأخرى.

وأنا، كنت أقترب على مهل من تجربتي المصرية، وبت مستعدة للتخرّج من الجامعة. وكانت ذات صدفة، التقيت فيها بصديقي البعثي السابق. تسالمنا بحرارة ، ثم حكينا وتجالسنا في

«الأنكل سام» وتفاهمنا. أوضحت له بحزم أنه لم يعد بالإمكان أبداً أن نكمل علاقتنا. تخرّجنا معاً، وسار كل واحد منا في دربه، لكن بداية مسيرتي كانت من صنع علاقاته هو، فقد هيّأ لي مكاناً متواضعاً في «دار الصياد» لأبدأ مهنتي الصحفية.

> وكم من مرة جرتني أمي من يدي توبخني على هذا الانطلاق الدائم خارج البيت. متى ستتعلم الطبخ. الطبخ يا أماه؟ ما هذا؟ الزواج يا أماه، ولماذا؟ وإذا كان الذي يريد أن يتزوجني من أجل طبخي، فليبحث عن غيري. أريد أن أعيش يا أمي. أن أجرب الحياة يا أمي. يا أمي أنا أريد أن ازاول مهنة. أنا أريد أن أعمل، فشهيتي للحياة هائلة، لا يقف بوجهها أي شيء على الاطلاق!

ومن يصدق أني بدأت الصحافة في مجلة «الشبكة»، أكتب فيها عن أزياء النساء!! وكان ياسر هواري الصديق، هو أول من علّمني أصول الكتابة الصحفية، وتصادقنا كالاخوة، وأصبح موضع سري المهني أطلعه على منحنيات حياتي، فيرفع معنوياتي وينصحني. أما الأستاذ سعيد فريحة، فقد بدا مبتهجاً بوجودي. ولا أنسى كيف أصبت بالدهشة عندما اكتشفت أنه يمضي يومه بـ «البيجاما»، ينزل إلى مكتبه من بيته في الطابق الأعلى من بناية دار الصياد، ويكمل نهاره فيها وهو يحس بعفوية أنه لم يبارح منزله.

وللأستاذ سعيد ناحية أخرى لشخصيته إلى جانب نهجه الوطني ومقدرته الصحفية. كان انساناً اجتماعياً مرحاً، يستضيف في بيته من يحلو له من ضيوف لبنانيين وعرب، ثم يختار الباقين من زملاء الدار. وكنت أنا في معظم الأحيان من ضيوفه. وهكذا تم تعارفي بالكاتب المصري الشهير والصحفي اللامع أحمد بهاء الدين.

وكان بهاء آنذاك رئيس تحرير مجلة «صباح الخير»، الصادرة

عن «دار روز اليوسف». وجلس بقربي صدفة، فسألني من باب التهذيب ماذا أكتب، فأخبرته، ثم أضفت سؤالاً عن المسار الوطني في ظل عبد الناصر. ودار بيننا حوار شيّق. وفاجأني بهاء عندما نادى الأستاذ سعيد ونصحه أن يستفيد من مواهبي الوطنية فلا تقتصر على أزياء النساء. وأخبره أنه سوف يطلب مني أن أراسل «صباح الخير».

وكان بهاء يعتبر في ذلك الوقت من الكتاب المصريين القلائل الذين يتناولون العروبة بالمفهوم المتعارف عليه، وذاع صيته بين المثقفين العرب.

وبعد أن تركت «الشبكة» وانطلقت في آفاق أخرى، لم أنس بهاءً. وذهبت إلى دمشق وأجريت تحقيقاً حول مدى نفوذ الاتحاد السوفياتي في سوريا. قابلت وزراء وسياسيين مهمين، ونشرت «صباح الخير» تحقيقي، فشعرت أني خطوت الخطوة الأولى في الإطار الذي أردته لنفسي، وهو التحقيق الوطني - السياسي.

وكنت أكاتب أحمد بهاء الدين من بعد زيارته لبيروت، وتردني رسائله بخط صغير منمنم، يختصر لهفة الشوق والرغبة في الاستزادة من المعرفة بأسلوب خاص به، فقد ولدت بيننا بداية علاقة تضمنت حساسية شفافة، ما لبثت أن تطورت عبر السنين واللقاءات المتكررة، وتوطدت، وارتفعت فوق الصداقات الأخرى. وكان لعلاقتنا فرادتها لما تضمنت ما هو أرفع من العواطف العادية، لأننا هو وأنا غمّسناها في الهم الوطني، والممارسة الكتابية.

وكان بهاء قد حثّني في رسائله بعد تعارفنا الأول في بيروت أن أزور القاهرة. وشاءت الظروف أن تحقق لي رغبتي، فرافقت أمي ذات يوم إلى هناك. وجرى احتفال خاص للتلاقي معه والخروج معه، وكانت أمي هي التي فرضت تلك الشكليات،

فاتفقنا على موعد، وقدمته لها. ولم أفهم قلق أمي على علاقتي به، أنا الجامعية التي تسافر وحدها، وتعاشر من شاءت. لعلها خافت عليّ من أمور غير منظورة، هي نفسها لا تعرفها.

وبدا منذ اللقاء الأول أن أمي استراحت إلى بهاء، ذلك الانسان الذي سيظل أقرب الأصدقاء إلى قلبي ووجداني الفني والسياسي. ورضيت أمي أن أرافقه طيلة ذلك النهار الأول معه في القاهرة، وانطلقنا أنا وهو بطبيعة الحال لزيارة «دار روز اليوسف».

وصلنا المبنى الذي تصدر منه المجلة، ووقفت أمام الباب على مستوى الشارع، فكانت لحظة تقاس بألف لحظة من عمري! كم كان سني وقتها؟ ربما التاسعة عشر.

وقفت أمام «دار روز اليوسف»، بضع لحظات أخرى، وأنا أتأمل السلم الحجري الصاعد أمامي إلى صالات التحرير، وانتابني شعور أني على وشك القيام بتجربة غير عادية، وهي أن أصعد هذا السلم مع أحمد بهاء الدين بالذات، وأضع قدمي على كل درجة قديمة، مجوّفة، لكثرة ما تسلقها كتّاب، وصحفيون وفنانون جاءوا مثلي إلى هذه الدار كمبتدئين. «لحظة» انطبعت صورتها واضحة فارقة في مخيلتي. وعاشت حية مؤثرة في وجداني إلى اليوم. وأتذكر أنه عندما انتقلت «دار روز اليوسف» إلى مبناها الجديد، غطّ عليّ حزن غامض مكرب، وخيّل إليّ أن الطالع السيء سوف ينال منها. ولاحظت بين زيارة وأخرى إلى القاهرة، أن علاقة العاملين في الدار قد تبدّلت بصورة ما. وكانوا هم أنفسهم يقولون إنهم يشعرون وكأنهم أضاعوا شيئاً من ذاتهم في المبنى الجديد!

أما زيارتي الأولى بصحبة بهاء فقد رفعتني إلى فوق السحاب، وربما هبطت إلى الأرض عندما جلست في مكتبه وأنا أكاد أن لا أصدق أنني بلحمي ودمي في قلب «الدار»! رحم الله احسان

عبد القدوس، كنت أستظرفه بجلساته الشاعرية على مصباح مكتبه، يسطر رواياته المسلسلة بعد أن يطفىء كل أضواء الغرفة.

عرفت منذ لحظة اللقاء الأولى مع صحافيي الدار ورسّاميها، أني أدخل إلى أسرار «حديقتي السرية!» انطلقت معهم بعد التعارف السريع على سجيتي، وشعرت كأني عرفتهم طيلة عمري، ولم تمتد يد خفية لتعتصر قلبي حذراً، كما كنت أحس بالغربة الشديدة تجاه الآخرين من الناس العاديين لأنهم لا يفهمونني. كنت أفتش دوماً عن بطولة ما في هؤلاء الآخرين، وعندما لا أجدها، أتركهم، حتى لو جرحتهم. كانت قسوة الشباب تملي عليّ تصرفاتي الهوجاء، لأني كنت انسانة لا تناقض نفسها، بل تدفع ثمناً غالياً للصفاء والصراحة والصدق، فتزعجني ملامح الزيف عند غيري، فأكسر وأحكم على العلاقات المحيطة بي، بلا رحمة.

وظلت أمي المطلق الوحيد في حياتي. وعندما بدأت أعي ذاتي، ازداد ارتباكي بالحياة. خفت منها، وشعرت وقتها أن حديقتي السرية قد اكتمل تكوينها من حيث لا أدري. كنت مثل غيري من الفتيات، أحتفظ لنفسي بمثل أعلى، يشكّل قمة قبولي وراحتي وانطلاقي. فلا بد من درج سري، أو خزانة مغلقة، أو دفتر مذكرات تشكو فيه الصبايا الهموم المبكرة، وهن يسرن نحو النحو الكامل والنضوج. فتختار الفتاة، أي فتاة، دنيا خاصة بها تخبىء فيها العيب والممنوع، وترفضهما لا لسبب إلّا لأنها الجيل الذي تلا جيل والديها.

لكم هي حلوة أسرار الصبايا، قصة الحب السرية، والعيب الذي يخبأ في الصدر الخافق، ورعشة اليدين، وجفاف الحلق. أليست أسرار الفتاة كزهرة «المارغريت» تنتف وريقاتها البيضاء قائلة نعم ولا، بعد وريقة تنتزعها من الزهرة، فتحزر

هل سيتحقق ما أضمرته في قلبها أم لا.

أما أنا فقد ولدت في ذاتي رحـاب واسعة شـاسعة، كنت أتمنى أن أحيا حياتين أو ثلاثاً لكي أحقق كل الآمـال المودعـة فيها. وعيي الأول هـو الذي أوجـد لي تلـك الـرحـاب التي أسميتهـا حديقتي السرية.

حديقتي هي الأحلام والرؤى والهواجس غـير المنظورة. هي شتى النمنمـات الفسيفسائيـة التي تشغل أعمـاق أحلامي وأسراري. حديقتي هي حالة تخترق الأعراف، انسحب فيها من الزمن فتلد الصورة المكثفة بكل تفاصيلها، وتتعالى عـلى الـوجود الفعـلي، وتشرئب روحي المتفـاعلـة بهـا، ويصيبني الانبهـار النادر، وأتخيّـل أني دخلت حالـة أخـرى، حـالـة متقدمة على الأعراف والتقاليد. وفي ظـرف ساعـات لا أكثر، تحوّلت «دار روز اليوسف» إلى المكان الذي أحـدث المعجزة! وانبسطت فيه حديقتي السرية!! فلم أعد واحـدة مع فـريق منهم، وأخرى مع نفسي، لم يعد هنالك عالمان. بهتت الغربـة وانطفأت نار الوحدة المشتعلة، وامتلأ الفراغ. دخلت عليهم كـالعاصفـة، ولم أكن مجرد تلـك اللبنـانيـة التي تكتب عن العروبة، وتتكلم بلهجة مصرية، بل تلك الطاقة المتفجرة التي اندمجت بعفويـة نادرة مـع الكتّاب والـرسامـين والمفكرين. وأقامت الدنيا وأقعدتها!

وكان احسان يتطلع إليّ، ويسألني بهدوء: «أنا مش فـاهم، أنت عايزة إيه بالظبط؟» فأضحك بسعادة صادرة من أعمـاق تضج بالحيويـة، وأروح إلى بهاء، وأخبـره أني أكتب في الصحافـة لا لأحقق ذاتي فيهـا، بل بـانتظار اللحظـة الخارقـة، الفالتـة من الزمن، تلك اللحظة القادرة أن ترفعني فوق الدنيا كموجة رياح عاتية، فأجلس مع ذاتي وأكتب الرواية.

كتبت روايـة «لن أموت غـداً»، روايتي الأولى، عن تجربتي مـع أهل دار «روز اليوسف». وليس بمقدوري اليوم، بعـد كل هـذه

السنوات، أن أسجل بطريقة مختلفة خلاصة ما سطّرته في روايتي. إلاّ أني لا بد وأن أشير إلى تجربة تجرأت وسجلتها في الرواية، لقد كتبت للمرة الوحيدة في حياتي عن موت الأب! لقد بكيت وقتها وأنا أكتب، وشعرت أنها ربما أول دموع تنهمر من عيني. برثاء والدي. كل بكاء الماضي كان ضيقاً وحرماناً. لربما وجدت في «لن أموت غداً» المصالحة الطبيعية مع الهول الذي رافق وفاة والدي.

شيء واحد أودّ أن أسجله اليوم، لأنه آلمني، وخيب ظني من بين كل العاملين في تلك الدار، إن احساناً لم يرض أن أنشر روايتي مسلسلة في مجلته!

ولد ابن صلاح جاهين فجر يومي الأول في «الدار». واتفق أهلها أن يقيموا لي حفلة ترحيب في بيت أحدهم. ولما دعوا صلاح جاهين، أجابهم وشفتاه الغليظتان «مبرطمة». [أي غاضبة وحزينة] وقال: «ازاي؟ أنا عندي احساس بالذنب!». وكان تأنيب ضمير صلاح لأنه سيترك زوجته الرقيقة الوديعة سوسن، في ليلة الولادة لأول طفل لهما: «بهاء» الصغير.

ولدت صداقتي بصلاح جاهين في تلك الليلة، عندما أخذ يفضي إليّ أنه (هو ذلك الفنان، ضخم الجسم، الموهوب موهبة كبرى في رسم الكاريكاتير وتأليف الشعر والأغاني) لم يصدق أن سوسن التلميذة معه في معهد الفنون، رضيت أن تتزوج منه بالرغم من شكله! استمعت إليه بشغف ووجدت أن براءته لا توصف، فرحت احتضنه بقدر ما وصلت إليه ذراعاي حول صدره، لأقول له كم هو رائع!

وانهمك صلاح جاهين في تكوين ثقافتي الفنية.

وكأنه حملني على كتفه، وعبر السنين تولى تعريفي على أسرار القاهرة، وحاراتها القديمة، على فنها، وأبطالها المتفرقين

والمتألقين في ذاك النظام الجديد: ثورة عبد الناصر. وأذكر يوم أهديته «لن نموت غداً» وقرأها، كتب إليّ إهداء على كتاب جمع فيه «الرباعيات» التي نظّمها: «أهدي إليك كتابي في اللحظة التي ولدت فيها فنانة».

وصلاح جاهين بالنسبة إليّ مثل بهاء، لا يحصر في كلمات. إنه عالم بذاته، رفقته تجربة مضنية غنية، معه كنت أسمع صوت الشجن، ومعه كنت أشتم رائحة مصر القديمة، وكلما تجوّلنا في «الحواري» والأزقة، كان يتطلع حوله، وينبهني: «هل تشمين رائحة العظمة في هذا البلد!؟».

عشت خلجاتي وقلقي وهواجسي وتوقي إلى الابداع. ومعه وضعت اصبعي على غير الملموس في حديقتي السرية، وصحت في نفسي مراراً: ها هنا مكاني، هو دنياي، حيث ينقشع الغموض، فأنطلق على سجيتي. أزور مرسم الفنان أبو العينين في «الخيامية»، وفي الدرب الأحمر بالذات، وأجلس قربه أتأمله كيف يرسم، وفي المجلة أتأمله كيف يخطط «الماكيت». وكلما أبديت له قلقي بأني ربما لن أستطيع كتابة رواية، كان يشجعني بأسلوب غير مباشر عندما يقول لي «احنا مش حنموت بكرة». «لن نموت غداً»!

صعب أن أسجل تاريخ أولئك الناس، الذين كانوا من أبدع الاشراقات التي هلّت عليّ. ألم يقل لي أبو العينين: «على مهلك علينا، لقد انقلب مجتمعنا رأساً على عقب، وبعدها تنتظرين منا أن لا نكون مجانين؟».

«رجائي» ذلك الرسام العبقري، كان يحيا على رسم الكاريكاتير، ليتسنّى له الرسم الآخر. هو رسم لي أجمل صورة نطقت بشجن القلق في أعماقي، فعبّر عن أكثر وجوهي صدقاً. ثم «طفش»، راح إلى اليابان وإلى استراليا. وصديقه النحات

«صاموئيل»، تحوّل اسمه إلى «آدم»، كان أفضل نحات حديث في مصر، هـاجـر إلى بـاريس. وبهجت صـديق العمـر، رسـام الكاريكاتير الذي ظل مع الخط الـوطني إلى يومنـا هذا، وقتهـا كان يتمتم تعبيراً عن قلقـه وخوفـه من أن «يثقل» دمـه، فكيف يكسب قـوته بـدون خفة الـدم؟ الشاعـر صلاح عبـد الصبور، جلس معي، يعلم الله، سـاعات طـوالاً، نقرأ معـاً روايتي الأولى «لن نموت غداً»، ويدلني على مواقع الضعف والقوة. يا ايهـاب شاكر، يا صاحب رسم «عقلة الصُباع»، هـل تذكـر أننا أخـذنا قطار الرابعة صباحاً إلى الاسكندريـة لكي نحضر معاً معـرض كمال خليفة؟ يا أيها النحات والرسام النقيّ يا كمال خليفة كنت تلبس بنطالاً صيفياً في عز البرد وتصعد على قدميك إلى مسكنك في الطابق السادس، وأنت مصـاب بالسـل. لكنك كـلا لم تمت. أنت فيّ، وفي فنك، إذن لم تمت.

كـافيتيريـا فندق «الهيلتـون» في القاهـرة تفتح أربعـاً وعشرين ساعة. إذن هناك مكان يؤوينـا بعد منتصف الليـل. تعرّفت إلى الصديق يوسف ادريس، الساعة السادسة فجـراً. هناك، ظهـر أني مجنـونة فعـلاً عندمـا أطلعته عـلى مجموعـة من القصص القصيرة التي كتبتها، ورفضت نشرها. وصاح بي: «مـاذا جرى لـك، أنت قطعـاً أصبت بعـارض جنـون، إذ كيف تخيّلت هـذه السيريالية. لن أطلب إذنك، أخذت واحدة «المستنقـع» لأنشرها في مجلة «الكاتب». وابتسمت، واشتـرطت شرطاً: «أن يـرسمها أبو العينين». وفعلاً ظهرت «الكـاتب»، وفيها قصـة «المستنقع»، ووردة رسمها أبو العينين.

يـوسف فرنسيس، الفنـان الـرقيق كـالنسيم، أهـداني لـوحـة سيريالية، راحت هي الأخرى، احترقت في بيتي. وناجي كـامل، أين هو يا ترى ذلك النحات الخجول الذي صادقته، ثم رسمني بـأسلوب فـرعوني، وأصرّ أن يهـديني تمثالاً «لابنـة البلد» من

أعماله. وأخيراً عظمة الأستاذ نجيب محفوظ الباسم المتواضع، الذي عمدني «الحرفوشة» الأولى، في لقاء «الحـرافيش». سعاد حسني، عبد الحليم حافظ، كمال الطويل، كمال الملاخ، نادية لطفي، يـوسف شاهـين، توفيق صـالـح، مسرحيـة «الكـراسي» لـ «ايونيسكو». نقد رجاء النقاش. ماذا أعدد ومن. دنيا، دنيـا، ساحرة كضوء القمر على سفح الأهرام.

ويظل بهاء الأكثر رزانة، الـوصي الروحي، صـديق كل الفـرقاء، والنجم السيـاسي لتلك المـرحلة. بهـاء رصّـع روحي الصـافيـة بالجواهر. وكيف أحصي ما علّمني إياه. هو سلم التوازن ما بين الجنون والعقل. أما الجنون الذي كنا نتـداوله، فلم يكن جنـوناً ضاراً أو مريضاً، بل عـلى العكس، كان يقـال بمجال الإطـراء، ووصف كل ما هـو غير عـادي. حتى انهم كانـوا يقولـون عني بتحبب: «هذه البنت مجنونة!» أي تتصرف بأسلـوب خارج عن المألوف، تمتلك عفوية وصراحة عـارية من الصقـل الاجتماعي، تفعل ما يحلو لها، ولا تفكر بالعيب. دنيا «روز اليوسف» وسّعت خطواتي، فخطوت فوق العيب، مزقته، وعشت على هواي بينهم. وكان أسوأ ما قيل عني هو «إني مجنونة!».

كنت أضحك على هذا النعت، فهو يصف كل واحد منهم، إلاّ أن أحد كبار محـرري مجلة «آخـر ساعـة» جليل البنـداري، كتب عني تحقيقاً، وكان عنوانه «المجنونة».

عشت فراشة، أمتص الرحيق بنهم ونشوة، أختـرق المخزون في تلك النفوس التي انبسطت أمامي، التصق بها وألتهم، وتفيض مني حواس جديدة تولد لأول مرة. أشعر بها وأصاب بالدهشة، من أين لي هذه الطاقـة، وكأني نسيت طفـولتي وسن المراهقـة الذي تعثّرت فيه، وتعذّبت، لا أفهم غموضي ولا قلقي.

لبسني عبق تلـك المرحلـة الفيّاضـة بالعطـاء وعند أحمـد بهاء الدين كنت أتوالد كل يـوم بفكرة، بلـوحة، بـومضة، تضيئني،

فـأستريـح معه. هـو الذي فتـح لي أسوار «حـديقتي السرية»، وبهت الغموض، وتألّق القلق حيوية على العطاء والتفاعل.

وبهاء هو أول من أحس بوجعي، فالإبداع موجـع كلما اختـرق الكيان، ثم تفاعل به، وانطلق جسداً جديداً. لم أكن رسامة، ولا ممثلة، ولا قصيدة، ولا مغنية. كنت حالة وكنت جدية. وتسامى الطريقان في ذاتي، وأحدثا ضجيجاً هو حريق قلقي. وبهاء هـو الذي وضع قلبه الشفاف الـرقيق الدقيق بـين راحتي، ووجهني عقله المبدع المتفاعل بنفس التفاعل الذي كنت أتخبط فيه. بهاء وضع يده على وجداني: فاسترحت!

أهداني عالمه، أهداني ذروة ما اكتشفه على أرض مصر، وكأنـه يـدفعني إليه، لأنهـل منه، فـأصقـل نفسي، ولأكمـل نـواقصي، ولأصب في دنياه نفحتي العربية كتابة وكلاماً ونقاشاً وانفعالاً.

بهـاء غير مـوجود بـين أبطال «لن نمـوت غداً»، لأنـه بطل كـل الأزمنة.

٦

اللون الصعب

كنت أمشي في شارع «بلس» برأس بيروت، أنتقل من «الأنكل سام» إلى «فيصـل»، عندمـا تعرفت على أمين الحافظ لأول مرة!

تأملني ملياً بتلك النظرة التي تعوّدت عليها فيمـا بعد، لكني لم أقبلها منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا، ففيها نـوع من التحدّي المجبول بالمداعبة، محبوكتين معاً بتعبير ربمـا غير عـادي، لكنه يغيظ، لا سيما في تلك اللحظة عندما سقط نظره عليّ، ولاحظ أن في اصبعي خـاتمـاً من صنـع مصر، ذا حجـر أحمـر مـدبب، فسألني:

ـ هل تصلحين الدفاتر بهذا الخاتم؟!

أنـا طبعاً لم أضحـك كما فعـل مروان. مـروان الصديق الـذي عـرفني عليه، ولا ثـرت كما خيـل إليّ أنه تـوقع أن يحـدث. لم أعلّق، وتابعت سيري.

أمـين الحافظ هكـذا، نظرتـه تحتوي المـوقف، أو الشخص، أو الحادثة بسرعة وبدقة، فيحيط بالتفاصيل المرئية والخـافية، ولا يبدو عليه أبداً مطلق انفعال، هذا إذا خطر لـه أن يتجاهـل، أو أن لا يتجـاوب، أو أن يؤجل. إنـه يستوعب التفـاصيل، ويفهم الأصل الذي تتفـرع عنه. بينمـا أنا من النـوع الذي يثـور أو

يقسو بالتعليق على موقف حرج يحاول أي انسان أن يحشرني فيه.

كنت أعمل صباحاً في القنصلية الهندية، أترجم الأخبار الواردة في الصحف المحلية عن الهند، ثم أجلس مع القنصل، وأنقل إليه شفهياً محتوى الافتتاحيات. وكان مروان المسؤول الصحفي في القنصلية.

لاحظت من مراجعتي الدقيقة للأخبار، تعليقاً يومياً للسياسة الدولية يثني على سياسة «نهرو» في جريدة «الحياة»، وكان كاتبها أمين الحافظ! توقفت وقرأت. وأصبحت أنقل بصري يومياً إلى نفس تلك الزاوية، ولا أدري لماذا شعرت أن هذا الشخص لا بد وأن يكون محافظاً ومتزمتاً. هكذا بدا لي، ربما نسبة إلى أسلوبه في الكتابة، لكن أفكاره فكانت متحررة ليبرالية. وتذكرت ملاحظته على خاتمي. لا بد من الاعتراف أن أميناً في البداية لم يعجبني أبداً.

بعد التعارف بفترة وجيزة، وكنا قد تلاقينا مرات عدة وتحادثنا، دعوته لتناول الشاي في بيت أمي، مع بعض الأصدقاء المشتركين. رن جرس الباب، هرعت لأفتحه، فإذا به، بطوله الفارع هذا، منحنياً على اسم الساكن المثبت قرب الباب. كان يحمل بيده وردة واحدة، ملفوفة بورق شفاف، وتتدلى منها بطاقة. نظر إليّ، وسأل بلهجة طرابلسية «قح»: «وان بات لاليا عوسايرون؟»، أي أين بيت ليلى عسيران. ضحكت. ضحكت حتى الأعماق، ثم أخذت الوردة، ونظرت إلى البطاقة، فلم أجد إلّا كلمة واحدة «أنا»!

دخلت مقهى «الأنكل سام» ذات مرة، وشاهدته يجلس وحده.

وكان «الأنكل سام» كالنادي، يلتقي فيه الطلاب والمتخرجون من الجامعة.

دعاني أمين إلى تناول القهوة. جلست معه وأنا أحس بمزيج من الحذر والرغبة بالاستزادة من التعرّف. بدأنا حواراً طويلاً حول تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر. وكشف لي أنه يعتبر نفسه «بورجوازي وطني». جفلت من التعبير فقد ذكرني بالماركسيين، فسألته إذا كان ماركسياً، وأجاب بالنفي، لكن لم ينكر تأثره واستفادته من الفكر الماركسي. ثم سرد لي قليلاً عن نفسه، وكيف أنه درس في القاهرة خلال الفترة التي كنت أنا طالبة في القاهرة. ثم تابع دروسه في العلوم الاقتصادية في لوزان والقانون الدولي في «لاهاي» هولندا. وعرفت أنه إلى جانب ممارسته هوايته «الصحافة»، يعمل كمدير في معهد البحوث الصناعية.

تكرّرت لقاءاتنا، وأخبرت مروان عن دهشتي به، وكيف أنه واسع الأفق مطلع على الموسيقى الكلاسيكية والعربية، يتكلم في كل الموضوعات، يحب الفنون إلى جانب الصحافة. وكنت أنا قد بدأت أكتب قصصاً قصيرة كتجارب لموهبتي الأدبية. وأخذت أطلعه عليها، وأنصت إلى تعليقاته، انتظاراً للوقت الذي أشعر فيه أني أصبحت قادرة على كتابة رواية.

> تبدّد الضباب الذي كسا به شخصيته، وبدأ ميلي الجدي نحوه يتبلور، وهل الاستلطاف على مشاعري. بل أخذت أجد متعة فائقة بمجالسته والتحدّث إليه. إلاّ أني كنت أتساءل هل تحوّلت علاقتنا من هنا، إلى ما هو أهم من الصحبة العابرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، ماذا يفسّر أن لقاءنا اليومي لا يتم إلاّ بالصدفة؟ لا أستطيع أن أجزم حتى اليوم بما كان يفكر في تلك المرحلة، فقد كانت لقاءاتنا كلها بلا استثناء، تتم صدفة!!

عملت تلك الفترة في جريدة «السياسة» واندفعت بتشجيع من مروان رئيس التحرير أتعلم الصحافة والتحقيق السياسي

الـوطني، وغـير السيـاسي. وفي آخـر الليـل يطـل علينـا حضرة «الدكتور»، وكأنه قد مر من مكان الجريدة صدفة!! وسرعان ما بتنـا ننتظر مجيئـه، فينهمك بمسـاعدتنـا أو مشاركتنـا إلى أن ننتهي من اغلاق الصفحة الأولى، وننتقـل أنا وهـو ومروان إلى مطعم «العجمي» الشهير في آخر سوق «الطويلة». كنا ننضم إلى صحفيـين وكتّاب آخـرين من جريـدتي «النهار» و «الجـريدة»، وبعدها يوصلنا أمين إلى بيوتنـا بسيارتـه. أحيانـاً كان مـروان ينـزل قبلي من السيـارة، ولا يكون الـوقت متأخـراً، فيسـألني الدكتور إذا كنت أحب أن نقوم بنزهة في السيارة.

كنا نجوب شوارع بيروت وهي تتهيأ للنوم، وتنطفىء أضـواؤها الواحدة تلو الأخرى. وبدلاً من أن نتكلم، أو نستمع سـوية إلى موسيقى ناعمة تطال الأحلام الزاهرة، فتتدلى المشاعر الحائرة، ويبدأ حوار هـادىء فتتوضـح الأهواء، ويبـوح بها أحـدنا إلى الآخر، بدلاً من كل هذا كان أمين يشرع في الغنـاء! صحيح أن صـوته رخيم، إلّا أني كنت أفضـل الكـلام. فيمـا بعـد، كـان يداعبني بنفس ذلك الأسلوب المليء بالتحدي، معجون بالدعابـة قـائلاً: «أنت هـوايتك الكـلام!!». وكنت أحار: هـل أغضب، أم أضحك، ولكن لم يرد بـذهني أبداً أن أفتش لنفسي عن هـواية. أم أنه لم يخطر ببـالي مطلقاً؛ مـاذا كان يخبىء خلف كـل هذا الوله بالطرب العربي!!

بدأت أتضايق من طريقته هـذه في التلاقي. إذا كـان هو يبتغي علاقة مؤقتة، لماذا الإصرار شبـه اليومي عـلى اللقاء؟ وعـلاقتنا تتوطد وتتـدعم، ويلفنا الشـوق، وتطل الفـرحة من عينيـه كلما أقبـل نحوي، مثلمـا كـان قلبي يـرف. إذن هـو يتجـاوب مـع احساس يتوالد في أعماقـه، لكنه لا يفصـح أبداً. وعنـد نهايـة اللقاء، لا يقول شيئاً يدل على أنه يود أن يراني مـرة ثانيـة. إلّا أننا كنا نلتقي في اليـوم التالي، أو الـذي بعده. وبـدا لي الموقف

وكأنه يحمل في طياته علاقة غريبة الأطوار!

تولد في داخلي مانــع عفوي، من أن أســأله أي شيء عن سحـر هذه الصدف المدبرة، بل كيف أتجاهل كبريائي وثقتي العارمـة بنفسي؟ أنا الفرحة بإنجازاتي، أراسل «روز اليوسف» وأكتب في جريدة «السياسة»، أنا وأصدقائي ومعارفي المتنوعون، مـا الذي يستوقفني عنده؟ لماذا هو بالذات؟ حاولت أن أجابـه نفسي، على أي أسـاس يستمر اللقـاء؟ هل أحبـه؟ هـل يحبني؟ مـا الـذي يجمعنا يومياً؟ والأصدقـاء والمعارف حـولنا، يتطلعـون نحونـا، ينتظرون أن يسفر هذا الارتباط اليومي عن شيء ما. كنت أشعر بالإحراج، إلى أن جاء يوم وجدت فيه أميناً مضطرباً وكئيباً.

استمر هكذا يومين أو ثـلاثة، وأنـا أتساءل، وتتـآكلني الحيرة، أكاد أن أختنق. ما هذه الألغاز؟ هل أحيا رواية فاشلـة؟ أم أن كل هذا يحدث لي؟ ولماذا تحدث لي هذه الأشياء؟ اقترح عـليّ في اليوم الثالث نزهة في السيارة، رافقته على مضض، فقد تعـوّدت منه الغناء لا الحوار. لكنه لم يغنّ، ظل يسوق السيارة بصمت، إلى أن وصل منطقة نائية عـلى البحر. أوقف السيـارة، ثم تطلع إليّ.

الحزن مرتسم على محياه. الحـيرة في عينيه تتـوهّج. الضيق في أنفـاسه يصلني، فـأحس بالخـوف، أتوجّس، أتـردد بالسؤال، وبأي كلام.

لماذا اختارني المصير، لأقع في مصيـدة عاطفيـة مثل هـذه؟ لماذا جاءني القدر بتلك الصدمة، لماذا اختار هـو أن يفصح عن مشاعره نحوي في ذلك الظـرف المحرج بـالذات؟ وسقط خبر خطبته لواحدة غيري في ذات الوقت الذي شعر فيه أنه يحبني. لم يحتمـل دمـوعي، فحبستهـا، وتـداخــل الفـرح بـالحزن، ووجـدت نفسي داخل سـور لا مجال للهـرب منـه. انتابني فجأة شعور بالتعب الهائل، والـرغبة في العـودة إلى

البيت. شهقت بـالبكاء، وفي حضن أمي كنت أتـوسل إليهـا كيف، وبـأي عـزم سـوف أستيقظ غـداً، وأعمـل، وأواجـه الناس؟

سرى خبر خطبته في كل الأمكنة التي أرتادها. ولم يكن بإمكاني أن أؤجل مواجهتها. تصنعت الابتسام، وامتلكت نفسي، وهربت من الناس إلى العمل. إلّا أن النظرات التي كانت توجه صـوبي بـدت أقل قسـوة مما كنت أتـوقع، فقـد شعرت بـالعاطفـة إلى جانبي.

لم أقبـل بمنطق أمين. ثـرت. غضبت. فهو وعـد تلـك الشـابـة الأخرى بالزواج قبل أن يتعرّف عليّ، وقد بلغ الواحدة والثلاثين من عمره، ويئس من أن يجد الانسانة التي يحبهـا فيتزوجهـا. فإذا بالتجربة معي مغرية، جذابة، استولت على مشاعره، ولكن لوعده مسؤولية عليه أن يلبيها.

أنا لم أوافق على ذلك المنطق أبداً. وشعرت أنه خـذلني! إلّا أن مشاعري لم تكن زراً أضغط عليه، فأتبدل هكذا من مـوقف إلى عكسـه في أربـع وعشرين سـاعـة! حبست آهتي وبـدأت ألبي دعوات غيره، وأرتاد الأمكنة العامة معهم. إلى أن كـان يباغتني هو، فيظهر فجأة في «الأنكل سـام»، ويجلس معي، أو يمر عـلى الجريدة، ليسلّم عليّ.

أصبحت قصتنا أنا وهو، حديث المجتمـع. نشر خبر خطبتـه في الصحف، وكتب عن لقاءاتنا كذلك، ولكن بدون أسماء. وتـدخل الأصـدقاء المشتـركون يطلبـون منه أن يكف عني مـا دام قـد ارتبط بغيري. كما أني أخذت أسخر من أسلوب حياته الجديدة كما تصورتهـا، وأعلق على التغيـير الذي بـدا في ذوقه بـاختيار الملابس التقليديـة. كنت أتباهى أمـامه أني غـير تقليديـة، ولم يعتبر موقفي خارجاً عن أطـر التهذيب. لأنني كنت أحيـا عصر

تحـرر من كـل شيء، ممـا سمي وقتهـا بـالاستعمـار والطـاقم التقليدي الحاكم، من الفتـاة القابعـة في البيت تنتظر العـريس المنشـود. كنت فخورة بنفسي، ولكن في آخـر الليل، عنـدما آوي إلى فـراشي يهبط الاكتئاب عـليّ وأحس بغصّة تغمـر صـدري، وأعضّ على شفتي، وأتوجّع. ما هذه الورطـة التي أوقعت نفسي فيها؟ خلت أني في دنيا أخرى. إذ كيف يحدث لي كل هذا؟!

ملأت أيامي بالنشاط، والأصدقاء والنـاس، ولم يخل الأمـر من «القيل والقال»، إلى يوم اقترح عليّ مروان أن أذهب إلى الأردن، لأغطي الحدث المهم فيها، وهو انضمام المـلك حسين إلى جبهـة «الحياد الإيجابي» التي طلع بها عبد الناصر.

وشـاءت الصدف، هي، هي ذاتهـا نفس الصدف أن يمـر أمين على القنصلية الهنـدية، يـوم سفري بـالذات! ظـل ذلك منـوال تلاقينا، وكأن شيئاً لم يحدث.

قضيت في الأردن أيـاماً تـاريخية، إذ وقـع انقلاب اللـواء علي أبـو نوار، قـائد الجيش الـذي كان محسـوباً عـلى الوطنيـين. وأيقظني من النوم، في فندق فيـلادلفيا «أحمـد سعيد»، المـذيع المصري الشهـير، صاحب بـرنـامـج صـوت العـرب في اذاعـة القاهرة، فاستفقت فجر ذلك اليوم التاريخي، وهرعت مع أحمد سعيد وبعض الصحفيين الآخرين، وركبنا السيـارات، وانطلقنا هـاربين من عمـان، فقد قـام الملك بحـركة مضـادة، واستعـاد سلطته على الجيش. أمـا أنا فكنت قـد حصلت على حـديث مع المـلك، ورئيس الوزراء، والـوزراء، وتعرّفت عـلى أبرز البعثيـين الأردنيين الذين كانوا خلف حركة أبو نوار.

وصلت بيروت مساء، وبعد أن طمأنت أمي عـلى عودتي سـالمة، أسرعت أفتّش عن مـروان حتى وجدتـه وأخبرتـه عن حصيلتي الصحفية. فقرر رئيس التحـرير أن يصـدر عدداً خـاصاً يـوم

الاثنــين، بالــرغم من أنه يــوم عطلــة الصحف. وأيقنت أن كـل تعبي وسهري، وملاحقتي السيـاسيين لم تــذهب سدى، ورأيت بأم عيني أني قمت بسبق صحفي هائـل. وشهد لي بـذلك كـل العـاملين في الصحـافة. عـدت فجـراً إلى أمي. وأخبـرتهـا عن نجاحي، فجلست منبسطة الأسارير، تدخن سيجارتها الأولى في صباح يوم الاثنــين مع فنجـان القهوة، وهي تشـاركني فرحـة الانجاز.

وبعد صدور العدد الخاص بـالأردن، قررت السفـر إلى دمشق، حيث انتقلت القيادة الوطنية السياسيــة الأردنية، ورحت أبحث عن اللـواء أبو نـوار. وتحت جنح الليـل، كنت أتوجـه إلى مقـر اللواء الهارب، بصحبــة أحد مـرافقيه، وظهـر حديثـه في اليوم التـالي على أولى صفحـات جريـدة «السياســة». واعتُبر سبقـاً صحفيـاً ثانيـاً. ثم انتقيت بعض الوقفـات المهمـة من زيـارتيّ وضمنتهما تحقيقاً خـاصاً بـ «روز اليـوسف»، إذ انني لم أنس صديقي أحمد بهاء الدين، الذي كان قد أتاح لي أول فـرصة في الصحافة السياسية.

ظهر على محيا أمين الفرح الحقيقي، فقد مرّ علينا أنـا ومروان، وهـو جذل مهنىء. ومــا ان رأيته حتى احتـواني الحزن، فهـل يكفي النجـاح المهني لأنسى الخـذلان العــاطفــي؟ ظـل قلبي مهيضـاً، منكفئاً، ونشـوة الإنجاز تقف في حلقي، ولا تتفجـر في الوجدان، فلا يشرق الكون، ولا تتفتح الأزهار، ولا تتألق النفس بالارتواء.

ظل شيء ناقصاً في حياتي، وأنا في الثانيــة والعشرين من العمر. خلوت لنفسي مراراً، أحاول أن أطرد الوجوم من أيـامي. لم أعِ أهمية ما أفعل مهنياً، ظننت نفسي خـاسرة في كل شيء، فـأنا في النهـاية مـرهفة الحس، لا أعـرف انصاف الحلـول، فإمـا هذا

جيد، أو سيء. لا أظن «الوسط» قد رسخ مكانه في حكمي وفي مقاييسي على مجريات الأمور حتى اليوم.

احتضنت رأس بيروت، فهي الحي الذي أنتمي إليه، و «الأنكل سام» و «فيصل» الناديان اللذان أتردّد عليهما. أصبحت مشهورة، ولكن ذلك لم يبدلني، كنت أسرح بأفكاري، وأحس بالاختناق: كيف حدث ما جرى لي؟ كيف سمحتُ للأقدار أن تتلاعب بي؟ وجلست ذات مساء، وحدي في «الأنكل سام»، ولم أعد أتذكّر من كنت أنتظر، أو من أي موعد انتهيت، ومزاجي سوداوي، مكتئب للغاية، عندما دخل أمين. رآني في الحال.

اقترب مني، ومدّ لي يده. لم أفهم في البداية، تطلعت إليه مستفسرة، فقال لي والفرحة مشرقة على وجهه: «انظري إلى يدي»! فدققت النظر، وأخيراً انتبهت أنه لم يعد يلبس خاتم الخطوبة! لم أعلق. سكت. احترت بأمري. هل أضحك؟ ماذا أفعل؟ ارتبكت، إلاّ أن حجراً هائلاً انزاح عن كياني في الحال. فابتسمت.

جلس أمين بقربي وقال: «خَلَصْ».

٧

تنغرس رجلاي في القاهرة، راسختين في الأرض، ولا يسقط كتفاي، ولا يهتزان، بل يرتفع رأسي عالياً، عالياً. فإما أن أتيه في غيوم الحلم، أو تستيقظ الكبرياء، تلك الحاسة المتأصلة في ذاتي، في عائلتي، وفي قاموسي، فتتطاير مسببة الغبن الذي طالني.

القاهرة مخبأي! أهرب إليها وأهيم في شوارعها القديمة، إلى أن تمر الأزمة، وتضمحل. لماذا هي قادرة أن تمتص الطفيليات التي تلتصق بي لتؤذيني؟ لا أعرف. أبناء «روز اليوسف» كانوا يصفون شعوري نحو القاهرة في تلك الأثناء بـ «الشذوذ القومي»!

أمي اعتبرت أن أمين هو «الأذى». هو «الجحود» الذي يسبّب لي الاضطراب. وهي ليست مستعدة أن تتفهم وجهة نظره.

شاب فقد كل أمل بلقاء «الروح» التي فتّش عنها، ليحيا معها في صيغة الزواج. الزواج لم يكن نهاية عند أمين، بل بداية هيأ لها نفسه بكل ما استقاه من حضارة الغرب، وحضارة الشرق المتأصلة فيه. وبعد أن فقد الأمل من لقاء توأم الروح انساق إلى ضغوط الأهل والأصدقاء، وتراءى له الوصول، على الأقل إلى حل وسط. وفي خضم التوجّه نحو

تلك التجربـة، انبثقت أنا في حيـاته! وأنـا... لا أستطيع أن أجزم كيف كان شعوره نحوي في تلك الفترة الحرجة، سوى أنـه استمر يتـواصل معي، وأقـام علاقـة أدّت إلى صحبـة يومية، ورفقة فكرية ـ عاطفيـة. وبدأت المشـاعر تـرتفع إلى رحاب الحب الجارف الجنوني من ناحيتي، أما الجنون عند أمين، فهو مخبّأ، ومصان، ومحفوظ في خبايا كالدهاليز!

أمي أمسكتني من يدي، وقالت: كفـاك تجارب، لم تعـودي فتاة صغـيرة، وأنا لا أقبـل بهذا التـردّد أبداً. فسـافـرت معهـا إلى القـاهرة دون احتجـاج، دون ضغط. سرت بخطى أمي، لأني في أعمـاقي أصبت بجرح، هـو أول جرح كبـير ربما مـزّق ايماني بـالحب، أو بتلك المطلقـات التي رسبت عنـدي من تـربيتي. لم أمانع أن نواصل الصداقة هكذا بدون هـدف، ولكن تحرر أمي وقف عند هذا الحد.

وأمين.. تصرف وكأن ما يحدث شيء عادي جداً. أحسست أنـا بما من خوف! الخوف من مشرط «المسافة» أو السكين.

ترى، ماذا يتحوّل فيّ وأنا في القاهرة؟ وكيف أتبدل وأنا منغمسة بناسها، بفنونها، بيقظتهـا الثوريـة. اندمجت حـالاً بنشاطهـا، بـالمسرح، بالسهـرات، بالنقـاشات. أدخـل دار «روز اليوسف» صباحاً، وأعود إلى مصر الجديدة مساء، ولا أحس بالزمن. كنت منشغلة كل الوقت، فلم أحلل ما جرى لي، ولم أتسـاءل عن السر الذي يحول بيني وبين أمين. انسـدلت ستارة، انتصب حـائط. القـاهرة تلتهمني، وأنـا ألتهمها بـدوري. يشرد ذهني، وأراجع لماماً ما وقع بيني وبـين أمي، فأتـوجس وأهرب من المـوضوع. فكـل زيارة لمصر تقـدم معارف جـدداً، أعمالاً فنيـة مستجـدة، أشعاراً، رسماً، فكراً.

لم يكن للمـرأة دور عندي في تلـك الفترة. المـرأة هي أمي. ولم تحاول هي أن تؤثر عليّ سلباً ولا ايجاباً، تسـايرني فيمـا أرويه

لها من لقاءات واكتشافات. واستمر لقائي اليومي ببهاء، اللقاء الذي لا يعرف النهاية، لا بالارتواء، ولا بالتعلم، ولا في متعة التلاقي بعد ألق الشوق. وصلاح جاهين يأخذني بيدي، لأطوف وأتفرّج وأتعلم. القاهرة لغز لمن لا يفهمها. وكان صلاح يشعر أني أفهمه هو و «قاهرته» الخاصة به.

فجأة ذات يوم، وأنا في دار «روز اليوسف»، استلمت مكالمة تلفونية من أمي، تخبرني أن برقية وصلتني من لبنان. رجوتها أن تفتحها وأن تقرأها لي: «هل تتزوجينني؟ أمين.» قلت لأمي سأعود حالاً.

جرى في بيت الأخوال البحث التقليدي عما إذا كان أمين يصلح لي زوجاً أو لا يناسب. فاقترح الأخوال أن يأتي إلى القاهرة. لم يكن يهمني أبداً رأيهم. المهم ماما. وهكذا تلقى أمين جواباً على برقيته: «بكل سرور! تفضل زرنا في القاهرة. ليلى».

نشرت الصحف اللبنانية أخبارنا، ووصل أمين إلى القاهرة وأنا أتصور نفسي في حلم. وكأن القمر أكمل استدارة الهلال. واستضافتنا عظمة النيل، وكأنه كتب علينا بعد المعاناة الطويلة، أن نبدأ حباً عظيماً. وانهال الدفق العاطفي، فياضاً غمرنا في علاقة غضة، نضرة، ستدوم طول العمر، وعشنا الفرح الكبير، وسرنا معاً في ظلمة الأحزان الكبرى.

كل ذلك بدأ يتكشّف في دوامة ظلت ترتفع، وترتفع، ولا ينتهي الاكتشاف، ولا يطل الملل، ودرجنا سيراً في دروب الأحاسيس الرفيعة، الرهيفة، ننجذب معها نحو الأصل الذي هو نحن... أنا وهو!

أقحمت أمين في دنياي القاهرية، وقدمته إلى كل من عرفت وأحببت. كان مندهشاً لكثرتهم وتنوعهم. كان قد عاش أربع

سنوات جامعية في القاهرة، لكن لم يدخل حينذاك الدنيا التي عشتها أنا.

ولا أرى اليوم أن مؤسسة الزواج هي التي صانت ذلك الشلال من المشاعر الجياشة المتشابكة المركبة والمعقدة. مؤسسة الزواج كانت الشكل، ونحن كنا الجوهر، والعشاق عادة لا يعرفون السر الذي يحيي حبهم أزاهير لا تذبل. وأنا لم أشعر بمسؤولية الزواج إلّا بعد أمد طويل بعد ولادة ابننا رمزي.

تزوجنا، يوم اندلاع حوادث مسلحة ضد محاولة رئيس الجمهورية تجديد ولايته، واحتفلنا بزفافنا في منزل زعيم عائلتي. فشعرت أن والدي يقف بجانبي، وكانت ليلة فياضة بالعطاء، بالفرحة، بالانسجام الذي طالنا جميعاً. ثم انطلق العروسان ليصطدما من أول خطوة بواقع بلدهما. كم عروسة امتثلت لأوامر الجيش، ونزلت من السيارة، وهي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض؟!

لم نحفل بذلك وأكملنا طريق الانطلاق.

لا أعرف كيف تخطينا المشاكل التي يواجهها أي زوجين في بداية حياتهما. وهي حالة لا تقتصر علينا. أما الناشز فيها والمركّب في أبعادها، فقد نتج عن تكوين شخصيتي أنا.

رفضت كل قواعد الزواج، وارتبكت بالمسؤولية الملقاة عليّ، ورفضتها بشكل غير واع، بعفوية وبصدق، فقد كنت أحس بالهلع من أن تتبدل حياتي، وأن يصبح الطبق اليومي أهم من لقاء صديق أو كتابة قصة، أو تحقيق صحفي، أو حتى التسكع بين «فيصل» و «الأنكل سام».

أمين هو أول رجل أعيش معه. وكلما أصابني الانقباض تنساب دموعي، ويفيض شوقي للعاطفة الناقصة عندي. وكأن وجود

رجل يعيش معي، قد أيقظ الشعور الخفي بنقصي. أجهش بكاء، وأندب والدي: «لماذا؟ لماذا؟ تركتني؟».

كانت أمي تعالج تلك الحالات غير العادية، بفيض متزايد من العطف. أما عندما كنت طفلة، فكانت ترد بكائي إلى التعب، وتدعوني إلى الراحة. وهكذا نشأت محمية من أي ضغط. أما مع الزواج، فلا بد من القيام بواجبات لا مفر منها. كنت أتوقع من أمين أن يربط لي «الشرائط الملونة». ولقد قام بكل جهد ليريحني من الواجب الذي يرخي بثقله عليّ، فيعفيني منه. إلاّ أن كل ذلك لم يكفني، ظل في أعماقي فراغ مبهم، لم أملأه حتى اليوم، ربما لم أحس بعد زواجي أن الطفولة قد تبخرت مني عندما ولدت فيّ الإمرأة.

عشنا معاً بعنف، وهذا ما أرهق أمين! ما كان يخطو إلى داخل البيت، إلا ويجد بانتظاره عاصفة من الانفعالات: الدهشة، الغضب، الفرحة، التذمّر، الدهشة، أو الرغبة بالخروج. أمين لم يجد أبداً السلام الهادىء المستقر، لكنه لم يتذمر إلاّ قليلاً، فشغفه بي، وبمشاكلي وانشغالاتي واهتماماتي، ملأت وقته بالمفاجآت والأفكار والمشاريع المتواصلة.

وكان يقول لي شبه مازح، شبه جاد: «إننا عازبان اثنان، نسكن في بيت واحد، معاً!».

كنت أحس بالوحشة في الليلة التي يقضيها في ممارسة هوايته الصحافية، وكانت له صفحة اقتصادية يحررها أسبوعياً. وبعد حين، بدأت أخرج مع الأصدقاء، ثم نلتقيه ليلاً في مطعم «العجمي».

شعرت بنفسي مسجونة في اطار البيت، وذات يوم اكتشفت أني حامل! وازداد خوفي من المسؤولية، وعندما ولد ابننا، وجدت أمي بقربي، تشاركني الجانب الأهم من المسؤولية.

هناك أسئلة وردت على حياتي، لم أكتشف بعد تفسيراً لها، منها ما يتعلق بابني.

لم أحس عندما ولد رمزي أنه ملكي، وأنه مني. اكتفيت بالشعور أنه أعجوبة الخلّاق بحد ذاته، وأنه ولد، وسوف يسعد أمين. أول ما نظرت إليه، وهو ملفوف بألف قطعة قماش لاحظت وجود شامة صغيرة جداً على شفته السفلى، وأن أنفه أفطس، وعينيه زرقاوان. فرحت به. تأملته، وكلي دهشة، وكأني أرى وليداً لأول مرة في حياتي.

ولكن، كان أول شيء طلبته بعد أن أخرجوني من غرفة العمليات، هو السيجارة! اي، نعم، أنا هكذا!

أمي وأمين شرحا لي أن كل مولود يكون أنفه أفطس، فليس هناك من سبب لانشغال البال، كما أفهماني أن لون عينيه سوف يتبدل، فحزنت، كنت أتمنى أن يأخذ عن أمي عينيها الزرقاوين. أرضعته بنفسي، وكنت أتفرج عليه، وكأنه لغز هبط عليّ من السماء. أحببته، كنت أفرح به مؤقتاً، ثم يعتورني الخوف! مم كنت أخشى؟ لم أعرف حتى اليوم، لعل عظمة الوجود تهزّني، أو روعة التلاقي، ولحظة الحب في أوجها هي التي أعطتني رمزي. ولكن ليس لي. شعرت بإبهام شديد أن الدنيا سوف تأخذه مني.

ولقد أخذته الدنيا بالفعل، مما دفعني أن أكتب هذه المواقف التي أثّرت على مجرى حياتي. أريد أن أثبت للدنيا، ولنفسي، وللآخرين، أني موجودة، فقد شعرت أن وجود رمزي في أميركا، بعيداً عني وعن أمين، هو فشل لي. أنا رفضت أن أنجب غيره، أردت ولداً واحداً، كان عندي من المشاغل الوجدانية الأخرى ما يكفيني، ولم أشعر قط أني ندمت على أنه الولد الوحيد لأم وحيدة، ولأب وحيد.

اليـوم أنا أنـدم! اليوم أنـا أتعذب عـذاباً مـراً، مقلقاً، دامعـاً، والحـزن يقهرني لأننـا قد بتنـا عائلـة مبتورة، دون ابننـا، ولم أصدق أن هذا هو حال الدنيا. كل ولد يكبر يقطع «حبل السرة» الذي يربطه بوالديه، وينشىء عالماً لنفسه.

ابني هو صديقي، هكذا أنشأته! هل أخطأت بتربيتـه، ولربمـا أكـون قد أعطيتـه من الحريـة ما سهـل له الفـراق عنا. أو أن الحرب اللبنانية أثّرت على مسار حياته، فبـات ينظر إلى الـدنيا من منظار يختلف عني وعن والده. ربمـا يريـد أن يثبت نفسه أولاً، وبـالتالي يشق طـريقاً لـه في بلده. فهـذا الفراغ الهـائل، وجميـع الطرقـات المجلّلـة بسـواد الحـرب، بمـآسيـه المعلقـة كالمشانق فوق رؤوسنا، أمام أعيننا أينما تحركنا، وأضواء تنـير فتحات غريبة في عمارة تتدلى منها شبابيكها وشرفاتها وأبوابها، وكأنها أمعاء البشر الذين عاشوا ذات يوم، ذات يوم، ثم تفرّقوا في أصقاع الدنيا.

رحـل رمزي، وأنـا أحمـل في فؤادي حـزن أبيـه، من أمـومتي النـاقصة لأني... لأني كنت أستهلـك من الدنيـا ما كـان فـوق طاقتي، فلم أجد في صباي مكاناً لأمومتي أو لأنوثتي.

حيـاة رمزي تخصـه هو. لن ألـجّ إلى أسرارهـا. لن أحكي عن ذكـائه وخفـة دمه، فكم ضـحكنـا معـاً عبـر أسـلاك التلفـون، وصورته قرب سريري وهـو ممسك بـالتلفون، تـذكرني بضـآلة وسائل اللقاء.

وهـل هناك أروع من أن أحتضن طفـلاً ـ أضحى رجلاً ـ بـين ذراعي الهزيلتين؟ عجيب هذا الشاب، وجـدانه يحـوي عاطفـة ألف ابن!

بات أمين مع الزمن، يتفهم انحناءاتي، وفي كل مرة تثنيني فيها أيامي، فأتعثّر، أجد نفسي أركض، ولا أعـرف إلى أين، ثم أرى

أمين! يفتح لي الباب. ذراعاه الواسعتان تلفاني، يهمس في أذني: «لا تخافي، لا تخافي». وأهدأ.

لم ألتق حتى اليوم بإنسان قوي البنيان الخلقي مثله. هو طود، هو شامخ، في أصعب الظروف يبدو رأسه على قامته الطويلة صامداً. هو يعرف متى يقترب، ومتى يطل. إنه يعطي بصعوبة، حذر، دقيق، منطو بأشيائه الخاصة، له مزاج، له نكهة. لا يترك محاوره محايداً.

هو من الذين يصادقون بصعوبة، وهيهات أن يفقد ثقته بأصدقائه، يظل يعطيهم الفرص ليعدلوا من «مطباتهم» نحوه إلى أقصى حدود طاقته. هو كالزئبق، لا يمسك، ولا حتى بالأصبع، ينزلق كالمياه دون أن يجرح. أتابعه بنظري، وبعد سنوات وسنوات أفهم أنه لا يحب أن يجهر بعواطفه. هي أعظم من أن تأخذ شكل الكلام.

يسير أمين على مقربة من الحدث، يحذرني من الاندماج به، وأنا عكسه أغوص في الحدث، أبحث عن جوهره، أفتش عن تفاصيله، وأدفع الثمن، أخرج من التجربة مجروحة، بينما يظل هو مبتعداً على مسافة يقيسها بميزانه الخاص، فلا يندمج فيها كلياً، ويأخذ ما يناسبه، ما يحتاجه، ثم يستدير ويمشي دون حرج، ودون خيبة أمل.

أمين وأنا، بعد هذه الرفقة، ما زلنا نلتقي ذلك اللقاء/ اللقاء. نفهم معاً، نرفض معاً، نقبل معاً، وتستأثر بنا لحظات جنون في ساعات الحزن الكبير، فيجد الواحد نفسه في الآخر، ويتمتع بتلك الراحة اللذيذة، مترعة بالنضوج، وبالثقة النادرة.

هو يقول عني إني لم أفسح له مجالاً للضجر، وأنا أجيبه الآن، بأنه لو لم يكن هو، هو، مكوناً من تلك الشخصية الفذة، لما تفجرت مشاعري بالانفعال أمامه، لما بسطت له أحاسيسي

المتنوعة، ومشاريعي المتعددة، كالكف المفتوحة.

لقد أفسح لي أمين التمتع بحرية نفسية، لم يمانع ولم يحتج على أي شيء فعلته، أو على أية علاقة أقمتها بمنأى عنه. امتشقت حريتي، وكانت حرية نادرة في شرقنا العربي، وكنت أعود إليه، أحياناً جذلى، أحياناً محطمة. وكان يختار ما أضعه بين يديه، ما راق له.

لقد كشفنا لبعضنا ذات مرة أننا نود أن نموت سوية. أتمنى من ربي، أن يحدث ذلك.

٨

الرصاصي

ربيع طرابلس هو رائحة زهر الليمون المنبعثة من الحدائق المحيطة بالمدينة. الطقس جميل، ينادينا أن نمشي حفاة على شاطىء البحر، أو التجوّل في بساتين البرتقال والزيتون. الطبيعة تشب من رقاد الشتاء، تستيقظ، وتغرينا بالتكاسل في أروقتها.

خفت من طرابلس أول الأمر، فشخصيتي وطريقة تفكيري لا يتناسبان مع الجو المحافظ المتزمت في أكثر الأحيان.

ثلاث صديقات في المدينة، هن في أعماق قلبي، من خطواتي الأولى بين جموع الناس، هن مفتاح ابتسامتي بالرغم من الوجوه المغلقة حياء أو حيرة. وعندما يبدأ الحوار، تهبط الحواجز النفسية، وترتفع الستارة عن خبايا القلوب الطيبة.

كثيراً ما كنت أجد نفسي سابحة في حلم ممارسة العمل السياسي، دون أن أدرك إلى أي حد هي مختلفة عن النشاط الوطني في الجامعة الأميركية. ظللت الحّ على أمين أن يعمل في السياسة. وكان يجيبني: «هل هي مهنة يختارها المرء هكذا ليتسلى؟». وأراد القدر أن يغرقني في دنيا لم أتصور أبداً أنني سوف أقحم فيها، وبدأت حياتي في السياسة، دون أن أستوعب تماماً إلى أي حدّ سوف تمتلكني، وتلتهم مشاعري وجهدي.

حدث ذلك عند خوض أمين معركته الانتخابية الأولى في مدينة طرابلس.

لم أقم وقتها بأي نشاط، ذلك لأني لم أكن أعرف طرابلس، ولا ناسها ولا تقاليدها. ولم أرد أن أكون عنصراً غريباً في معركة لا أعرف أصولها بعد.

غاب عني أمين شهرين، ثم عاد إلى دنيانا، رمزي وأنا، ونحن متأثرون لهمة صاحب البناية التي نسكنها، وقد زيّنها هي والشارع بأنوار مشعشعة، ابتهاجاً بنجاح أمين. أما نحن فقد أحرجنا واكتفينا بالتفرّج على ابننا رمزي المغتبط بالأنوار المحيطة به.

طرأ تبديل جذري على حياتي بعد دخول أمين البرلمان. فقد توجّب علينا أن نسكن منزلاً آخر في طرابلس غير منزل أسرته. ودخلت المدينة الثانية في لبنان، وليس عندي صديقة واحدة! بدأت بالتعرّف على الناس، خارج اطار عائلة أمين وأقربائه، من مجموعة أصدقاء كانوا قد تبنوه وقدموه كوجه يمثّل الكفاءة والشباب والعلم والمكانة الاجتماعية، وهذا ما كانت طرابلس تطالب به. وظلت هذه المجموعة من الأصدقاء، قريبة إلى قلبي حتى يومنا هذا.

وتجاوب أمين مع الناس، وأخذ يرافقهم إلى دوائر الدولة لملاحقة قضاياهم، وطرح عدة مشروعات عامة في المجلس النيابي، وسرعان ما بات قضاء عطلة الأسبوع في طرابلس «روتيناً» نقوم به كل أسبوع. ويذهب رمزي إلى بيت أمي، أو هي تأتي إليه حفاظاً على نشأته في جو منتظم هادىء.

وراح يتردّد علينا كل أنواع الناس، معظمهم كانوا من المطالبين بالوظائف. وكان أمين يحثّهم على ايجاد المكان الشاغر الذي يلائمهم، ثم يقوم هو بالدعم الضروري لتثبيتهم في هذه الوظيفة أو تلك.

ولقد لاحقه في إحدى الفترات شاب قصير القامة أشقر الشعر، أزرق العينين طالباً وظيفة. واستطاع أمين أن يجد له وظيفة مرتين، الثانية، كانت في أحد المصانع المحيطة بطرابلس. إلّا أن هذا الشاب كان مشاغباً، يضرب زملاءه بالسكاكين، ويهدّدهم، مما دفع أصحاب العمل إلى طرده. وجاء الشاب لعندنا يطلب وظيفة من جديد، فطلب منه أمين أن يبحث عن وظيفة أخرى. وكان أمين قد أسر لي بأنه يشعر بنوع غامض من الحذر من ذلك الشاب. ثم نسيناه في خضم انشغالاتنا وظنناه راح في حال سبيله.

ثم جاء يوم أحد، وصرف أمين السائق، وتوجهنا لنتناول الغداء عند والدته. وعند المستديرة في الساحة الرئيسية للمدينة، توقف أمين، واشترى كعكاً. ضحكت! أحد نواب المدينة يشتري الكعك من الطريق. رحنا نشاركه في الطعم اللذيذ، وأكملنا طريقنا إلى «أبي سمرا».

كان أمين يكره حملة السلاح، ويواجه إلحاح السائق بقطعة سلاح بالرفض القاطع.

تناولنا وجبة الطعام، وجلسنا بعض الوقت، ثم نزلنا لنستقل السيارة. دخل رمزي والخادمة وجلسا في المقعد الخلفي، وأخذت مكاني في الأمام بالقرب من أمين. وبينما كان يفتح بابه ليدخل السيارة، وبعد أن وضع قدمه اليمنى في داخلها، برز ذلك الشاب فجأة! وكأنه كان يكمن في مكان ما بانتظار نزول أمين.

استمع أمين والشاب يطالبه بوظيفة جديدة، فأجابه أمين ناصحاً إياه أن يفتّش عنها ووعده أنه سيدعمه للحصول عليها عندما يجدها، ودخل السيارة ويده على الباب. وظل الشاب واقفاً بعناد ووقاحة وأجاب: «هذا الكلام لا ينفع!» ولعل أمين

لاحظ أن الشاب تقدم خطوة أخرى من السيارة، فأغلق بـابها، وأشعل محركها. فما كان من الشاب إلّا أن سحب مسدسه من خاصرته ووجهه نحو أمين.

عندما شاهدت المسـدس مشهوراً عـلى زوجي، ثم وجه الشـاب يحملق بنـا، ارتميت بسرعـة عـلى أمـين. وجـررت رأسـه نحـو حضني، وغطيتـه بجسـدي. وراح الشـاب يطلق النـار مـن مسدسه، وسمعت ابني يصرخ! طاق. طاق. طـاق. طاق. طـاق. خمس طلقات بالتمام، وصحت بالشاب: «لا، حرام!».

فعل الشاب فعلته وهرب، ونحن لا ندري أين أصيب أمين، لأنه أحس بشيء ساخن في إليته. وفي تلك اللحظة الهـاربة السريعـة المكثفة بالخـوف والمسؤولية، رأيت عيني الشـاب تبرقـان بنهم غـريب! ولا يوجـد أي منطق في الدنيـا قـادراً أن يقنعني بـأن هاتين العينـين الزرقـاوين تقدحـان شرراً، ليستا تعـابير مجـرم ينوي القتل عمـداً. فلم يحمل في تعبـيرهما أي أثـر للغضب أو حتى أي نـوع من الإحساس. كـانت أمـامي عينـان قـاتلتـان بأعصاب باردة.

تجمهر الناس حولنا بسرعة ثوان، ورمـزي يصرخ، ورجل أمـين ارتفعت، فـأنزلت قـدمي، وأنا أدعـو الله أن أكون قـد وضعتها فعلاً على الكابح. وصحت بـالخادمـة أن تنزل هي ورمـزي من السيـارة. وصلت شقيقة أمـين تصرخ، فطلبت منهـا أن تعتني برمزي، وكـان أحد المـارة قد دخـل السيارة، وأسرع بهـا نحو البلد. ذكرت لـه اسم المستشفى الذي أريـد أن يأخـذنا إليـه، فصاحبها أحد أعضاء مجموعة الأصدقاء إياها.

وصل الطبيب راكضاً بعد دقائق، وأدخلوا أمين غرفة العمليات، وبعد التدقيق الجراحي وجدوا أن رصـاصة واحـدة قد دخلت أليته وخرقت العظم، ثم استقرت به لا تتحرك. وفضل الأطبـاء أن يتركوها هكذا في مكانها.

توافد أهل طرابلس إلى المستشفى للاطمئنان على أمين. إلاّ أننا لم نكد نشكر الله على نجاته، حتى اكتشفنا أننا قد سقطنا في موقف حرج للغاية. فقد انوجد في المستشفى «خضر الأوضا»، وهو من القبضايات المعروفين بعدائه للتيار السياسي الذي يضم أمين. وكان قد أصيب بما يزيد عن ست وعشرين رصاصة في كل أنحاء جسده، من مسدس «قبضاي» آخر ينتمي إلى التيار المعاكس. وأدت هذه الحادثة إلى توتر محموم في الأحياء الداخلية، وكنت أنا غافلة عن كل هذا. وانتقل التوتر إلى ردهات المستشفى، وأعوان «الأوضا» في كل مكان حول المستشفى.

كان همي الوحيد سلامة أمين. وسمح لي صديقنا الطبيب أن أنام في غرفة أمين. وكنت أستقبل الزوار نهاراً، وأسهر ليلاً مع واحد من أصحاب النخوة المقربين من أمين. وهو رجل مشهور بمعارفه وعزوته وشجاعته. ولم يترك المستشفى دقيقة واحدة.

كنا نتسامر ليلاً، وكان يستمتع بأن يروي لي عن دنيا «القبضايات»، وحملة السلاح، ووصف الشاب المعتدي بالنذل الرخيص لأن ما من «قبضاي» حقيقي يعتدي على رجل و «حريمه» معه.

وكنت آوي إلى سريري الحديدي في زاوية من غرفة أمين، وأنا أؤجل مواجهة الخوف الذي تفجّر فيّ. شعرت بأمان نسبي في المستشفى، فآثرت الهرب من الهول المبهم هذا الذي انقضّ عليّ.

حادثة أمين هزّتني، وهزّت طرابلس، والأجواء السياسية البرلمانية، وطلب أحد النواب أن تعلّق المشانق لمثل هؤلاء المجرمين الذين يعتدون على النائب، ولكن كون أمين سلم من الخطر، تركّز الاهتمام في طرابلس على وضع «الأوضا». وكنت أراقب حالته عبر رفيق الليل، وشعرت ذات يوم أنه من الأفضل

أن أرسل الزهور والحلويات إلى المصاب الخصم لئلا يحدث ما ليس في الحسبان. وكنت أواظب على زيارة معظم المرضى، وأوزّع عليهم الهدايا التي تصل أمين. واستشرت رفيق الليل فأثنى على الفكرة، وراح بالهدايا التي استلمها والد الجريح.

وفي اليوم التالي تولّد عندي إلهام ما يدفعني لزيارة والد الجريح، وأخبرت الرفيق بما انتويت، فطلب مني بضع دقائق ريثما يتفحّص الجو عندهم. وعندما عاد رأيته من طرف عيني يشير إليّ. فانتظرت حتى دخل الزوار لعند أمين، وانسحبت دون أن أخبر أحداً بما نويت أن أفعل.

استقبلني الأب والدموع في عينيه. كان رجلاً ضئيل الحجم، أبيض الوجه، لطيف المعشر. وكنت أتوقع غير ذلك تماماً، لكن رفيق الليل علمني أن العاطفة والشهامة شيء، والسلاح شيء آخر. السلاح هو عنفوان الرجل.

تمنيت للجريح الشفاء العاجل، وقلت له إني جئت أسأل عنهم نيابة عن أمين، لأنه لا يستطيع السير على قدمه. وأبدى الأب استفظاعه لما حدث، وأقسم أنه إذا شفي ولده، فإنه سيقيم لزوجي مهرجاناً كبيراً في حارته. شكرته، وكررت تمنياتي الطيبة، وانتقلت إلى جناح آخر من المستشفى.

مرّ ذلك اليوم سريعاً متعباً كالعادة من الوقوف والاستقبال والوداع. وبات أمين على وشك أن يترك المستشفى بعد أن تماثل جرحه للشفاء، على أن يمشي بواسطة عكازين لمدة شهر. ومضى اليوم بنشاطاته العادية. إلى أن كانت الساعة السادسة والنصف. اضطرب جو المستشفى فجأة، وسألت ما الخبر؟ لقد توفى «خضر الأوضا». يا الله! ماذا سنفعل؟ أخلي المستشفى من الزوار في الحال، وانتشر الناس حوله في الخارج، جلسوا على الأرض ينتظرون إخراج الجثة.

جلست قليلاً مع أمــين، وأخبرتــه ما كنت قــد فعلت، فتطلع إليّ بتعجب، وحــاول أن يحتج، لكن الـرفيق طمأنــه أن كل شيء تمّ على ما يرام. فاستراح، ولم يلبث أن أخلد إلى النوم.

انفعلت إلى أقصى حد بتلك الزيارة التي قمت بهــا. كنت ألج عالماً خطراً، حواره السلاح، وتقاليده قائمة حول فاعلية تلك الآلة الجديدة على حياتي: المسدس. فهمت تماماً أن الـرجل الذي يحمله، يظل أهم من المسدس. ثم إن هناك أخلاقيـات مجتمع قائم بحد ذاته، تنبــع من غريـزة استعمال الســلاح عند فئة من الناس، ومناسبـات اطلاق الـرصاص. ولم يكن عملاً مألوفاً أن تتدخل المـرأة في هذا العـالم، ولذلـك اعتبر الخاصة من أصدقائنــا أني قمت بمغامـرة شجاعـة، كانت مناسبة تماماً في توقيتها.

خرجنا أنا والرفيق من غرفة أمين، وجلسنا في الصـــالة الكبـرى ننتظـر جلاء المـوقف. ومرت الســاعات بطيئــة خطرة، خشينــا خلالها من أية ردة فعل قد تتوجه نحونــا انتقامــاً لوفــاة «خضر الأوضــا». وكانت السلطــات قــد أرسلت فـرقــة عسكـريــة إلى المستشفى لضبط الأمن، ووقف أحــدهم على بــاب غرفــة أمين. وبقينا على هذه الحال المتـوترة حتى الفجـر، إلى أن تم الاتفاق بعد المفاوضات أن تحمل الجثة في عتمة الليل إلى الخارج.

أويت إلى سريري الحديــدي في زاوية غــرفة أمــين، وأنا تعبــة، مكتئبة، وواجفة. كيف أهرب من الخوف الجديد الذي احتلني؟ تلاحقني كل ليلــة بعد ليلــة تلك العينــان الزرقــاوان النافــذتان بإرادة باردة كالصقيع، تنصبــان عليّ، وتطــاردانى في نومي وفي يقظتي، فأستفيق فجأة، أتطلع حولي، أضواء غرفــة المستشفى ترسم لي أشباحاً غير واضحة المعالم، وأحس بالوجـود الغامض المخيف، وأرتجف. تعــود العينان تــلاحقاني، فــأقــوم لأمشي في الممر المظلم، وأدخن سيجارة. وبعدها هيهــات أن أستريــح من الخوف.

امتدت حياتنا أمامي، وهي في مخيلتي مليئة بالخوف. والخوف هذه المرة ليس ميتافزيقياً أو نفسياً، إنه خوف نابع من خمس رصاصات خرقت حديد السيارة، وكادت، لولا لحظة، لولا همسة، لولا حركة زائدة أو ناقصة، أن تقتل!

إذن القتل سهل هكذا!!

كنت أصارع نفسي نهاراً بخوفي من القتل، أبعده بإرادتي عن عيني، عن ذهني، فأستجمع ذاتي، إلى أن ينتصف الليل، ويبدو النعاس على رفيق الليل، وأتساءل بصراخ مكتوم: «ماذا سأفعل بعد أن نخرج من المستشفى؟».

هدأ روعي بعد خروجنا من المستشفى، عندما التحق بأمين أخو رفيق الليل الذي واكبني أنا وخوفي، بوجوده، وبرؤيته المجرّبة، وبدأنا في البيت نناديه «الحاج» هكذا حاف. وبات «الحاج» المسلح واحداً من البيت، له مكانته واحترامه، وموقعه الخاص في قلوبنا.

أمسكوا المجرم بعد أن هرب، ولم يصدر عليه حكم بأكثر من ثلاث سنوات. وطار صوابي! لم يوافق أمين أن أدلي بشهادتي في المحكمة، ثم أسقط بعد ذلك حقه الخاص في القضية. فبت أجد نفسي أهرع إلى فتح الباب، قبل أن يصله أمين، خوفاً عليه. مرت سنة وأكثر، وأنا غير مكتفية بالمرافقين المسلحين. شعرت أني أنا وحدي المسؤول عن أمنه.

تنوّع الخوف في صفحات حياتي وجربت أنماطاً متنوعة منه. الخوف الذي بدأ من هواجس ذاتي، ومن المبهم الناقص فيها، فالخوف يتلطى خلف لغز الموت في حياة كل انسان.

موت أبي فاجأ بداية حياتي. إنه مات بسرية، بتكتم، بالاختباء في الحب الذي رفضت أمي سبات الانسان فيه، فأخذت عنها الأبواب المغلقة على سيرة الموت.

وكل انسان يحاول أن يستكشف غوامض الموت وكأنه
الوردة التي لم تتفتح بعد. فالوردة مثلنا تفنى. وكلما اكتمل
نضوجها، كلما اقتربت من الفناء.

وأنا مثل غيري، أرفض نهايات الأشياء وفناء المشاعر، ولذلك سألت «سيمون دوبوفوار» عندما قابلتها في القاهرة: «هل تحسين بالخوف؟» كنت أحاول أن أتعلم منها، وأودّ أن أكتشف معها المزيد عن الموت. أردت أن أسحبها إلى «حديقتي السرية» حيث تنبسط الحقائق وتتوضح حتى لو كانت في عكس اتجاه البشر. إلّا أن «دوبوفوار» كسفتني عندما أشاحت وجهها عني بعد نظرة ساقعة كالثلج، وسألتني بدورها: «الخوف مم؟ من القنبلة الذرية؟!».

شعرت في تلك اللحظة كما لو أنها تكرهني، وتفتعل الاستخفاف بي، وأفلحت باستبعادي عن عالمها الداخلي، وتركتني أندم على اعجابي الماضي بها، وحوّلت مشاعري نحوها إلى احساس مضخم بالمقت. مقتها تلك اللحظة حتى العظم.

ماذا كنت أفعل مع سيمون دوبوفوار؟ لقد كانت لي وقفة مع الصحافة بعد أن امتهنت الأدب.

استلم صديق لي رئاسة تحرير المجلة النسائية «الحسناء»، وأراد أن يجعل منها مجلة «هي» أو «ايل» الفرنسية. وطلب مني اجراء مقابلات مع شخصيات درسناها معاً، وانتقينا حواراً مع ملكة مصر، زوجة فاروق الأولى، ثم مع «سيمون دوبوفوار».

ولقد وفقت في لقاء جامع، شائك، وجداني، صريح وحزين، ومليء «بالنوستالجيا» مع الملكة فريدة التي سكنت بيروت فترة من الزمن.

أما «دوبوفوار» فقد حلت ضيفة هي و «جان بول سارتر» على

جريدة «الأهرام» المصرية. واتصلت بصديقتي نوال التي حددت لي ذلك الموعد المحبط معها.

سكنني الخوف، وظل يحوم حولي كالشبح، كالسياج، ودار بيني وبينه عراكاً تجسد بالقلق والوسواس والوحشة. وكلما أطل الموت على أحد معارفي، كان عذابي يتلبسني، ومهما هربت أو تقوقعت أو أدخلت نفسي في مخبأ، كالسلحفاة التي تدخل رأسها في قوقعتها المتينة، كلما شعرت بالخطر. وعشت مع هذا الصراع، إلى أن علمني الفدائيون مغزى الاستشهاد، وتعاليت معهم على فناء الجسد.. بمعجزة!

ولكني لا أعرف حتى اليوم سر السكينة التي هبطت عليّ عند وفاة أمي. لم أخف، وها أنا أفكر بها، وكأنها تحيا فيّ مشرقة، متكلمة، تشاطرني مشاعر الحياة، وتواصل معي مسيرتي. وأنا ما زلت أكمش يدها كالطفلة، وكأنها ما زالت تزينني بشرائط ملونة.

أمي تحوّلت إلى روح تسكنني، وكلما أصابني هاجس أتذكر أن الموت هو الخوف الأول، والهول الأول المرافق للحياة، أليس هذا سبب ولهي وانكبابي وعطشي لأن ألتهم كل موقف من مواقف حياتي بنهم! فأصب نفسي الصافية، الحاضنة فيها، فتستغرقني إلى أعمق أعماق وجداني، ويتوارى الموقف، أو الحدث الذي ألهبني. هو ينتهي أو يصل ذروته فأرتفع معه إلى أن أقع بسقطة جارحة، تقتطع جزءاً من روحي، وتتركني إما ناقصة، وإما متألقة. وفي كلا الحالتين أهتز، وأسابق الريح إلى أحضان أمين!

٩

ألوان متناقضة

هنـاك وقف «فلان»، أول مـا دخـل بيتي، وراح يمايزني من بعيد. تعارفنـا بعد قليـل، فقد كنـا نلتقي لأول مرة، ثم تبسم الوجه الصارخ ضد هويتي العـربية، ومنه تعلمت خبايا وخفايا السياسة اللبنانية الصرفة.

هو السياسي المجرّب، ربما المحنك على طـريقته، إذ لا أستطيـع أن أجـزم، فكثيرون كـانوا يجـدونه متعـالياً، متـرفعاً عن بقيـة الناس، ولا يعرف كيف يتعامل مع المواطن العـادي. حتى كنت أمشي عكس سـيره، وهو يتـوجّه عكس سـيري أنـا. وهـا نحن نلتقي، نسهـر معاً، نتنـاول العشـاء، ويتـركنـا الأصـدقـاء، لا يقاطعون ذلك الحوار الحاد المنهك، ناسين كل ما حولنا.

وارتج عليه. فمن هذه السيدة الآتية من عراقة الجنوب، في قلب طرابلس، تلبس نظارة لم تفلـح أن تحجب عينيها الخضراوين المشتعلتين حيويـة وألقاً. هـذه السيدة قـادرة أن تعُب الدنيـا. وهي فعلاً سيدة، طـريقة كـلامها، تصرفـاتها، إلمـامها بـالذوق وحسن التصرف، صارخة، مقاتلة، حسـاسة و... فنـانة! تكتب الـرواية. تحب أجـواء المثقفين، تحب عبـد الناصر، وتـريد من لبـنـان أن يصبـح وطنهـا العربي. هـذه سارت في مظـاهرات، وكتبت تحقيقات ملتزمة بالـوحدة العـربية. تحكي عن العـروبة وكأنها «جان دارك» تخاطب فرنسا. تحرق أنفاسها بالسيجـارة

الفرنسية والعروبة، ولكن، ولكن ليس فيها أي شيء عربي سوى لغتها، وحديثها الساحر.

هي في نظره نقيض العروبة. أنيقة ببساطة، لا يهمها أن تبدو جميلة، لكنها جذابة، خاصة عندما تنتفض حماسة. تحتضن مبادئها بلهفة، وتلبسها ملابس لا تتناسب مع الواقع. العرب ليسوا مثلها. هي لبنانية، ولا تعرف كم هي لبنانية في الجوهر، في التكوين. عندها سحر الشرق بتلك العاطفة الجياشة، وهي أيضاً امرأة من الشرق لأنها تحكم بقلبها بينما السياسة فن الممكن. هي لا تعترف أبداً بالممكن. كلما استحال هدفها، كلما تشبثت به أكثر.

تلك اللحظة الأولى كانت بوابة لصداقة فريدة، طويلة معقدة، مركبة. علاقة استطاعت أن تجتاز كل مراحل الغضب والانكفاء، وسوء الفهم. قلبه البارد اكتوى بالسياسة، لكنه لم يعترف بذلك أبداً، وهي كانت الضوء الذي ينير طريق العقبات أمام وصوله إلى المنصب الذي لم يعلنه إلّا سراً رغبة في الوصول إليه. وظل يعمل من أجله طيلة حياته. وجاءت هي، بعفويتها الكاسحة تلك، فوضعت أصبعها على الوجع، وعرفت ماذا يريد!

وكان يتساءل من علمها حب الموسيقى الكلاسيكية الغربية؟ المفروض أن تتأثر بنواح العربي على ماضيه. متحررة، يا ترى، من أي «إسلام» جُبلت بتلك الشخصية المستقلة؟ الواثقة من نفسها، والخجولة والشجاعة معاً؟

يزورها في بيتها، يلاعب ابنها قليلاً، ثم تقول له: «أنت تتكلم في السياسة مثلما يرسم بيكاسو!». ويبدأ الجدل، التنافر الفكري، ومعه ولد تعاطف وجداني من نمط ليس له مثيل.

عاشا متنافرين، لكنهما كانا يستمعان معاً إلى السيمفونية

الثالثة «لبراهمز». عاشا متخاصمين، لكنها كانت تتصل بالتلفون وتعطيه رأيها بآخر تصريح له. يلتقيان في المناسبات الاجتماعية فيجلسان إلى نفس مائدة الطعام، يتحاوران بلغة خاصة، يفهم منها الآخرون أنهما قد تعارفا لتوهما.

يحكي لها عن أولاده بالتفصيل، وتشعر أنها في موقف غريب، فهي تعرفهم، وتستنتج رأي والدهم بهم، دون أن يكتشفوا إلى أي حد هي دخلت في حياتهم.

هو قاس. بارد. في حالة تحدّ مستمرة. وهي تجابه التحدي، بتحدّ أكبر. هي حالمة، حنونة، تقول الأشياء كما هي، ولا تغلفها بالأسرار، وتجعلها في أطر المستحيل. منعشة علاقتهما، جذابة، مثيرة. وكيف ظلت دائمة؟ هي نفسها تتعجب، وهو نفسه يستغرب. يلتقيان دون موعد في بلدان العالم المختلفة، وتهرع إليه وكلها شوق، فيلف شوقه في نظرة متسائلة، وكأنه يقول لها لماذا كل هذه الضجة؟ لكنها باتت تسخر منه، إذ تعلمت أن ترى شفافية العواطف في عينيه، وهدوئه المستريح، دون أن يعبث بعصبيته المعتادة، بسلسلة المفاتيح الذهبية.

لم يعد يسكن لبنان، وكلما أمر من أمام بيته، أفكر به، بحزن. فهو لبنان القديم، رغم أن لا أحد قادر أن يتخيّل الصورة التي أرادها للبنان... هو «الماروني» العتيق!

شُبه مرة، في إحدى الصحف العربية، أنه الرجل السياسي الذي يقف على يسار النظام اللبناني، بينما كمال جنبلاط يقف على يمين المعارضة.

لقد تكوّنت الفسيفساء السياسية اللبنانية من أنماط تشابه قوة شخصيته، ولكن ليس على شاكلته مطلقاً. إنه فريد، له جاذبية مخبأة، لا بد من ثمة حيلة ليخرج الرجل عن صمته السياسي، وعندما قيل قبل الحرب اللبنانية أن لبنان مبني على عدد محدد

من العائلات، وجدت هذا صحيحاً، ولو أن ذلك الرجل بالذات كان طائراً في غير سربه!

أشتاق إلى ابتسامته البخيلة، فهي تراود أحلامي، إنه هناك يطل على شاطىء البحر: «مثلما كان بيتي في بيروت يجاور البحر. أحب هذه الحركة الدافئة أمامي. فأنا لا أحب البرد، أفضل الصيف!».

وكيف أنفي أنه شغل حياتي، وغيابه بوصلة ناقصة في رؤيتي السياسية، حتى لو عاكست رؤيته هو. أنا مستريحة في كونه نقيضي لأن الحوار بيننا يصبح قضية، وهو يجد لذة في العراك، يشرق وجهه من أعماقه، فحواسه تتنبه وذهنه يتعثر. «قلائل هم الذين يحاورون بذكاء!» وإلّا.. فإنه يصمت. أضحك بمرارة، أجل، على الأقل اعترف لي بذكائي.

أمين تعوّد عليه على مهل. لم يكن مندهشاً بشخصيته، ولكنه دأب على محاورته. يخيل إليّ أنه كان يتساءل ما الذي برعني فيه، وكأن لسان حاله يقول: «لنرى! لا بد أن يهدأ ابتهاجها».

أما الصدفة الغريبة فقد كانت في تعرفي إلى رجل مميز جاور حياتي بكثير من الحميمية العاطفية، على شرفة صديقي.

كنا أربعة، وما زلت أتذكر تلك الليلة الصيفية، وكأنها حدثت بالأمس. هكذا هو لبنان الماضي، مليء بالشخصيات الملفتة، يسمع المرء عن هذا وذاك، وعندما يتم التعارف، تبدأ الأسوار بالهبوط، ويرتبط شخصان فجأة بعلاقة ود، تغترف الخلافات، وتحد من تطرفها، فتنثني كلها داخل الفسيفساء اللبنانية، التي أسميناها في مواقف عديدة من الحرب العبثية «الرمال المتحركة».

إلّا أني بهذا الوصف لا أنفي وجود التناقضات الرئيسة الخطرة، المرتبطة بالخارج غرباً أو شرقاً أو عربياً. تلك

التناقضات كانت تعالجها السياسة بالمال و «الثعلبة». وكانت المواقف المصيرية تتوقف أحياناً على مصلحة اثنين، واحد من كل من الطائفتين الرئيسيتين. بل يسيرها «مزاج» الواحد الذي يتضايق من قرنفلة الآخر، أو لون بذلته، أو عناده، أو حذائه. هذا ما كان يسميه صديقي المميز «بصراع الصالونات»، تلك الصالونات السياسية ومآدبها كانت دوماً كفيلة بحل الاشكالات السطحية التي تخفي حتماً السبب الحقيقي لعدم الانسجام.

كنت أتفرج على هذه المحاور، تتبدل وفق المصلحة الذاتية، مما جعل الفسيفساء اللبنانية تركيبة قائمة، ولكن بدون صلابة، وخالية من أي خط فكري حزبي أو فلسفي.

وهنا تساءل الكثيرون هل هذا وطن، أم منتجع، أم سوق، أم شارع للمصارف والمضاربات المالية؟ ويخيّل إليّ أن هذه «الفكفكة الطائفية» كانت على وشك أن تتبدل وتتحوّل جذرياً بالتغيير الذي أخذ يطرأ على الخريطة السياسية الانتخابية، لو، لو قدر لها أن تعيش تجربتها دون صراعات مسلحة.

كان يلذ لي أن أتحاور مع أولئك الأقطاب الذين يناقضون خطي السياسي. ربما الروائية فيّ، ربما تلك التربة الوطنية التي جبلت بها. ولا أنفي أني كنت أحرج أمين، باندفاعاتي نحو هذا التيار، أو ذاك، وأنطلق بصراحتي غير السياسية، وبصدقي غير «اللبناني». وهذا لا يعني أن اللبنانيين غير صادقين، أبداً، إنما أهل السياسة لا يسمون ذلك كذباً، فالمواقف تتحوّل وفق المصالح. وما يجري اليوم غير بعيد عما كان يحصل في الماضي.

كنت قد سمعت كثيراً عن ذلك الرجل المميز، عن ذكائه الخارق، وأطواره الخاصة، وتعاليه هو الآخر على الناس. إلّا أنه كان يتعالى على الخاصة من المجتمع الحالي ـ السياسي، لا على العاديين من البشر لأنه كان يملك الثروة المالية الكفيلة بدعم مواقفه الخاصة بمزاجه أو مصلحته.

وكان في تلك الليلة يلبس حزاماً خاصاً لعلاج آلام الظهـر، وبدا لذلك طريفاً ولو كان شكله يوحي أنه سوف يختنق، لكنه انطلق يحكي بلا صعوبـة في التنفس كما خيّـل إليّ من مظهره، ووجـه اهتمـامـه نحـوي، وأنـا لم أتـورع عن مشـاكستـه بصراحتي وآرائي، وكأننا نتبـارز، أو نلعب «التنس» وكل واحـد منا مصرّ أن يـرد الكرة إلى الآخـر بشطارة أكثـر، ومـا ان تصلـه حتى يجري بكل طاقته ليردها. غير أن الصداقـة بيننا لم تتـوطد إلا بعد أشهر، عندما شاءت الظروف أن نتقابل ونتبادل الدعـوات، وما لبثنا أن أصبحنا صديقين حميمين بسرعة فائقة.

هو رجل أعمال ناجح ثري، يملك دارة كبيرة مترفة. وكـان عنده هـوايات متنـوعة كتصليـح الآلات مثـلاً. أرسلت لـه «راديـو» صغيراً معطلاً، فـأعاده إليّ، مـربوطـاً بشريطة سـوداء! ناعيـاً الفقيد!

أخبرني مرة أن ثقة والده بـه كانت معـدومة، إلى حـد موجـع، حتى انه كان واثقـاً أن ابنه الـوحيد سـوف يبدد كـل ثروتـه. «اليوم ضاعفت الثروة، ولكن ما الفائدة، لقـد توفي والـدي قبل أن يشهد بنفسه على نجاحي».

لم ألتق بشخص منفتح مثله، أو على الأقل كـان معي هكذا، لا تقف بـوجهه أي عقبـة، يصل إلى مـا يـريـد حتى في الأشيـاء الصغـيرة. مثلاً أراد مـرة الذهـاب إلى السينما معي، فقلت لـه إني سبق ودعـوت أمي وخالتي، فـأصرّ أن نترافق كلنـا. ولكم أضحك أمي الوقورة دوماً، الحذرة أبداً من الغـرباء الـذين لم يسبق لها التعرّف إليهم. بعد السينما رحنا إلى «الهورس شـو» وهو المقهى ـ النادي الذي ورث «الأنكل سـام» أمام الجـامعة، وأكلنا «بوظة». علاقتي به كانت مرحة، سهلـة، قلما نتحـدث في السياسـة، تركتها لأمين، وكانا يتناقشان معاً براحة ومتعة.

واليوم أتذكر الإشاعة التي سرت عليه بـأنه عميـل «للسي. أي.

أي». ولما اشتدت، رد عليها بإقامة دعوة عشاء كبيرة على شرف السفير السوفياتي!

المضحك في الحادثة، هو أن كل المدعوين لبوا الدعوة، وعلى رأسهم أولئك الذين أطلقوا الإشاعة! لم يتخلّف أحد، ربما ليتفرجوا على ما يمكن أن يحدث في معركة تحد من هذا المستوى، أو ليتباهوا أنهم كانوا من بين المدعوين، أو تقديراً لمقدرة الداعي على تحدّي أقوى الفئات الاقتصادية ـ السياسية في العاصمة.

كان يخطر له أن يتصل بي تلفونياً في منتصف الصباح، وعندما يجد أني غير مشغولة، يرسل لي سيارته لكي أزوره في مكتبه. يعرفني على الموظفين، ثم يطلب لي فنجان القهوة، ويستريح في جلسته أمام مكتبه قائلاً: «الوحوش راحوا، انتهينا منهم». ظل يعتبر كل واحد تقليدي «وحشاً!» وكل صاحب ثروة حائراً كيف يثبت أن له ثروة «وحش!» يسخر هكذا من الناس الذين لا يعجبونه، ويختلق أحاديث مبهمة معهم.

صديقي الأول أخبرني بعد مضي خمس عشرة سنة، أنه بدأ يشك بسلامة عقل صديقنا منذ تلك الحفلة. لم أسمع أحداً يشاطره ذلك الشك، حتى زوجته لم تفض إلي بذلك. وأنا طبعاً كنت أجد متعة كبيرة برفقته، حتى اني كنت أقول له «أنت مجنون»، وقصدي هو الإطراء بتميزه عن غيره بالذكاء والذوق وسرعة الخاطر، ومقدرته على خرق التقاليد البورجوازية السائدة بكل راحة وخفة دم.

أخبرته أني كتبت مجموعة قصص قصيرة سوداوية، وأني خبأتها، ولم أنشرها إلّا بعدها بفترة. وكان عنوان أحدها «أنا الصليب»، أرسلت له نسخة منها لكي يقرأها. ولم يخبرني عن رأيه فيها، لكنه أهداني صليباً أثرياً من مجموعته الشهيرة، قائلاً لي إنه يشبه صليبي أنا، ففيه ذات تعابير العذاب التي

أشرت إليها في قصتي الغريبة. أما في يوم عيد ميلادي، فقد أهداني حبة كرز صغيرة جداً من الخشب وفي قلبها عندما تفتح، تكر أفيال من العاج. ويمكن التصور كم كانت الأفيال صغيرة ودقيقة. أما عددها فكان لا يصدّق! مئة فيل بالتمام!!

كان يتلذّذ بممارسة العبث الضاحك الساخر، وأجاريه أنا كمن وجد ضالته، ويضحك أمين، ويتفهم هذه «الطفولية العبثية». لم يشاركنا في كل شيء، لكنه لم يغضب كما كانت زوجته تتوجع من أفعاله هذه.

ذات صيف راح مع زوجته وأولاده ليصطافوا في أوروبا، وبقينا أنا وأمين ورمزي في لبنان مكتفين «بشاليه» في مسبح «السان سيمون». عندما أمر من هناك اليوم، وأنا في طريقي إلى بيتي الحالي. أصيح همساً: «يا للهول!!» ويغط عليّ اليأس كالغول، لا لأن المنطقة كلها تبدّلت معالمها وحسب، بل لأني لم أعد أرى البحر أبداً.

ذهبنا نحن، لنقضي شهر آب الحار، في شتورا. ولما عاد صاحبي إلى لبنان في نهاية الشهر، وجاء ليزورنا في شتورا، أخبرني أنه مصاب بانهيار عصبي. واستمرت هذه الحالة معه سنوات طويلة، لكن صداقتنا استمرت بالرغم من كل شيء. كان أحياناً يذهب إلى مكتبه، لكنه يقضي معظم أوقاته في البيت، ويقترح عليّ زيارته، فأذهب وأجلس معه في مكتبته الجميلة، ونتبادل أطراف الحديث، ونجالس أولاده، كما لو أن حالته أمر عادي، ولولا ذلك الوجوم المهيمن على محياه، لما شعرت أبداً أنه يشكو من شيء. ظل ذكاؤه يشع، وحبه للأشياء الجميلة التي يقتنيها، يقرأ لي مقاطع من كتاب عن نابوليون. وسألته إذا كان يحب نابليون كشخصية تاريخية، فأجاب: «كلا، لأنه أضاع توازنه وفشل». وسكت ثم قال: «كما يحدث لي اليوم». بكيت وأنا أؤكد له أنها حالة عابرة سوف تمر.

آخر مرة التقينا فيها كانت أثناء إحدى هدنات الحرب اللبنانية. دعاني إلى العشاء، واحترنا أي مطعم يستطيع أن يستقبلنا في تلك الفترة الصعبة. أخيراً اهتدينا إلى مطعم صغير، دخلناه وجلسنا نضحك، ونتبادل الذكريات والأشجان. ومن طرائفه تلك الليلة، أنه نادى صاحب المطعم وأخبره أني ابنة المفتي!

اتصل بي تلفونياً، والقذائف تنهار على بيروت ليودعني، متمنياً لو أسافر معه إلى باريس. ليتني أحسست أنها آخر مرة سوف أسمع صوته فيها. فقد توفي بعدها بقليل.

والآن وأنا أكتب عنه، يرتجف قلمي، وتخز الدموع عيني، وأرفع رأسي عن الورق، أتطلع في الفضاء، فالباب الزجاجي أمامي له ثلاث دفات. وتسبح أفكاري، وتهيم على غير هدى، و «يغص» قلبي، يهرب من دقاته، وأقفز بمشاعري إلى الماضي. أضع يدي على صدغي، وأحلم. وأحلم. كيف ستعود بيروت، بيروت؟ ألن تكون مليئة «بالوحوش» على حد تعبيره؟ وحوش المال من لحم البشر!

أنسى، أنسى، الورق، والقلم فأنا أشتاق إليه بحرارة، أتلفت حولي، أين أجده؟ الضحكة تنحشر في حلقي عندما أتذكر كيف سرقنا الشوك والسكاكين من المطعم! يخيّل إليّ أني سأتصل به بعد قليل، عند عودته من غيبته. ولكنه بات هناك، حيث لا عذاب، ولا ألم.

راحت نسختي من قصة «أنا الصليب»، وراح الصليب الذي أهداني إياه، وحبة الكرز في علبتها الفضية المضلّعة. راحت جميعها مع بيتي، خلال الحرب.

لقد أطعمني موت الشجن، فقدت شيئاً من نفسي ما زلت أفتش عنه، وغريب هو شوقي إليه، لا يبدو وكأنه قد مات، شوقي هو من النوع الذي يحمل أمل اللقاء، فيه الفرحة مترعة بالشجن، والحسرة.. إني قطعاً لن ألتقي بمثله بعد اليوم. لقد ربط لي كل الشرائط الملونة في الدنيا!

١٠

لون الجنون

الورق الأبيض أمامي، وعندي أكثر من قلم حبر واحد. لم نكن قد تعوّدنا بعد على الحبر الناشف.

الورق الأبيض أمامي، والسطر الأول يواجهني ويتحداني. الفكرة في رأسي، السطر لأول يعذبني، يمزقني. أهرب. أهرب من أشياء كثيرة، أهرب من كل الدنيا، لكي أكون وحدي، مع نفسي. والورق.

السطر الأول يتراقص زهواً، إنه ينتصر عليّ. أكمشه، فيهرب. الأبواب مغلقة. أنا في «اهدن». أنبش التراب، تتساقط مشاعري، تهطل، تصل حلقي، وقلم الحبر بيدي، أتمزق.

القلم لا يخط. الورقة بيضاء. أول ورقة من دفتر للطلاب. أهتز حتى أعماق وجداني. أختنق بالكلمات. تتراقص الجمل أمامي. هي كثيرة. أيها أختار. كيف يكون الاستهلال؟!

كتبت كثيراً قبل أن أرسم روايتي الأولى. فالأسطر التي هامت في الخيال لا تحصى، تتطاير ولا تستقر في الكلمة، تفلت مني، أجري خلفها. ألهث. صدري يتمزّق، فالكلمات تتراكض، وتتزاحم، ثم تصيح، بل تصرخ لتسطر البداية. وأنتهر تلك البداية فهي لا تعجبني. هي كلمات عادية، لا

تفي بالمرام. أنا أفتش عن اللب، فقد ثقبت الجوهر، وصلت إليه بعد عناء، ترى، كيف ألبسه كلماتي؟

قصص قصيرة. ألتقط أنفاسي اللاهثة حتى بعد أن أنهي القصة، وأحس أن هذا لا يكفي. دنياي أوسع من القصة. فلأجرّب مرة أخرى، قصة ثانية، ثالثة. السباق مع الكلمات مستمر.

طلبت من الأصدقاء في «اهدن» أن يتركوني وحدي. لا أستطيع أن أكتب والدنيا حولي تشدّني نحوها. أنا أتعبد، أنا أتوق إلى العزلة لأن ضجيج الكلمات يلتف حول عنقي. كلا، لن أرافقكم إلى العشاء. بيض مقلي وجبنة. هذا عشائي. مع الشاي الغامق.

بدأت أكتب، وكأن مسّاً كهربائياً ألهبني!

وتمضي الساعات. خمس ساعات. سبع ساعات. ولا أطيق أن أفارق الورق. يتكمش أحدنا بالآخر، كالعاشقين. وتجري الكلمات، تتراكض، يقفز القلم ليمسك بها قبل أن تتوارى. البداية صعبة، ثم أستريح. ينتهي الفصل الأول. أقرؤه، أقفز فرحاً، أتمطى خمس دقائق، عدد أعقاب السجائر في المنفضدة مخيف!

أمين يبتسم بهدوء، أشعر بالفرحة تلون عينيه، يزداد لمعانهما، أي منا هو الذي يكتب؟ لا يقترب مني، يتركني، يأخذ الأصدقاء بعيداً. أتطلع أمامي، المنظر جميل. «اهدن» حلوة، وأناسها يقطرون عاطفة.

روايتي الأولى هي «لن نموت غداً».

أخيراً أصبحت أنا. زال الضيق الذي انصبّ عليّ كالأسر والسجن، تحرّرت. أنا الآن أنا. لقد فعلت. إذن أنا فاعلة في الدنيا.

انتهينا من ضجة الرواية الأولى.

قالوا روت ما يشابه قصة حياتها. هكذا فعلت معظم الكاتبات. إنها حالة الأدب النسائي. وأنا قلت كلا. الأدب إما أدب أو ليس أدباً. بعضهم حاربني. قالوا لم تتحرر. لم تكشف عن أسرار المرأة الجنسية. أجبتهم أن التحرر يأتي من العقل. من الفعل. من العمل. كلا. غيرك أفضل. غيرك كسر التقاليد. ولم يسمعوني، ولم يقرأوني كفاية ليفهموا أني أريد أن أبقى امرأة عربية. لا علاقة لي بهذا الجانب من تحرر المرأة الغربية، فأنا من الشرق. المهم هل وصلت إلى المستوى أم قصرت عن الإبداع؟ كانوا يشكلون مدرسة لها دورها البارز في تلك الآونة. لم آبه بهم ومضيت في المنحى الذي انسجمت معه، واسترحت في رحابه، في خط متواز معهم، فلما حكيت عن عبد الناصر، عن وحدة العرب، قالوا إن الأدب وجدان وليس سياسة. وأنا كنت أقول: بل الوجدان لا يمكن أن يكون فارغاً. أنا وجداني ينبض بالحب، حب واسع كبير، قد يحتوي الدنيا ولا ينكفىء عن الوطنية.

وهكذا نُبذت من أوساط الذين ظنّوا أن الالتزام أعاقني عن تلبية موهبتي. لم أسمع منهم أني موهوبة ولكن... ملتزمة ولكن... كنت مرفوضة، وكنت وحدي، وكان معي أمين، وكان معي أيضاً صديق لي كاتب موهوب وشاعر يتمايل بين رأيه في شخصي وبين رأيه المنسجم مع التيار الدارج حينذاك عن تحرّر المرأة.

بقيت هذه المعركة ترافقني حتى هذه الأيام، إلّا أني تخطيتها، وصعدت برواياتي نحو أدب ملتزم ناجح، أبكى الناس وأسعدهم، شغلهم وأثر بهم. وسيأتي اليوم الذي يظهر فيه أن ما كتبت قد أصبح سجلاً أدبياً حافلاً لفترة حساسة من انتفاضة العرب وانتكاساتهم.

وعلى ألحان السيمفونية الخامسة «لبراهمز» كتبت روايتي الثانية «الحوار الأخرس». معاناتي كانت عظيمة وأنا أدع روحي جانباً، لئلا يتدخل صفائي في وصف ما سمي حينذاك «المجتمع المخملي»، تلك الفئة من الناس الذين تتناولهم الأخبار، فيصنعونها وتصنعهم. انتقيت ذلك الجو لأدرج تفاصيله في قصة هي من نسج الخيال.

و «الحوار الأخرس» لا يعني أن المخاطب أو المستمع أخرس، بل هو شخص لا يفهم ماذا تحاول أن تقول له، فالمحاوران ليسا على موجة واحدة، وهذا ما يحدث إذا تحدثت مع رجل أعمال. الحوار يصبح أخرس عندما تتضارب المصالح، وتنقى الوسيلة، أي وسيلة، فعلاً مباحاً من أجل الوصول إلى الهدف المنشود. وبطل الرواية شخصية مماثلة لصديقي السياسي الذي فك لي ألغاز السياسة اللبنانية التقليدية.

«الحوار الأخرس» رواية الحاضر السياسي في أوائل الستينات. أجواؤها هي التي كنت أرتادها فأنفر منها، وأعود إلى البيت فأتقيأ! هي حكاية الزيف والوصولية اللتين رفضتهما في زمن كنت أجري وأركض في حدائق النبل والطيبة. السياسة بالنسبة إليّ كانت تعني ممارسة الوطنية بتنفيذ الهدف السامي. أما ما وجدته فكان غير ذلك تماماً.

كم ظلمتني بعض الأقلام المريضة في الأوساط الثقافية، فقد كنت بالنسبة إليها، أتسلى بالكتابة. فهي الترف، والنضال السياسي ترف، واعجابي بالناس، وإعجابهم بي أيضاً ترف. ولو لم يكن أمين، هذا الملتقى المستديم لنقدي ورفضي وحساسيتي، وانسياقي إلى أجوائي المتنوعة، لكنت هدمت نفسي كلياً. وكل من لم يذق عذاب الخلق ومعاناة الإبداع، لن يفهم

ماذا أحاول أن أقول، إلّا أن أمين تفهّم، وظل الميزان،

والتوازن، والحدّ الفاصل بين منتهى الجنون، ومنتهى العقل.

وظلت رواية «الحوار الأخرس» من أصعب ما كتبت، لأنها ليست أنا، بل اضطررت أن أتصادم فيها مع الأنا، لكي أعبر عن عكسي. وهكذا لم أتضايق من صلاح جاهين عندما صارحني أنه يفضل روايتي الأولى على الثانية، إنه ببساطة لم يجدني فيها!

المهم هو أن معاناتي الهائلة لم تضع سدى، لأني «تكرست» روائية جدية.

بعدها انهمكت في اتجاه من نوع آخر، وولجت عالماً أكثر صعوبة وتعقيداً، فقد انكببت أطالع أعمال الكتاب العبثيين أمثال «بيكيت» و «ايونيسكو» و «كافكا» و «جينيه». وتزامن هذا الاهتمام مع موجة من السوداوية والكآبة، اجتاحتني حتى أني رحت أحس بآلام جسدية ليست لها أي أصول فيزيولوجية.

كتبت في تلك الفترة قصصاً قصيرة رفضت أن أنشرها إلى ما بعد حين، فقد تولّد لديّ يقين أن كل «المجتمع» سواء أكان السياسي، أو غير السياسي موبوء ومزيف، قائم على تبادل المصالح. كتبت عن «الدهشة في الأسود»، و «اللون الأزرق»، و «الصدمة» و «الصرخة». وأعتقد أنها كانت تناهز العشر قصص، منها ما رويت عن نشري لإحداها «المستنقع» في القاهرة.

ولقد تسنّى لي السفر إلى باريس ونيويورك بالإضافة إلى مصر. حيث اكتشفت المسرحي والشاعر لوركا، وحضرت مسرحية «عرس الدم» في باريس، و «الأيام السعيدة» «لبيكيت»، وفي نيويورك شاهدت مسرحيته «بانتظار غودو» لبيكيت.

أما الحدث الأكثر مأساوية فقد كان ضياع قصصي هذه بعد أن احترقت في بيتي خلال حرب السنتين، وكنت قد نشرتها في

صحف ومجلات مختلفة، حاولت جهدي، أن أجدها، ولكن معظم «أراشيف» الصحف كانت قد احترقت أيضاً.

وصدرت روايتي الثالثة «المدينة الفارغة» عن بيروت عقب تلك المرحلة الكئيبة. ويبدو أن بيروت الجبارة استطاعت في ذلك الحين أن تسحقني، أنا الناشئة في دنيا الأدب. وقد تضخمت خيبات أملي الوطنية، وتتالت، فبعد الفرحة الكبرى بقيام الوحدة بين مصر وسوريا، خيبنا الانفصال، ولم أجد طريقة مقنعة للتعبير عن ايجابية واحدة، مهما كانت ضئيلة.

كانت لديّ مادة خصبة للكتابة، ولكني اليوم أعترف بأني لم أحسن التعبير، ومررت بفترة كتابية تجريبية غير ناجحة، ولم ينقذني منها سوى حرب السابعة والستين.

> اكتشفت، فجأة، أني وحدي. وأن الانسان وحده، لا علاقة له بالآخر إلّا الجوار. وفهمت توق الانسان إلى الانعتاق من ذاته. لم يكفني أني أديبة، وأني أكتب. بات كل ولعي بالحياة مجرد «لحظة» واحدة خاطفة. لقد أصابتني جرثومة العبثية، والخوف من الموت، ثم الخلاص الأكيد «في» الموت..
>
> مرضت بالأجواء السياسية التي أقحمت فيها، وكانت لا بد منها، لكي أتخلص من سذاجتي، فتولد عندي الإحساس بأني لا أستطيع أن أنتصر على الزيف بصدقي. أصبحت أسيرة الوعي الذي وصلت إليه، وظل هاجس الموت يلحّ عليّ، ويخنقني. كنت أشعر أني أكتب وأكتب دون أن أصل إلى شيء، أو أن أحقق شيئاً. ضاعت موازيني وتاهت بوصلتي. شعرت أني نقطة صغيرة في هذا العالم. فما أوسع الدنيا، من الجسر الذهبي في سان فرانسيسكو، وما أرحب الكون، لكن الانسان فيه صغير صغير، ووحيد. إذن... الحياة؟ هي العدم!

حاولت أن أعود بذاكرتي إلى الحرارة الأولى، إلى الرواية الأولى، ولكم عانيت معها إلى أن أصبحت حقيقة بين دفتي غلاف

أخضر. كنت طوال فترة كتابتها، أحلم باليوم الـذي أصعد فيـه المبنى الجديد لدار «روز اليوسف»، وأنشرها مسلسلة في المجلة.

وقتها كدت أفقد عقلي لشدة خيبة الأمـل. بكيت لأن احسان لم ينشرها مسلسلة في «روز اليـوسف» قهراً ثم رجعت إلى بـيروت، وقلت لنفسي: «طيب. سـوف أريه»! وعـدت إلى القاهـرة السنـة التالية، وأهديته روايتي المطبوعة. ثم أخـذت نسخة أخـرى إلى الناقد «لـويس عوض» طـالبة منـه أن ينصحني بما أفعـل كي أصبح كاتبة مهمة. وكتب لي قائمة من الروايات الأجنبيـة، لكي أطالعها وأدرس تركيبتها.

وانتظـرت الروايـة الأولى، وهي تحت آلات الطبع، ثم في اليـوم المحـدد لاستـلام أول نسخة، كنت سأكـون في طرابلس. كـلا. كلا. غير معقـول. وجودي أيضـاً مهم في طرابلس. مـاذا أفعل؟ وبـاتت فكرة استـلام أول نسخة قضيـة حيـاة أو مـوت، فهي رغيفي الساخن الذي انتظرته منذ الأزل.

ومـا كدت ألفظ كلمتي: رغيفي السـاخن، إلاّ وضحك صـديقي الكاتب والشاعـر قائـلاً إنه سـوف يستلم عني النسخة الأولى، وسـوف يغطيها بـالبطانيـات، لكي تبقى سـاخنـة! هـو هكـذا يـداعبني، ولكني لا أفهم، ولا أتقبـل المـزاح أبـداً، فـأغتـاظ بشراسة.

أما من هو صديقي؟ صديقي هو طاقة جامحـة. هو الـذي فتح وجـداني بعروبتـه، بصراحته، بصـدقه، بـأصالتـه، ووصل إلى حقائق كثيرة تخص حيـاتي، كان من القـلائل الـذين أفصحت لهم عن «وحـدتي»، وليدة زيف الـدنيا. وهـو كان محـور شلـة أدبية، حاكها حوله، وانجذبت نحوه بحبه لـلآخرين. هـو الذي أخـرجني من عدميتي الطـارئة، ووقف معي بعـاطفة فيّـاضـة صحية مشرقة. هو عكس كل الآخرين، صمد صفاؤه عبر معظم مشـاكله. وصـديقي فلان مـا زال صديقي، لقـد تزوّج وأنجب

الأولاد، وأمضى وقتاً طويـلاً يروح ويغـدو في مهماتـه الصحفية والأدبية. هو كاتب موهوب، هاجر عند بداية الحـرب اللبنانيـة، وابتعد مسافة. أما الزمن، فلم يطفىء ذلك الوجع الخـاص بنا، والبهجة المتدفقة التي تحيطني وأنا برفقته. إنه يستفزني دومـاً أن أكون أفضل ممـا أنا، بينمـا أنا لا أستطيـع أن أكون عـلى مثـال كل مـا ينصحني به، فنصـائحه تبـدو في معظم الأحيان نصف جادة، أو نصف هازلـة. «صديقي»، لا يعـرف إلى اليوم، كـم يهزني، وكم يسعدني وأنه في أعمـاقي، وأنا مـا زلت أهرع إليه، وأحس معه بنشوة الصبا الأولى.

ليس من السهـل أبداً أن يظـل اثنان ثـلاثين سنـة، يشعـران بالتحفّز العاطفي الذي ولد بينهما. وكـل واحد منهمـا يعيش في مكان مختلف عن الآخر.

فريدة هذه العلاقـة التي نمت بيننا، هي منتهى الحب، ومنتهى الرفض. هي كلاهما معاً، يتشـاجران، يتعـانقان بقـوة، بحرارة الشباب، بالجنون الذي ننشره حولنا. عـاطفتي إليه مستـديمة، لأنها طاقة حاضرة للعطاء.

١١

اللون الأزرق واللون الكاكي

عشنـا أمين وأنـا وغسان كنفـاني مأسـاة حرب السابعة والستين معاً. صبغنـا نوافـذنا بـاللون الأزرق، وفتحنا كل «الـراديوات»، وأهملنـا ونسينا وتـركنا كـل شيء آخر.

وغسان المناضل، غسان الفنـان، غسان الأديب الكبـير، غسان المريض بداء السكر وهو لم يتعد الثلاثين من عمره، كـان يعمل في الصحافة آنذاك، فننتظره آخر الليل، بعد أن أكون قد طلبته هاتفياً، وطلبني هو عشر مرات أثنـاء النهار، يـدخل علينـا ليلاً، ونسمع منه ما فاتنا من أخبار، ونعلق عليها.

قلت لغسان في آخر يوم من الأيام الستـة المضنية، إني لم أكن أصدق بأننـا سوف نقهـر اسرائيل، وأجـابني أنه يعـرف ذلك، «ولكن... ولكن... لـو استطعنـا فقط أن نـأخـذ قطعـة أرض واحدة، مهما كانت صغيرة من الأرض المحتلـة!» هي فلسطين، تلـك الأرض هي التي تشع شمسـاً وضياء، ولهفـة في وجـدان غسان. سكت غسان ثم واصل همسه: «انهم هكذا فعلوا، ظلوا يضمون أرضاً بعد أرض إلى...» وصمت هنا، فقد أذاع الراديو أن العدو وصل حائط المبكى!

وبعـد أن استمعنا إلى خطـاب عبد النـاصر، ارتـج عـليّ، طـار

صوابي، سحقتني الحقيقة، ركضت إلى خارج البيت، ورحت أعدو في الشارع على غير هدى. لحق بي أمين، ومعه غسان، وعدنا إلى البيت. أنا أبكي، وهما واجمان صامتان.

انصهرنا معاً نحن وغسان بنفس الروح، بنفس العذاب. والأرض. الأرض، انتزعت منا ونحن لا نقاتل، ونحن مسمرون إلى المذياع كالمشلولين، والناس يجمعون الملابس القديمة للنازحين. شاهدت منظر الثياب المكدّسة. هذه الإهانة! فهل تعوض الأرض بالثياب؟ الناس يشاهدونهم في التلفزيون يعبرون جسر اللنبي إلى شرق الأردن، ويتهمونهم بالتخاذل والتخلّي عن الأرض، همست لنفسي: إلى متى سيظل هؤلاء الناس متهمين؟ بل كيف أثور لكرامتهم؟

شيء ما أخذ يتمزّق في أعماقي. لم تعد تجدي النقاشات والحوارات. لا بد من عمل ما. قلت لغسان سأكتب. فقال غسان: هيا.

ركضت إلى الأردن، وهناك في الصحراء الممتدة حول عمان، قام أحد المخيمات الرئيسة. رجوتهم في وزارة الاعلام أن يتركوني وحدي أتجول بين الناس.

أخذت أتنقل في الهزيمة، فتحت قلبي، كشفت عن صدري، ارتجفت. واللاجئون صامتون، عيون مثلجة، عيون مكسية بالزجاج، وتعابير قاسية مغلقة على الوجود. مستحيل أن يحكوا لي عن مأساتهم. ماذا أفعل؟ جلست على الرمال عند خيماتهم، طلبت منهم شاياً، أكدت لهم أني أفهمهم، وأني لم آت لأتفرج عليهم. شعري قصير، ظنوا أني أجنبية. آه من لبنان. يقال إننا هربنا، أليس كذلك؟ تعالوا نتعاون. ساعدوني أن نثور. نحن العرب مسؤولون. رافقوني في محاولاتي لكي أرى الحقيقة في وجوه الآخرين. زرت الجسر، دخلت على مصابي «النابالم» في غرف لا تحتوي مرآة لئلا يروا أنفسهم، وقد انتشرت البثور على وجوههم بعد أن باتت

سوداء اللون من الحريق، ونبت القيح على سواعدهم وسيقانهم، وتشقق الجلد والشفاه والخدود. لكن الابتسامة، تلك الطاقة الشجاعة، ودعتني شاكرة.

عدت إلى بيروت أحمل عارنا على كتفي! جلست أكتب وأبكي، أشهق، أصرخ. النابالم رأيته على وجوه اخوة عرب مثلي. وأشرف غسان على «الكتيّب» الذي صببت فيه انطباعاتي، ثم طبعته «دار الصياد» على نفقتها الخاصة، ووزع مجاناً مع جريدة «الأنوار».

وهكذا أمسى الحزن رابطة بيني وبينه، بعد أن أذاقني المرارة التي تجري في دمه. وفي شتورا حيث انتقلنا، كنا ننتظره ـ أمين وأنا ـ كل يوم أحد، فلم يعد باستطاعتنا أن نفترق. ولكن، أليس شيئاً مفجعاً أن تكتب علي مفارقة غسان بعد عام واحد؟ في الوقت الذي انهمكت حتى عنقي بالمسألة الفلسطينية؟ وهل أن صداقتنا العائلية؟ وابنته ليلى التي أسماها على اسمي؟ وزوجته آني صديقتي؟ أليس كل هذا، أكثر أهمية من الفرق بين الجبهة الشعبية وفتح؟ حتى يقول لي يوم أخبرته أني أجمع تبرعات مالية لفتح: «أنتم تشترون ضمائركم بهذه التبرعات!!».

سقط كلامه علي كالنار. لسعتني وأفزعتني، ولكنه عندما استشهد بكاه قلبي بحرقة ومرارة، وكتبت عنه في «الهدف»، وهرعت إلى «آني» زوجته، وانبجست عني أكثر عواطفي نبلاً. سيظل غسان في وجداني، ذلك الصديق الذي اشتركت معه بأكثر من عمل، بعاطفة فائضة، وبإعجاب كبير.

كل هذه المواقف المدوّنة احترقت مع بيتي في حرب السنتين.

لم تكفني الكتابة.

أصبحت فلسطين هاجسي. شعرت أني شاهد على مذلة لا تقبلها الانسانية، ولا المنطق، ولا الكرامة الوطنية. ظلت

الفكـرة تلـحّ عـلي وتلـح، لا بـد أن أصـل إليهم، أولئـك الفـدائيين. وبعـد أن كانت الـوحدة الطـريق إلى فلسطـين، أصبح الكفاح المسلح هو الطـريق إلى الوحـدة. وجلست في عمان أتفرج على فيلم وثائقي عن القـدس في وزارة الاعلام، وانا أنتظر وصول شخص من «فتح» ليقابلني.

نقرتان على الباب الخلفي لذلك المكتب، ودخل اثنان. الدموع لم تكن قد يبست على وجهي تأثراً من الفيلم. عاطفتي صرخت من أعماقي، وانتشرت على محياي تتوسل إليهما. أما وجهاهما، هما الشابان اللذان قدمـا لمقابلتي بسريـة مطلقة، فقـد بقيا مغلقي السحنة، لا يعبران، لا يتكلمان.

بعـد يومـين كنت في قاعـدة «لفتح» قـرب الشجرة الشهـيرة في أحراش «السلط»، أجلس على الأرض، و «الختيار» مقابلي، يقدم لي قطعة بندورة وصلت لتوها من الأرض المحتلة. تناولت الغداء معهم، مجموعة من الفدائيين بملابسهم المموهـة. كان الطعـام عبـارة عن عدس في صحن من التنـك. وتجـرأ أحـدهم، وطلب قطعة من الحامض، فصاح به الختيار: «ألا تخجل!».

وعدت في اليوم التالي، إلى الخيمة، أتفيـأ بظل الشجـرة. وهناك بدأت أتحوّل من حيث لا أدري. لقد بدأت الرحلة في المخيمات، وفيها لمست الألم الذي انبـرى جارحـاً لعله يغطي الـذل الذي أحاط النازحين. وأحسست منذ تلك التجربـة، بنفس الانكسار، وبنفس الرفض. وبعد أن عدت إلى عمان للمرة الثانيـة، وبينما أنـا أنتظـر وصـول مـوفـد من «فتـح»، رجعت إلى المخيمـات، لأزورهـا، لأتكلم مع أولئـك النـاس الـذين أحببتهم بقـوميتي، وبإنسانيتي.

مـاذا ظننت أني سوف أجـد؟ الانتظار المؤقت؟ عـودة الأرض؟ سماح العدو بـرجوع الـلاجئين؟ لقـد أصبحت المخيمات قـرى فيها شوارع ودكاكين، وأبنية هزيلة من التنك. بدت عالماً قائماً،

وكأنه حالة أبدية، سنة أخرى من الوجود المؤقت تحت صفائح التنك!

هزّني الواقع. للمرة الثانية أهتزّ. ما العمل؟ لا مفر من الثـورة. لكن هذا الفدائي الذي رافقني، لم يتبادل معي أي حـديث، لم يـرحب بي، لم يسألني، لم يؤانسني، لم يخبـرني إلى أين هـو يذهب بي. بل انه، عندمـا وقفت السيارة، نـزلت منها لأنـه هو نزل، وطلب أن يفتش حقيبتي!

وهل كان باستطاعتي آنذاك أن أشرح له أي حب عظيم أودعته في حقيبة يدي؟ فسكتُ. كان السكوت الباب الوحيد الذي وقاني من احراج تلا احراجاً آخر.

حملقـوا فيّ بدهشـة. إنها تجـربتهم الأولى، مثلما هي تجـربتي الأولى، فهل هي عندي مجرد مغامرة؟ ربما كانوا هكـذا يظنون في بداية الأمر. امرأة عربية تحيا معهم، لتكتب عنهم، هم الذين يكسرون آلات المصورين الذين يقتحمون سرهم؟!

كنت أسترق النظر إلى سلاحهم. هذا اسمه «الكلاشن». هل يقف هـذا أمام الـدبابـة؟ أجل، هي وحـزام ناسف، وجسم فدائي يفجّر نفسه، فيعيق تقدم أرتال الدبـابات. تلـك كانت سر معركة «الكرامة» التي باتت منسية. مضى النهار، وكلانا مندهش بالآخر. أنا ولهى، لأني فتنت بـذلك الكـاكي المرقط الـذي يحـرك الهـزيمـة كل ليلـة، يطفئهـا، وينتقـل عبـر «الشريعـة»، تلك المسـافة الأقصر بـين ضفتي نهـر الأردن، ليفجـر هنا، وهنـا، وهنا. ولم يعـد يستطيع العـدو أن يؤكد للعـالم انتصاره. لقـد ثار الفلسطيني! لقـد تحمّل، وسكت، وصبر.. ثم ثار!

تحلق طائرات العدو ثم تضرب، يزرعون الألغام، يقيمون سـاتـراً مكهرباً، لا تنفع كل هذه المعوقـات، يستمر الفـدائي بالتسلـل، وهـو يعرف أن كـل بيت في أرضه المحتلـة تفتـح لـه الأبـواب

والنوافذ، وتحفر له الجحور، وتدله على المغاور والكهوف.

قضيت بعد ظهر اليوم الأول أتجوّل معهم في أحراش «السلط»، لأتعـرّف عليهم، وأعتاد عـلى أجوائهم، أنـادي كل واحـد منهم «بـأخ». انتصف النهار وشعـرت بحاجـة إلى الحمام. فـأخذت أسترق النظر إلى أيديهم، أيهم يحمل محبس زواج، لأسأله عن الحمام. كدت أطق، فلم أعد أحتمل. أصبح همي الأول الحمام. الحمام. لماذا لم أفكر بهذه التفاصيل؟ وجـدت واحداً متـزوجاً، فأشار عليّ قائلاً «الحرش أمامك!» ولكن هذه الحاجـة راودتني ليـلاً، فما كـان من أحدهم، هـو الأخ سلمـان، إلّا أن نظـر إليّ بتحدٍّ محبّب، وسألني: «هـل تريـدين أن تأخـذي «دوش»؟» لم أملك نفسي، فضحكت، والغيظ يأكلني، هـو يريـد أن يحرجني، فهو في أعماقه يتساءل يا ترى إلى أي حد سيكون بـاستطاعتي أن أتأقلم؟ ونادى بأعلى صوته: «حَرَسْ، ابريق ماء للأخت!».

وهكذا انتشر الخبر في القاعدة. فضحني سامحه الله.

وهبط الليل علينا، كأنه يغطينا. فحركتنا نهاراً محسوبة وحذرة. أما الليل فهو حريتنا! وعلى حين غرة، سمعت حركة غير عادية، توتر الجو، فإذا «بالختيار» يصل، وقفنا كلنـا. نظر إليّ وابتسم ابتسـامة حملت في ثنـاياهـا الرضـا المجبول بـالتحدّي وقـال: «غريب عليك هذا الجو، سوف تتعودين، ولكن ألست بـردانة؟» لعلـه أحس بالـرعشة التي شعـرت بها بـرداً وانفعالاً بكـل ما يجـري حولي. وأحضروا لي «قلتـاً»، أي الجـاكيت العسكـريـة المبطنة، ومعها الكوفية التي يسمـونها «حطـة»، قبّلتها ولففتهـا حول رأسي. فقال «الختيـار»: «أنت الآن واحدة منـا». وأجبته: «ليس اللبـاس الذي يجعلني منكم، أنتم..» وسكتُّ، فـأكمـل لي جملتي: «أنت تستحقين الحطة! ظـلي على مقـربة مني، سـوف نلف عـلى القواعـد، وإذا شعرت أنـك سـوف تقعـين، أمسكي بذراعي».

يا إلهي. يا ربي. يـا لوعتي. يـا حسرتي. كم من اللحظات، وكم من المـواقف، وكم من الأحـزان، وكم من الأخطـار، أمسكـت ساعده خلالها، فلم أقع!

وصلنا الخيمة التي ينام فيها، دخلناها في الظلمـة، وقلبي يدق، يصرخ، يصيـح. أنا و «الختيـار». لماذا احتلني الخفـر هكـذا، وتدحرجت كل مشاعري، وكتمت أنفاسها، فالموقف أهم وأعظم. الدنيا تفتش عليه، وهو يجلس على الأرض ببساطـة دون حرس بـارز، متربـع على الأرض في خيمـة مليئة بـالذخـيرة والسلاح والمؤن المتواضعة، تفوح برائحة السلاح. خيمة تغطي الخرائط جنباتها. تحدثنا عن أشياء عادية، ثم قال لي: «سوف أنام عـلى باب الخيمة، لا تقلقي، وإذا تضايقت. ايقظيني».

انحبست أنفاسي. ونمت نوماً متقطعاً، أفكـر بكل مـا شاهـدته، أكتب عن مواقف خاصة، وأسجل عبارات لافتة. لا أعرف كيف مضى الليـل، ثم تحوّل إلى فجـر. لا بد وأن صقلني الليـل بمـا تعرّضت له خلال النهار، وبـدأ يحول مفـاهيمي بتجربـة اليوم الأول، والتصقت أصغـر المـواقف بـوجـداني، والتهب كيـاني حماسة. فكرت بأمين وبرمزي، كانا يبدوان بعيدين، بعيدين، في دنيـا أخرى مختلفـة. شعرت أني مصـابـة بحمى غـريبـة من حياتي.

وأخذ الليل يتكلم، كل ليلة تلي ليلة، وتبـدل مجرى حيـاتي. هي الليلة الأولى، هي النظرة الأولى، الانطباع الأول، الولـه واللحمـة. الحطة لا تجلس في المقـاهي، الحطة تـرقـد عـلى الأرض، تستمع إلى دقاتها، تناديها. والانفجار يقع!

مـا كاد الفجـر يتفتـح حتى تـرامت إليّ أصـواتهم، نقيـة، طاهرة، تدعو إلى نضـال جديـد، هم «عصافـير الفجر»، أول رواية كتبتها عنهم. شرحت فيهـا كيف يتحوّل الـلاجىء إلى فدائي. وخطوات الرجال تتحرك حول الخيمة.

قمت من مكـاني، لبست حـذائي، ثم فتحت الخيمـة. ربي إنـه هنا، يرقد هنا، مغطى بالبطانيـة التي نام عليهـا. لم تكن لديهم بطانيات كافية. قفزت برشاقة فوقه لئلا أوقظه وجلست وحـدي أرتعش من البرد. ناداني أحـدهم، وهمس لي أن أغسل وجهي. ففعلت. عشرات التفاصيل الصغيرة تتراكم، ومعهـا أتأقلم، وهم يتعـودون عـلى المـرأة، الـلامـرأة. ورآني آخـر، أهمّ بـإشعـال سيجارة، فتقدم مني وقال لي إشربي الشاي أولاً.

لم أنتبـه أن «الختيار» قـد قام وتـوضـأ، ثم وقف عـلى الربـوة العـالية التي تطـل على أضـواء الأرض المحتلـة أمـامـه. وقف كالجبابـرة، ووقف وقفة الانسـان المتواضـع أمام ربـه، ووضع بندقيته على الأرض بجانبه، وراح يصلي.

تربعت على الأرض، وما استطاعت عينـاي أن تفارق قـامته وهو يصلي. وجـدت نفسي قد ارتبطت بـه بطريقـة ما، رميت عليه سحابـة سلام حنـون، هي الاخوة الأعظم من أي حب في الدنيا. فها أنا في حالة ولادة، أشهـد ولادتي أنا، في ذاك الفجـر البعيد يشـع بجذوة مـاثلـة في فؤادي، فهي وطنيـة ورثتها عن والدي، وشجاعة حدثتني عنها أمي وأقربائي.

ولـدت من جـديـد. هـذا الارتبـاط المـليء بـالسر والسحـر والجـاذبية، هنـاك بين الأغصـان والسلاح واللـون الكاكي. أليس هكذا يولد القائد؟ ومعه أنهيت صـلات الماضي، كلهـا تبدو اليوم عقيمة، بالية. واليوم تهل الفرحـة، الفرحـة تهل من وجهه، وعيناي تشـدوان أنشودتهـا، وخيّل إليّ أنـه ظل يحكي لي طيلة الليل عن مأساة شعبه.

أليس هو رمز الثورة! الذي سيثأر لصابي النابالم؟ وتلـك المرأة الشـابة الجميلـة في مخيم الصحراء والعـراء، لـون حـاجبيهـا طحيني من رمـال الصحراء، هي التي تنـاولت وسادتـين عنـد هربهما، بدلاً من طفليها، فجحظت عيناها بنظرة غائمة ضائعة. والمرأة الأخرى التي عبرت جسر اللنبي وهي تحمل زوجهـا على

ظهرها، وقد تشققت قدماه، والدم مجمّد حول الشقوق. والرجلان اللذان بديا سوداوي الجلد ملفوفين بحصيرة مرمية عند جسر اللنبي.

أهداني «الختيار» «حطتي» قبل عودتي إلى بيروت. واستفقت ثاني يوم في الفندق، والجدران بيضاء، تقتحم النهار، أتلفت حولي، عيناي هناك، قلبي هناك عندهم ومعهم، روحي تقفز حائرة، أين، أين أنا؟ في أي زمن أنا؟ هل ما شاهدته حقيقي أم سراب، أم حلم ولد من سبات الكلمة، وعار الصمت؟ خضرة الأرض، وخضرة النهر، وخضرة الكاكي، هي رحم أولدني واحدة أخرى، هي أنا وفوق أنا، خطوة متقدمة على الأنا.

أتنفسهم، أعيشهم، أكتبهم. هم القرار النابع من دنيا جديدة، بزغت من ظلمة، من يأس، من انحلال. جلست إلى الطاولة الصغيرة في غرفة الفندق أكتب لهم رسالة.

من يعلم ماذا كتبت منذ حوالى ربع قرن؟ حكوا لي، فيما بعد، نادى الختيار الرفاق، وقرأ عليهم رسالتي. كان نعاسي ما زال دافئاً بين الأسطر، لكنه كان دافئاً بمشاعر انطلقت على سجيتها، فأفرحتهم، وأفرحتني في زمن نام فيه البشر، وعلى عيونهم غمامة.

أما ذاك الذي أوصلني إلى المطار، إنه هو الذي فتش حقيبة يدي. أصرّ أن يحمل حقيبة ثيابي عني، وتجادلنا طويلاً من يحملها ومن لا يحملها. هو.. هو نفسه الذي سألته مرة: ما هو لون النهر؟ وكنت أقصد نهر الأردن. فأجابني بتحدٍّ: كاكي!

تبدّل الكاكي من لون الهزيمة، بعد أن لبسته الثورة، وأصبح لون العيون والنهر والحقول، والأحراج والبيوت والسلاح.

تألقت الثورة، وأخذت دنيا العرب في أنفاسها. وبعد أن كنت دهشة بين قواعد الفدائيين، باتوا ينتظرون زيارتي بحماسة

ولهفة، يعرفوني من صوتي، من صيحتي بالرغم من التعليمات بالسكون في صمت الليل.

لم يكن من السهل أبداً أن أكتب رواية عن الفدائيين، وأتخطى تفاصيل كثيرة كانت حينذاك في طي الكتمان والسرية. ظلوا يسألوني في بيروت إذا قابلت القائد. فكنت أنفي ذلك.

وصدرت «عصافير الفجر»، وريعها مقدم «لفتح»، وعندما عدت إلى قواعد الفدائيين مرة أخرى، وجدت روايتي هذه مخبأة بين ممتلكات الفدائيين الهزيلة.

جبت عوالمهم كلها، فدخلت المغارات المحفورة في الصخر، وبيوتاً مصنوعة من اللبن، وفي ملاجىء تحت الأرض. ركبت سيارات «جيب» تسير في «الأغوار» أي وادي الأردن، بدون ضوء، يسوقها فدائي أسموه «البطل»، واقتربت، اقتربت من «الشريعة»، وارتفعت، ارتفعت عالياً، فاستطعت أن أمايز تعرجات نهر الأردن، ومن تعرجاته اخترت اسم روايتي الثانية عن الفدائيين «خط الأفعى».

انتقلت كلياً من خلال تجربتي التي أسفرت عن هاتين الروايتين من واقع إلى آخر. وكأن شهادتي الأولى، بين نازحي السابعة والستين، عمّدت نفسي العربية المسؤولة عن نقل مسيرة الشعب الفلسطيني على العطاء.

المصيبة في الدنيا، هي أن واقع الفدائيين كان حلماً، فلم يصدق الذين قرأوا الرواية، أن الأحداث والأشخاص وحياة الفدائي، هي فعلاً هكذا. هم واقع أقرب مَثَل عايشته بين المبدأ والتنفيذ. كان الانضباط وقتها حقيقة ساطعة، والفكرة يقابلها فعل ثوري يدور في قلب فلسطين المحتلة.

وأصبحت هوية كل عربي آنذاك، هوية فلسطينية. ألم يتحوّل

النضال كله خلف خطوات الفدائي، لحماية الفدائي الذي يفجّر في الأرض المحتلة؟

واليـوم، في أسرار الليل تضيء في وجـداني أحيـانـاً، حسرة! تتلـوى بالألم. ويشـع في كياني انبهـار بشيء لم يعد ملكي. راح، التهمه المستحيل. والتاريخ لا يعيـد نفسه. المـاضي لا يتكـرر. هم الفدائيـون، وهبوني سرهم، حبهم، ثقتهم، وأنـا وجدتهم أبطالاً، وأضـاءوا لي وهجاً يلبس الكـاكي في عكس اتجاه بقية البشر، وعلى رؤوسهم «حطة» مـا زالت عندي، لا يبهت لونها. وابتسامة بعيدة غارقة في أحراش «الأغوار».

١٢

اللون المنطوي

اندلع القتال في الأردن بين الفدائيين والجيش، في أيلول السبعين. أقرأ الصحف في بيروت، يقفز قلبي إلى هناك. نسيت اسم الفندق الذي كنت أنزل فيه على جبل اللويبدة. ذات صباح استفقت، وقرأت. لم يعجبني ما طالعت. هرعت إلى اعلام «فتح» في بيروت. اكتشفت كم بعيدة بيروت عن عمان! عدت إلى البيت. أمين في طرابلس. جلست في غرفة المكتب، واستلقى ابني رمزي، رأسه على حضني، وساقاه على المقعد الأسود. واستمعنا معاً إلى موسيقى الدكتور «جيفاجو». انتهت الموسيقى، وصرخت: «يجب أن أذهب إلى الأردن». فقام رمزي مستهولاً كلامي. «القتال دائر هناك، ما الذي يجعلك تسافرين؟» «الاعلام لا ينصفهم». فيقول: «إذهبي إذن». يجب أن أقابل الختيار. عاد أمين، وشرحت له الوضع. وافق، ورافقني إلى المطار صباح اليوم التالي. ركبت أول «تكسي» لعنده. هو نفسه الفدائي الذي فتّش حقيبتي. هو نفسه الشاهد على دموع الفراق، ودموع تأثري بالقدس. هو نفسه سمع أول طلب لي أن أحيا مع الفدائيين.

وصلت بسيارة أجرة، وفي يدي كيس يحتوي «بنطلوني» الكاكي وفرشاة أسناني. شعري لا يهم. إنه ما زال قصيراً جداً. قلت له أدر وجهك. خلعت ردائي، ولبست الكاكي. هو يلبس الكاكي،

وأنا أيضاً. ولون عينيه كاكي. وأفضى لي بأنه كان جالساً يراقب الشارع، وينتظر وصولي من لحظة إلى لحظة. وأفلتت الفرحة من الانضباط عندما قال لي بلهجة الأمر الواقع، «تنامي عندنا في البيت». ثم أخبرني أن «الختيار» يعقد الآن مؤتمراً صحافياً. يجب أن أنقل إليه صورة بيروت. ركبنا سيارته وانطلقنا. وصلنا، وضحك الفدائي. إنهم يفتشون كيس الورق. نظرت إليه، وابتسمت، ثم أشرق وجهي!

كان «الختيار» قد أنهى المؤتمر الصحفي، وبينما هو يخرج من القاعة، وحشود الناس ملتفة حوله، لمحني من بعيد وصاح باسمي «الأخت ليلى». بدا سعيداً بوجودي معهم. العشرات يلاحقونه بالأسئلة، والصور، وهو يتوجه نحوي، وأنا أشق طريقي إليه. وبعد أن استطعت أن أرفع يدي فوق الأيدي المحيطة به، صافحته، فسألني على التو: «أين تنامين الليلة؟ إياك أن تنزلي في فندق!» قلت «كلا أنا في بيت». وسألني بإلحاح «بيت من؟» فقلت «فلان». بعدها استراح. «أريد أن أكلمك بأمر مهم». قال فلان «يوصلك بي. إني أتنقل».

التفت إلى الأخ «فلان». هو تقريباً «أبو الليل» في روايتي «خط الأفعى»، أو «أبو الليل» مستوحى منه. المهم، تخاطفتني جماعة اعلام «فتح»، وهرعت معهم إلى «الباركسات»، وهي عبارة عن قاعات استحدثوها من مرائب مسقوفة، وداخلها طاولات وكراسي، وآلات الكتابة والطباعة، والصور، والسلاح، والذخائر، ورائحة السلاح. توقفت لحظة، «ما بك يا أخت ليلى». «أشتم أشتم رائحة القواعد البعيدة هناك في الأغوار!» «صَح، الفدائيون باتوا معظمهم في المدينة، يدافعون عن الثورة»!

صاحوا بي: «تعالي، شاهدي ماذا فعلنا. أنت لا يهمك إلّا فدائيو الأغوار. ونحن؟ ألا تعديننا من الفدائيين؟» «يا ناس «ماذا تفعلون؟» «تصدرون جريدة في خضم القتال!» «شاهدي،

شاهدي، ها هو العدد الأول من جريدة «فتح»». ويقول آخر «هل تصدقين! لقد بعنا آخر عدد من «فتح» عصر الأمس بخمسة دنانير، بينما سعره الرسمي قرش واحد؟!».

لم يسألني أي واحد منهم لماذا جئت، وكيف وصلت. يعتبرون مكاني الطبيعي معهم، أينما كانوا. تجوّلت معهم على المواقع، وعلى المستشفيات، وأخذت لي صور مع الأطفال المصابين. ومررت على الجرحى. درت في أنحاء عمان، أسمع القذائف، وكأن الأمر لا يعنيني، بينما هو الأمر الذي أتيت من أجله. كانت عمان مليئة بمواقع «للعاصفة/ فتح». أتطلع وأسجل، أسمع وأسجل، أجلس وحدي وأسجل، وكيس ثيابي معي. لا أحد يسألني إذا تعبت، أو أصابني الجوع. عدنا مساء إلى «الباركسات»، فجلست منهكة القوى، ولم أعد أخجل. كنت في بيتي، في ثورتي، وصحت بهم «أنا جائعة»! «هل تأكلين فول». طبعاً «أكل فول»، تذكروني بجوع المدرسة الداخلية، لم يكن يسده إلا «سندويش» من الفول.

جرجرت نفسي نحو سيارة تتجه إلى جبل اللويبدة، كدت أنزل على باب الفندق، ثم تذكرت بفرح، أني سأنام في بيت فلان. ارتميت على أول مقعد، وقلت لوالدته آه لو تعرفين كم أنا مشتاقة إليكم؟! هذه الأم المناضلة التي كانت تقوم بالاعتصامات في القدس احتجاجاً على الاحتلال، فطردها العدو إلى الأردن. احتضنتني قائلة: حماك الله يا ابنتي. قلت لها يا أم زياد، أتوسّل إليك، أتوق إلى فنجان من القهوة. وهتفت: ولكن هل أكلت، ألا تريدين أن تستحمي؟

أرجوك، أرجوك فنجان القهوة قبل كل شيء.

وبينما أنا أرشف القهوة، سمعت صوتها في الحمام تنظفه، وتسخن لي المياه. ركضت إليها، وكدنا نقع على بلاط الحمام.

فأسكتتني بنبرة من شخصيتها القوية قائلة: أنت تعملين منذ الصباح من أجل نفسك أم من أجلنا؟ وقلت لها وقلبي ينفطر تأثراً: «يا ستي الغالية، ألسنا معاً في الثورة؟ إذن أنا أسخن الحمام!» لكنها رفضت. «عودي إلى فنجان القهوة». «آه، تريدين سيجارة؟» هاك علبة هناك على المنضدة. سوف تنامين معي، في غرفتي».

انتعشت بالحمام الساخن، ثم ارتخت أعصابي، لكني كنت قلقة. قلت لها، فهي الأم، اسأليه قبل أن يغفو، هل اتصل بالختيار. ولكن يا بنيتي يجب أن تنامي. وغداً تكملين. كلا. كلا. الأشياء هذه لا تنتظر. جلست على السرير، ريثما راحت إليه، ثم عادت تضحك. لهفتي صاحت: «ماذا قال؟ ماذا؟ ماذا؟» قال لي: «أن أعلمك الصبر»!

دق «التلفون» عشرات المرات. وأقفز من رقدتي كل مرة، وترفع هي رأسها. أشعل سيجارة، فتقول بعد حين: «يا ابنتي اعطيني واحدة. إن الذي يعيش معكم، يختل عقله!» ضحكت. ضحكت. أخيراً سمعت صوته ينادي: «يامّا»!

لبست بنطلوني «المتّسخ»، استعرت منديلاً من أم زياد، ولففت به شعري المبلل، وانتظرت السيارة. «جيب» صغيرة وقفت على الباب، هببت من مكاني، لم أودع أحداً، لم آخذ مفتاح البيت، ركضت كمن مسها جنون.

وكانوا هناك. كلهم. القادة. والفدائيون، وغيرهم، وغيرهم، وغيوم الدخان، وغرفة داخل غرفة، داخل غرفة. أين أبو عمار؟ تحول مزاجه عندما رآني، وسألني: ما الذي يوقظك في مثل هذا الوقت؟ أجبته الثورة. لا بد من أن أنقل صورة عن حقيقة الوضع إلى بيروت. صحافة بيروت.

وفي اليوم التالي هرعت إلى مكتب الفدائي الذي قضيت الليلة

بضيافته. أدار وجهه مرة أخرى، فلبست ثوبي، ووضعت «البنطلون» في كيس الورق. أصرّوا عليّ أن أبقى، لكن أبو جهاد، قال لهم دعوها «تتسهل». لديها مهمة.

في بيروت من جديد.

اعتلّت صحتي فجأة في تلك الفترة، وأصابني ألم غير مفهوم في ظهري. نصحني أحد الأطباء أن أستلقي شهراً على ظهري. احترت بأمري، ماذا أفعل بالوقت المهدور. كنت أتابع ما يحدث في الأردن، وينتابني القلق والحزن. ثم ما لبثت أن بدأت أكتب. سجلت ذلك العشق النادر نحو الفدائيين في قالب روائي، سال قلمي بانفعالاتي، بتجربتي، بالتفاصيل الدقيقة، والمواقف العظيمة، كنت قد اختزنتها كلها في ذهني، في حب خارق نادر، بسط نفسه على الورق. وما كدت أنهي رواية «خط الأفعى»، حتى اكتشفت أني مصابة بورم خبيث في الرحم!

أنا لم أكتب بعد عن صديقي ياسر هواري.

عرفته عندما كان رئيس تحرير «الشبكة»، وكان يرعاني آنذاك كالأخ الحريص. ولا أدري لماذا كنت هدفاً للأخبار الملفقة، ربما لأن مجتمعنا، رغم كل «الحداثة» و«العصرية» فيه، لا يتقبل شابة تأكل «سندويشاً» في الشارع، وتسهر ليلاً مع شلة مناضلين سابقين، وتشرب الكوكاكولا، وليس الويسكي كما كان يشاع. وكنت ألجأ إلى ياسر ليكفّ عنق ألسنة السوء، فغمرني بعاطفته، ونشأت بيننا اخوة أحفظها له حتى اليوم، فهو الذي علمني كتابة الصحافة، ورافقني في تجارب حياتي عندما كنت أشعر بحاجة إلى النصح والحماية.

وانتقل ياسر من «الشبكة» إلى صحف أخرى، إلى أن صار رئيس تحرير مجلة «الأسبوع العربي» وهي في أوجها. نشرت فيها كثيراً من قصصي القصيرة، وإحداها الغرائبية إياها التي

أسميتها «المستنقع»، وترجمت آنذاك إلى الفرنسيــة، ونشرت في توأم الأسبوع العربي «ماجازين».

وبعد أن اكتشف طبيبي الدكتور سمير الخالدي، علة الورم كان أمين قد أعطى روايتي لياسر كي يقرأهـا. ويبدو أني قـد وفقت فيهـا إذ أصرّ يـاسر أن ينشرهـا لي مسلسلـة في «الأسبـوع العـربي». ولا أعتقد أن الأمـر هذا قـد حدث هكـذا صـدفـة. خامرني الشك أن ياسر وأمين اتفقا عـلى اقناعي بنشر الـرواية مسلسلة، لأنهما توقعا لي تجربة صعبـة مع دائي الخبيث، وأن نشرها سيجعلني أشعر أني ما زلت فاعلة، فترتفع معنوياتي.

أنا لم أشعر بالخوف من الموت. ثقتي بطبيبي كانت مطلقة، لكن الفترة الطويلـة التي مرت عـليّ من بعد «الـزرع» إلى أن يحين الوقت للاستئصـال، هي التي كانت تستـوجب الشجاعـة. فقد مرت ثلاثة أسابيع وأنا أحيـا مع المـرض. وكنت أراقب تدهـور حيـلي، وشحوب وجهي. سـادني الوجـوم والانقباض. لكني لم أخف. أصابتني الحيرة كيف يتفتت الانسان بمرض لا يراه. لم أخبر أحداً، ورحت إلى شتورا كما كانت عادتنا كل صيف ومعي ابني. تركته في شتورا عندمـا حان مـوعد عمليتي، حيث انضم إلى برنامج صيفي مدرسي للأولاد أقيم في الفندق.

اليوم، وبعد سنوات طوال على هذا «الاعتراض» الذي طرأ على حياتي، وبالرغم من قصر الفترة التي قضيتها مع المرض، فإني أجدها تشابه الموت.

بدأت رواية «خط الأفعى» ترى النور مع انتهاء أيلـول، وشعرت أنهـا أتت في وقتها لتبلسم جـراحاً فتحتهـا المأسـاة، وأدماهـا خروج الفدائيين من الأردن.

بدأوا يتقاطـرون إلى لبنان، وزرت عـدداً منهم في دمشق، وكنت أسـأل عن أحـدهم، هـو زيـدان الـذي علمني كيف أستعمـل

السلاح، فقيل لي إنـه داس على لغم وبتـر ساقـه. فتشت عليه، وسألت عنه، كنت بشوق لأراه، ومتلهفة إلى مساعدته في محنته. إنه شاب عنيد من «الخليل»، قـال لي أول ما التقيت بـه: «أريد أن أصـل فلسطين. وبعـدها لا يهم إذا عشت أو استشهـدت. المهم هـو أن أصل. ربمـا أبلع «بنـزين»، ربما أمـوت، لا يهم. الأهم أن أصل فلسطين».

أولاد «الخليـل» متكاتفـون مع بعضـهم، معـروف عنهم العنـاد والشجاعة والوطنية والوفاء. وكـان لقائي بـزيدان مؤثـراً جداً، فقد حمله صديق له من السيارة إلى الكرسي، وما ان رأيته حتى هبت حواسي كلها. أهذا هو الفدائي الطويل، الذي كان يرفعني فوق أسوار بيـوت اللبن لكي أرى «ضواو الجـدس». كما يلفظ هو أضواء القدس؟

تسالمنا بحرارة، وبعد تبـادل التحيات التقليـدية، إذ كـان لا بد منها مع خليلي محافظ. اقتربت منه بكرسيّ، وأخبرتـه أني كنت قد تعرفت على فدائي فقد ساقه، فركب لهـا طرفـاً اصطناعيـاً. واقترحت عليه أن يفعل مثله. رجوته، وتوسلت إليه: «أنت تعال لعندي في بيروت، ولا يهمك الباقي».

احتاجت المسألة إلى الكثير من اللقاءات، والأخذ والـرد، إلى أن جاء اليوم الذي وافاني به الأخ زيدان إلى بيروت. وكنت اتفقت مـع الطبيب، وشرحت له نفسيـة زيدان ووضعـه، واتخذت كـل الترتيبات، ودخل زيدان مستشفى الجـامعة عـلى كرسي نقّـال، وصعدنا به إلى الطبيب، ودخل زيـدان وتم التعارف بينـه وبين الطبيب، ثم خرجت أنا ورفاقه، ننتظر النتيجة.

كنت أريـد أن أطمئن أولاً إذا كانت سـاقه قـد بترت بطـريقـة يستطيع من بعدها أن يركب لـه طرف. ومن بعـدها، علينـا أن نقنـع زيدان. المهم هـو أن رفـاقـه كـانـوا معي في اقتـراحي، وجلسنا في غرفة الانتظار على أحر من الجمر.

فتح الطبيب الباب، وأشار عليّ بالدخول، فتبعني الاخوان. كان زيدان على سرير الفحص، والطبيب يبتسم بوجهه، يسأل: «ها.. ماذا تقول للأخت؟».

تراكضت دقات قلبي. خفت على زيدان من عناده ومن يأسه. ثم إنها مسؤولية. «رب ساعدني». نظر إليّ زيدان، وابتسم. وكأنه كان يحس بقلقي، وكنت واثقة أنه يعرف خوفي عليه وحرصي. لقد فاجأنا جميعاً عندما ضحك شبه ساخر، وسألني: «أنت تريدين العودة إلى «الشونة»، إليس كذلك؟» و «الشونة» هي أقرب منطقة في غور الأردن إلى النهر من العدو. وأنا تعرفت على زيدان في ذلك المكان. وأجبته بصوت يتعالى على ألم فراق «الشونة»، وعلى انتهاء أبهى مرحلة من مراحل الكفاح المسلح. وقلت له: «اسمع يا زيدان، حيث تكون أنت تكون الشونة».

صمت الجميع. شعروا بدقة الموقف، وأهمية الكلام النضالي الذي نتبادله هكذا، بعفوية، وبصدق. كانوا ينتظرون قرار زيدان. نظر زيدان إلى الطبيب، وقال له: اشرح لها، ولكن بالعربي. نظراً لحديث الطبيب معي بالانجليزية. وضحكنا، فتنفس الجميع، بعد أن توتر الجو بذكرياتنا القتالية.

شرح الطبيب كل خطوة من خطوات تركيب الطرف، وركّز على الصبر والمثابرة على التمرين بعد تركيب الطرف، وصحت أنا: «إذن، زيدان، يستطيع أن يركب طرفاً!» وأجاب الطبيب: «الأمر يتوقف على زيدان».

لم أعد أذكر كم عيناً انصبت على زيدان. لكنه تريّث، وطلب سيجارة. فأعطوه واحدة، ونظر إليّ، ثم التفت إلى الطبيب والممرضة ورفاقه قائلاً: «إذا كانت الأخت ليلى توافق، فأنا موافق».

صحت مظفرة: «زيدان، أنت بطل!».

لحظتها، لم تتحمل أعصاب أي منا مزيداً من الانفعال، وبكينا كلنا. كل واحد منا بكى. اقتربت من زيدان، وأمسكت يده مرددة: «أنت بطل».

تزوج زيدان بعد نجاح العملية، وأنجب أولاداً، وكان يسوق السيارة. عاش في بيروت، ودعاني إلى بيته، وزارني في بيتي.

اليوم لا أعرف أين زيدان. اليوم أعرف لماذا تفانيت من أجل هذا الشعب، طالما فيه مناضلون مثل زيدان.

أنا دافعت، وكتبت، واستمت في سبيل نماذج مثل زيدان، مثل عبد المحسن في الزعتر، مثل جورج عسل في الجبل، مثل بلال ونور، مثل نادر وأبو منصور، وغيرهم وغيرهم، هل أكمل تعداد أسمائهم؟! إنهم مئات، عرفتهم في المخيمات، وشاركتهم حياتهم في القواعد العسكرية.

أليس من سخريات القدر أن يلتقي أمين الحافظ بأبي عمار لأول مرة، في جنازة المرحوم جمال عبد الناصر؟

ومن منا لم يبك بحرقة؟ من بعده، وجدنا أنه ليس لدينا مرجع مثله، نلجأ إليه، نحتكم عنده، ما دمنا لم نعد نختلف عليه.

١٣

اللون الزئبقي

سقطت رئاسة الوزارة على رأسي، بينما أنا أسير في الجنــازة الكبــرى التي انطلقت في شــوارع بــيروت، حزنــاً واحتجاجــاً على مقتــل ثــلاثــة من قــادة الثــورة الفلسطينيــة. وقعت عــلى الأرض، ولــولا «أبــو أمجــد» الــذي انتشلني بسرعــة من بــين الأقــدام، لــداس المتظــاهــرون عــليّ، وحطموني دون أن يحسوا!

وكنتَ قد كتبت في ذلك الأسبوع بالذات مقالاً في مجلة «الأرض المحتلة» بإمضاء «خضرة». و «خضرة» هو اسم اختــاره لي أحد الكــوادر السياسيــة بعد أن تعــرفت عليه في قــواعــد الجنــوب اللبنــاني. أظن أنه كــان يقصد إطــرائي، فأنــا ابنــة الجنــوب الأخضر، تنتقل من قاعدة عسكرية إلى أخرى، بمنتهى البساطة والسهولة. ومــا ان بدأ ينــاديني هكذا، حتى استسغت الاسم، وطلبت من الفدائيين أن ينادوني به.

لقــد سئمت اسم «ليلى عســيران». لا سيمــا وأن أشيــاء كثــيرة راحت تعتمل في وجداني، فشعرت بحاجة إلى الانعتاق، والهرب من أغلال نفسي.

هــو أنا هكــذا، أحس كل فتــرة بحاجــة إلى التجدّد، وأفتش لنفسي عن انطلاقة شيقــة تتفجر فيّ، لتتــلافى تكرار الأشيــاء

حولي. فما أمقت الرتابة بجوار الثورة! إلّا مع الفدائيين المقاتلين. هؤلاء كانوا الطاقة الأنقى، هم عصب الثورة، وهم بمنأى عن صراعات القوى داخل الثورة، بين كوادرها وأقسامها التي لم تعد سراً على أحد، يتناولها بالحديث كل المهتمين بالثورة، سواء سلباً أو ايجاباً.

ومع «خضرة» أردت أن أحتمي بالسرية، في الوقت الذي تخاطفت القوى الوطنية اللبنانية الثورة الفلسطينية، وبدا كأن هناك سباقاً بين زعماء الأحزاب وأركان القوى الوطنية من ناحية، وبين الشخصيات التقليدية على جر الثورة إلى جانبهم. والثورة تشجع هذا الفريق وذاك، لكي تحمي نفسها بالدعم الأقصى لحرية تحركها. وقبل أن تسقط البلاد في فوضى السلاح، ويتفاقم التوتر بين النظام والثورة، قتل القادة الثلاثة في بيوتهم ليلاً. واستفاقت بيروت على الفوران المتأجج غضباً على السلطة غير القادرة على حماية السكان. وسارت على رأس الجنازة كل الرموز اللبنانية، من كمال جنبلاط إلى بيار الجميل زعيم حزب الكتائب، واستمرت منذ الصباح حتى المساء، تحمل الشعارات المعادية للدولة اللبنانية تحت أعين السلطة. تزعزع الكيان اللبناني، وبلغت نواقصه وتناقضاته ذروتها، وباتت على وشك الانفجار.

- وتبدلت حياة «خضرة»! فجأة دخلت البيت، وجدته مليئاً بالناس والمصورين والصحفيين، فدلفت إلى غرفتها، وبدلت «البنطلون» الكاكي، وارتدت ثوباً بسيطاً، بينما كان ابنها رمزي يخبر الصحفيين أن أكلة والده المفضلة هي «الكوسى بلبن»! التلفون يرن، والتهاني تتدفق، و «خضرة» حاضرة لا تعرف ماذا تفعل سوى أن تبتسم تلك الابتسامة الاصطناعية التي لا يحبها أمين.

ودخل رئيس الوزارة!

رئاسة الوزارة القصيرة المكثفة حتى الاختناق، هي قصة أمين!

لا يحق لي أن أنشر تفاصيلها ولا أسرارها كما فهمتها أنا. لقد اجتاز مرحلة خطيرة، وكادت حرب لبنان تبدأ منذ سنة ١٩٧٣. لعله أجلها بعقد اتفاقية «ملكارت» بين الدولة والثورة، وبطرح حقيقة الوضع على الناس في التلفزيون.

ما أسمح لنفسي أن أرويه هو كيف عدت إلى ارتداء البنطلون، عندما بدأ الجيش يطلق المدافع على مخيم «جسر الباشا» الواقع قرب بيتي، ومخيم «تل الزعتر» من الجانب الآخر. أجبروني على الجلوس في الملجأ، واهتزّ البيت من أركانه كلها، وانتظرت أنا ورمزي، والمساعدات والطباخ والمرافقون والسائق حتى تسكت أصوات المدافع. وبعدها سمعنا سائق جيراننا ينادينا ليخبرنا أن البيت قد أصيب.

هرعت إلى فوق، وبالفعل وجدت أن قذيفة دخلت الصالة من الشباك المقابل للحائط الذي علقت عليه لوحة صديقي رفيق شرف «الحصان» الأبجر. تناثر الزجاج على الأرض، وثقبت القذيفة الحائط بالقرب من اللوحة الغالية على قلبي. وظلت مائدة الطعام معدة بأجمل غطاء مائدة لاستقبال غسان تويني، الذي كان منتظراً على الغداء.

لم يترك التقليديون والتقدميون على السواء اشاعة إلّا وأطلقوها على أمين. قيلت أشياء كثيرة، نسيت معظمها اليوم، إلّا أن ما ظل محفوراً في ذهني في المقابل هو أن الشارع والناس والشخصيات أجمعوا على نظافة شخصية أمين الحافظ!

وكان الوصول إلى بيتنا في تلك الفترة شبه مستحيل، إلّا أن الأخبار ظلت تتواتر إليّ من مكاتب الثورة، ومن الأصدقاء. وظل أمين في القصر يعالج التقاتل الذي نشأ بين الثورة والسلطة.

جلسنا ذات مساء وحدنا في ملجأ البيت الذي تحوّل إلى مكتب، الزجاج المحطم متناثر على الأرض، ونحن نتسامر. رمزي

والطباخ والمساعدات والمرافقون والسائق وأنا. فجأة تـرامى إلينا صوت مسؤول المخيم، جاء ليطمئن عنا. وعندما وجدنا وحدنا هكذا، أرسل إلينا عناصر لتحرسنا.

تناقضات ليست مدروسة من واقع معين أراد عدم النجاح لأمين، وإلّا كيف يفسر وجود فلسطينيين يحرسون البيت في أكثر الأوقات حرجاً؟ كيف ظل يصلنا الخبز والطعام، واصلاح أسلاك الكهرباء؟! لم ينقطع عنا سيل الثورة، بالرغم من كل ما أشيع، وأنا رفضت أن أترك بيتي. لم يظل مسؤول لم يرجوني أن أترك البيت خوفاً عليّ من القذائف، إلّا أني رفضت. وقال رئيس الجمهورية لأمين: زوجتك ابنة أصل.

ما لبث القتال أن هدأ، واسترحنا قليلاً، وقررنا ذات ليلة أن نلبي دعوة الصديق سعيد فريحة في دارته الأنيقة في شتورا. واستقلينا السيارة رقم ثلاثة أنا ورمزي مع أمين لأول مرة.

كان السير كثيفاً، مساء ذلك الأحد. فالدنيا ربيع، والأزهار تشرئب بين الصخور، وتتدلى من النوافذ والشرفات.

كنت أفكّر بأمي. لقد فتحت لها كوة في ذاتي، انطلق منها شوقي إليها، فدعوتها مع خالتي لقضاء اليوم معي في البيت. انتحيت بهما زاوية من الغرفة، واحتضنتهما. أمي نظرت إليّ، وهالها منظري: «اذهبي، اسرعي، هاتي أي حلاق، وضعي بعض الحمرة على شفتيك! ما هذا المنظر؟».

«الشرائط الملونة يا أمي، هل تذكرينها؟» لقد لوثتها السياسة، دون أن أتلوث أنا ولا رمزي. ولا أمين. عاملوه كرئيس حكومة، فعاملهم كرئيس حكومة. وانتهى حلم «خضرة»، بعد المقال الأول والأخير، وأنا أتفرج من السيارة على مئات المواطنين عائدين بسياراتهم إلى بيروت من الجبال، بينما نحن صاعدون في طريقنا إلى شتورا.

وما أن شاهـدوا رقم السيارة، حتى انـدفع النـاس يقفزون من السيارات، والحافـلات، وتكاثـروا حولنـا من كل مكـان، ودبت فيهم حماسة عاطفية عفوية، وانطلقت أفئدتهم بكلمات صـادرة من الأعماق، يحثون أمين أن يتمسك بالكرسي، وأن لا يستقيل.

خرج إليهم أمين من السيارة، وعلا الهتاف الصارخ! الأطفـال أمسكوه من يده، والشبان عانقوه بذراعاتهم، الرجـال والنساء صـاحـوا بـه أن لا يستقيـل. لم يكن أحـد خلفهم، لم يتلقـوا إيعازاً، ولا رشوة، ولا جاءوا من منطقة واحـدة، ولا انتظموا في حزب معين. هم الشعب، الذي يعرف أن يلتقط الرائحة الكريهة في لعبة السياسة، الجهنمية.

كانت معركـة أمين صراعـاً بين جيـل وجيل، بـين أسلوب فكـر وآخر، بين الرغبة في ارساء أسس للدولة، وبين الانقضاض على المراكز لمصالح شخصية.

والشارع يصيح صيحته: «اتركوه يعمل، هذا رجل نظيف».

ولـو قـدر للشعب أن يختـار، لوضـع اصبع الاتهـام في المكان الحقيقي، بينما السياسة تغلفه بالمصالح المتنوعة ما بـين الدول والـرموز السيـاسية. وسمـع أمين أكثـر مما سمعت أنـا، فهم اللعبـة المواربـة التي التفت حـول لبنـان، واستغلت تجـاوزات المقـاومة، وحقـوق المسلمين المهضـومـة ومخـاوف المسيحيـين وانـدفع العـراك على أرض أمـين السياسيـة، ينشد كـل فريق مصلحته.

وأغلق أمـين باب المكتب عـلى نفسه، وانهمـك يكتب استقالتـه. تركناه وحـده فتـرة ساعـة، ثم قرأ لي مـا كتب، فبكيت. هو لم يهتـز. خبـأ الأوراق في جيبـه الـداخـلي، ثم تـوجـه إلى القصر الجمهوري. وهمست بأذنه: «كان الله معك». كان ينوي أن يقرأ استقالته للناس على التلفزيون.

سمعت ما كان عنـده للمرة الثـانية عـلى التلفزيـون في المطبخ. وعندما انتهى من الادلاء بـاستقالتـه، كرّت دمـوع أهل البيت. فقلت لنفسي، هـذا طبيعي، فقد كـان أمين بـلا شـك في مـوقف مؤثر. أما الذي حدث بعـد ذلك، فـإنه فـاق توقعـاتي، فلم أكن أنتظر ذلك أبداً.

لقد أغرقنا الناس بموجة من الانفجار العاطفي، لم أسمـع أنها رافقت استقالة أي رئيس وزارة من قبل. وامتلأ البيت بالزوار، ولم تتـوقف أجـراس التلفـونـات، وأهـالي المخيم الفلسطيني أحاطوا البيت يبدون تأثرهم.

ناداني ابني، أسرعت إليه. كـان يجلـس وحـده في غرفتـه التي كانت عالماً قائماً بذاته! صورة «لماوتسي تونغ»، وأخرى للمطـرب «جوني هاليداي»، وصور لسيـارة «اللومبـارجيني»، ومجموعـة هائلة من الطوابع النـادرة، وكتب متنوعـة، ومجلات مـوسيقية وغيرها، ثم مجموعة أسطواناته.

كنت أحب أن أجلس في غرفة رمـزي. أحس روحه وهي تتكـوّن وتتبدل من خلال ما يعلق على الجـدران. أما ذلـك المساء، فقـد بدا لي صغيراً على مواجهة السلبيات التي أحـاطت بنا. ذكّـرت رمزي أنه لم يعد طفلاً، وأنه تعوّد عـلى مواجهـة المصاعب، إلاّ أنه رجاني أن أعفيه من المدرسة في اليوم التالي.

تفهمته، وكان له ما أراد. أما أنا فقد تأثرت جداً لطلبه، فلا بـد وأنه سمع كلمة من هنا أو هناك جرحته أو أحرجته.

وأنـا بدأت أضيق ذرعـاً بـالضغط المنصب علينـا. اختنقت من الأضاليل والأكاذيب، ومصالـح السياسيـين الجشعة، والـوطن بقي وحيـداً في معجم الأصفياء. لمـاذا يتحـوّل الحـزبيـون عن مبـادئهم، ويرمـونها تحت المقـاعد في صـالـونـات السيـاسـة اللبنانية؟ فالسياسة ليست عاطفـة عفويـة من الشعب وحسب،

إنها تراكم مواقف تحصنه بـالوعي والمعـرفة. ولـو كان الشعب يملـك ميزانـاً خاصـاً بـه، لأفصـح عمـا يحس، وفضـح التهم المختلفة والحواجز المركبـة، لهذا السيـاسي أو ذاك. الشعب في بلد مثل لبنان يختزن ثم يثـور فهو قـادر على رفـع الانسان إلى البطولة، أو سحقه في الحضيض.

أمـين أراد أن يبني وطناً من بـين براثن تجـار الوطن، وتجـار المبادىء، وتجار الثـورة. و «طرابلس» مـدينة أمـين، وعاصمـة لبنان الثانية، أعطته استقبالاً محتشداً عاطفياً، ابتـدأ من بلدة القلمون حتى بيته في شـارع الميناء. عـاد السائق «بهيـج» من طرابلس إلى بيروت ليطلب ملابس «للرئيس». فقد ابتل عرقاً من توافد الناس عليه «ككبس الجبن» على حد تعبير «بهيج».

تنقلت ذاك المسـاء في أرجاء البيت الفـارغ، الهادىء. كنـا أنـا والطبـاخ السـوداني «الأسطـة». جلست معـه قـرب حـوض الياسمين، أشرب الشـاي السوداني الغـامق. لعله أشفق عـليّ، وحـدي هكذا، فسألني لماذا لا أخرج. قلت كلا، يا أسطة، أريد أن أجلس مع نفسي، وأن أسمع الموسيقى.

دخلت المكتب، وجلست عـلى الكـرسي الأسـود نصف الهـزاز، وأيقنت أني أعـاني من ضياع معقـد. أنا لست ليـلى عسيران. ولم أعد «خضرة». لقد حولتني الظروف إلى عقيلة دولة الـرئيس أمـين الحافظ. وعـاد الشريط بصوره الـلاهثـة، الملتهبـة. لقـد حاولوا أن يغطسوه في الوحل، لكنه خرج ناصع الجبين.

وأنا بت وحدي. وحـدي. خطر لي أن أذهب إلى أمي، لعلي أجـد لديها بقايا شرائطي الملونة، لكني كنت بمزاج سوداوي مكتئب، فلم أشأ أن أزعجها. جلست أفكر: يا ترى من أنا؟

اختـرق صوت رمـزي الهدوء والصمت، وهـو يصيح: «مـامـا!

ماما!» كدت أنسى، وكيف أنسى أن اسمي «ماما»؟!! «لماذا وحدك هكذا يا ماما؟».

رمزي أوصلني بالحياة، ودورتها المتواصلة دون توقف.

رمزي يريد تمثيل المسرحية التي ألفها وأخرجها على سطح البيت، هو وبعض رفاقه.

وبعد جدال طويل، ذكرني فيه أننا أخذنا منه «النادي» الذي كان يلتقي فيه مع أصدقائه، فحولناه نحن إلى مكتب مراجعات لأبيه. وظل رمزي بلا مكان للّعب. وثابر مع أصدقائه يتمرنون على «المسرحية»، رغم كل الظروف الصعبة. وأصرّ رمزي أن يقيمها على سطح البيت. وكان له ما أراد.

وجاءنا في اليوم المحدّد أصدقاؤنا من الممثلين والمسرحيين، ولا أدري كيف عرف الصحفيون فتوافدوا مع مصوريهم، وتحوّل السطح إلى مركز الاهتمام الأول. وأصرّ الجميع على أمين أن يحضر «مسرحية» ابنه، فصعد إلى السطح بالروب الياباني الذي يتمسك به، ووضع قرطاساً مصنوعاً من ورق الصحف على رأسه، اتقاء للشمس. ونشرت أخبار المسرحية في الصحف، ورسم بيار صادق كاريكاتوراً عن المناسبة في جريدة النهار.

رحنا ذات عطلة أسبوع بعد الاستقالة إلى شتورا. وخطر لنا أن نذهب إلى «زحلة الوادي». وكان يوم أحد، والمقاهي وقت الغذاء محتشدة بالناس. دخلنا أول مقهى كأي عائلة عادية: أمين، رمزي وأنا. ولا أدري ماذا حدث للناس! هبّ الوادي! وقفة واحدة عفوية متحمسة، والناس واقفون يصفقون تصفيقاً حاداً. لم يبق أحد، إلّا وجاء يسلّم على أمين. وضعت النساء عقود الياسمين حول عنقه، أهدوه الفل، والأزهار. دعوا له بالنجاح، قبّلوه، احتضنوه كلهم نساء، ورجالاً، وأطفالاً. طلبوا

أن يأخذوا صوراً معه. ووصلتنا القصائد، وانهمر علينا الدعاء الطيب.

لم يكن بإمكاننا أن نتناول الغداء، فقد وجدنا أنفسنا وسط تظاهرة عاطفية أخرى، انطلقت صادقة من جموع الناس المؤلفة من مشارب متنوعة، فوجئت بوجوده، فهبت تعبر له عما يجيش في قلبها.

انطلقنا بعد ذلك في العمل السياسي، في بيروت وفي طرابلس. ولقد كرمت طرابلس أمين مرة أخرى، يوم عاد هو ورفاق له من الحج. ولعلعت الزغاريد والرصاص ابتهاجاً، ابتداء من بلدة القلمون حتى بيتنا في أبي سمرا.

ما زلت أتذكر أننا في ذلك الصباح، طلبنا من الناس أن يهبطوا إلى الباحة أمام البيت، من شدة الزحمة في الداخل. خفنا على الأرض من ثقل أعداد الناس المتوافدة علينا.

وأنا عقيلة الرئيس، اختفيت بين الناس. يدي بيد ابني، وأحياناً يفلت مني، فأتمتع بحب الناس، بعطفهم، وبحماستهم. كانوا يتصرفون وكأن أمين الحافظ «قضية» يجب المحافظة عليها.

ما جهلته في ذروة الحماسة المحيطة بنا، ان الناس ما زالوا يتذكرون واحدة اسمها ليلى عسيران.

مرت سنتان على رئاسة الحكومة، على تجربة أمين، وكنا نستقبل المراجعين والأصدقاء بالمئات في بيروت وفي طرابلس، واندلعت الحرب، وأكملنا مسيرتنا، وعشنا تفاصيل الحرب، ولكن، لم يتصور أحد منا، أننا سوف نخسر أروع ما عندنا: بيتنا في حي «القلعة».

كان عذابنا لا يوصف، يوم وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة لا نملك من متاع سوى خمس حقائب! حملناها وسافرنا إلى الخارج. إلّا أن الأمان والسكينة لم يخففا من حزننا الكبير. وما ان

انتهى عــام رمزي الـدراسي حتى هرعنــا إلى بيروت نشمــر عن سواعدنا، ونبدأ من جديد.

.

كتبت في تلك الفترة رواية «قلعة الأسطـة» واكتشفت يومهــا أن الناس لم ينسوا بعد... ليلى عسيران كاتبة الأدب!

١٤

الأسود الثاني

أيقظوني في الصباح الباكر، يوم الأحد. أمك مريضة، أسرعي بطبيب. من عندنا لا سبيل لاستعمال التلفون.

شهر كانون الأول في بيروت بارد. شممت رائحة الصقيع فيه، وأنا أصعد السلالم إلى شقة أمي. المصعد معطل. لا كهرباء. دوي مدافع من بعيد.

كانت راقدة على السرير، مغمضة العينين. أمسكت يدها، وركعت على الأرض بجانبها. فتحت عينيها الزرقاوين نصف فتحة، وحولت العينين نحوي، ثم أغمضتهما، وأغمضتهما... إلى الأبد.

منذ لحظات كنت أنتظر الطبيب على قارعة الطريق، ورذاذ المطر يبلّل وجهي. وعرفت. وحدي أنها لن تعود إليّ.

وانفتح قبري، ودخلت فيه أمي.

لم أبك. كل الذين كانوا معي انصاعوا إلى غريزة البكاء. أنا جمدت دموعي، وأحسست بالاختناق، الناس حولي، باتوا وجوداً لا يمسني. أوكلت أحدهم ليقوم بالترتيبات المتعارف عليها، وهرعت إلى بيتي، وجلست في الصالة، ويداي على رأسي المنخفض.

الطفلة ذات الضفائر المربوطة دوماً بشريطة تناسب لون ثوبها شبت وكبرت. لم تعد «الأميرة» كما كانت تناديها أمها.

وبدأت أمي تدخلني، شعاعها هَلّ في أعماقي، رحت أقترب وأقترب. توافد المعزون، وأنا أتلاشى في حضنها. تضحك قائلة: «لقد أصبحت أطول مني، وما زلت تصرين أن تجلسي على حجري؟!».

النهر لم ينضب، العطاء فيّ، في كل مسام وعضلة ودم وعقل، وذوق، وكلام، وايمان، وانتفاضة.

الوجع أكبر من شلال الدموع. الوجع ولادة من نوع كان مجهولاً، كيف يولد الميت في قبر حي؟ رجوت ابني قبل سفره أن يجلس على حجري، قلت له: «أريد أن آخذك بين ذراعي، وأحتضنك، وأحس بك».

والبنت الصغيرة تركض من غرفتها إلى حجرة أمها، تتفرج عليها في الصباح عندما تخلع ثيابها. ذاك الجسد الأبيض النقي. الأم هالة صفاء.

ما هذا الرابط الكهربائي بين البنت والأم، وبين البنت، التي أصبحت أماً، وولدها؟ أهي لحظة نشوة، تتدفق بلا وعي، ثم تعود المشاعر إلى مكانها الطبيعي؟

قبل أن تموت أمي ببعض سنوات، لاحظت أنها تتعمد تقبيلي على شفتي، هي التي كانت تستنكر ذلك عند غيرها من الأمهات. ما الذي دهاها؟ هل تخاف العجوز أن تفارق الرغبات الشيّقة، فتودعها هكذا؟ أذكر مرة شاهدت امرأة عجوزاً في المصعد، هجمت على صدر شاب وسيم، وأخذت تتحسسه بنهم.

وصعقت! أخذت أتلاف حركة أمي، ربما غير الواعية، وأدير لها خدي. ويمرّ الأمر ببساطة لا تحتاج إلى كلام.

تمـالكت نفسي، وأعماقي تضــج بصوتهـا. كنت أسمعه حتى في صالة المدرسة الداخلية الكبيرة. أشتاق إليها، بعذاب مميت.

ماذا سيحدث الآن؟ كيف مضى النهار؟ يوم الأحـد هذا؟ تـوافد المعزون، أنا خلف ستارة، أفكر كيف تحـوّل ذاك الجسد البض إلى بياض تتخلله الصفرة الداكنـة، وترهـل كل شيء. رب كيف أتركها ليأكلها الدود؟

هذه فجيعة. أمي الهادئة الجميلة. ناعمة كزهر الياسمين، تقطر ذوقاً مرهفاً، تتوهج حناناً، عاطفة ملتهبة، بهدوء، بدون تعبيرات جياشة. عليّ أن أتنفس روحها لئلا يذوي جسدها هباء.

بالأمس، بالضبط، كنت عندها. مررت عليها بطريقي إلى موعـد مهم. أصبحت لا تعرف أن تعبّر جيداً. إنها فقدت ذاكرتها.

كثيراً ما رأيتها تبحث عن ذاكرتها بعينيها الزرقاوين، تسلطهما عـلى وجهي بتساؤل: «مـا الذي راح مني؟» فـأضع رأسي عـلى ركبتها، ثم أرفعه نحو وجهها الذي يحمل عذاب حياتها.

ابنتها هي سعادتها الوحيدة بعد موت زوجها.

مستقبـل ابنتها هـو الذي أحيـاها طـوال السنين المتتـالية، والبيت فارغ من رجل. لا رجل في البيت. هي الرجل. البيت ظل مفتوحاً للناس، لأصـدقائهمـا معاً، هي وهـو. تخرج إلى الحـديقـة، لتنسى، وتقلم الـورد والقـرنفـل، بعـد أن تلبس قفـازات. وكانت أكثـر الأحيان تنسى استعمـالها فتعـود إلى البيت، وأصـابعها مليئـة بوخـز شوك الـورد. وتنسى وجـع الفؤاد. يـا لهـول الفـاجعـة بعـد فـراغ الفؤاد من صـوت الحبيب!

مررت عليها لأقبلهـا وأطمئن عليها وعـلى خالتي. خـالتي فقدت أمها وهي لم تتجاوز السنة، أي لم تعرف أماً، بل جدة قاسيـة، وخالة أكثر قسوة.

يـوم وفاة أمي، هبط الليـل علينا أنـا وخالتـي وحدنـا. زوجي مسافر وابني مسافر. كان لا بد لنا أن نختلي بـأنفسنا. ليلتهـا أفضت إليّ خالتي بأنها لم تحس بالعاطفة طيلة حياتها. سكنت في نفس البيت مـع أمي وهي في الثـلاثـين، وهنـاك عـرفت أول مأوى عاطفيّ لها.

استوقفتني أمي من خلال نظراتها، رجتني أن أبقى. فقلت لهـا سنقضي النهـار معاً غـداً. وسكتت، وبعـد أن خـرجتُ سألـت خالتي لماذا لن تنام هنا؟ وأجـابتها أختهـا أني عدت إلى بيتي، إلّا أنها استغربت، وسكتت، ثم سألتها من جديد: «أين بيتهـا؟ ألا تسكن هنا معنا؟» وذكّرتها أختهـا أني تزوجت، وأني أسكن بيتاً مستقلاً. فعبست وسكتت على مضض.

تحوّل رذاذ المطر فجأة إلى أمطار غزيرة، لطمتني وأنـا بانتظـار الطبيب. الشارع فارغ من المارة، وعدد قليل من السيارات.

أليس من الأفضل لكرامتهـا، لهيبتها المشرقـة، أن تتوارى بـين الغيوم، قرب الهلال، فوق الكون، في الأمان؟ الهلع يهزّني، كيف أفكر هكذا؟

ولكني فكرت، لأني أحبها فكرت.

نام النهار في الليل الذي اعتـراني، ولفني، وقدمـاي ترتجفـان، جاء الطبيب، وصعد معي. لم أدخل غرفة أمي معه. انتظرت في الـردهة، لأني لست بحـاجـة إلى الطبيب كي أعـرف. وحـدي عرفت.

الغـرفة واسعـة وباردة ومظلمـة، إلّا من نور صغـير. نَزَعَتْ ثيـابها، لم تكن بعـد قد تبـدلت إلى ملابس سـوداء. ارتدت قميص النوم، توجهت إلى الحمـام، غسلت أسنانهـا، عادت إلى الغرفة، نحو السرير. جلست عليـه، ثم خلعت حذاءهـا، ووضعت كل فردة بجانب الأخرى كمـا علمتها أمهـا. ركنت

وسادتها إلى ظهر السرير، وأسندت إليها ظهرها، ومدت ساقيها المتعبتين، وتذكرت صقيع صباح ذلك الأحد القاطع.

الصقيع في جسد أمي، والصقيع فيّ. لقد ودعتها على مدى بضع سنوات، وهي تنسحب من الحياة مع ذاكرتها. هكذا تصورتها تفعل. لقد تعبت من أصوات الدمار دون أن تفهم معناها، ولا أدركت هول الحرب. أرهقها نضال العيش، والبقاء بكرامة على قيد الحياة، فتركت ذاكرتها تتهاوى في النسيان.

حزني عليها شجن يستقوي على الشوق إليها، والشوق أيقظني من هناء الارتكاز عليها، حتى لو كانت فاقدة للذاكرة. عشت أسكب نفسي فيها، أتفرج عليها، وأعجب بها مثلما أتوق إلى رفة الحنان تطل من عينيها. أتفرج عليها، وأعجب بها، في كل ما تفعله، تحيك الصوف، تصنع الزهور من القماش، تطرز المفارش، وتحول أي قطعة قماش يقع نظرها عليها إلى شيء جميل. لم أشاهدها ترسم أبداً، كانت تقول إن عينيها لا تساعدانها على ذلك. «ولكنك تطرزين وتطالعين يا أماه؟» «سيأتي اليوم الذي أنفك فيه حتى عن التطريز والمطالعة». تبقى الموسيقى، ولوحاتها على الجدران.

ماما! ماما! روايتي السادسة تحت الطبع!

يغيب الخبر في دهاليز الذاكرة، وتكتم الفرحة. ابكي، أتعثر بخطاي، وعينا خالتي الخضراوان ترنوان نحوي بحزن. عشنا من بعد أمي هي وأنا سنوات من الحزن المتراكم يومياً.

ما الفائدة؟ راحت قبل أن تموت، وعندما توفيت، عاشت في قبر قلبي. نفذت إليه، واستراحت من قلق الحيرة، فهي تدرك أنها تشكو من شيء، وتعذبها الحيرة هذه أيما عذاب.

استفقت بملابس سوداء، أمسكت يد خالتي، فقالت ليتها بقيت

معنا. فأجبتها والدموع تخز عيني لأول مـرة: «كلا»! إرادة الله كانت أن تظل لائقة حتى النهاية.

عنـدما وصـل زوجي من السفر، انقلبت إلى طفلـة بدون شرائط ملونة لأول مرة. قمت من كرسيّ، لم يهمني الناس حولي، هرعت إليه، وارتميت بين ذراعيـه الممدودتـين، أحتمي بهما، لماذا أنا هكذا، دوماً طفلة مع زوجي؟ ولما بكى، استرحت أنا.

بدأت أحمل آلام ولادة أمي فيّ، في ذاتي. إنها سوف تحيا معي لأني هنا. هي أنا، تمثالها غـير الحجري. أنـا زهرة الفـل التي كـانت تقطفها، أو تشتـريها، وتضعهـا في إناء من الكـريستال الأزرق، هو اليوم على مكتبي.

لن يحبني أحد مثلها.

أقارن كل حب صـادفته في حيـاتي بحبها لي، فتظـل هي الأهم منه. صوتها، وخط يدها، ذكريـات في فضاء ذاكـرتي، وفي درج أسراري، غـير أني لا أعرف لمـاذا، لم أستطـع حتى اليـوم أن أتأمل صورها. أصاب بالجزع، يهتز قبري، وأشيح وجهي.

حملت خاتم زواجها من بعدها في سلسلة تطوق رقبتي.

١٥

الزهري

صديقتي نوال،

كلا، إنك لم تتركي أيامي لحظة. ولا لحظة. أنت معي، مهما باعد الدهر بيننا. سرنا درباً، كانت البراءة فيه منهلاً وصفاء، وأمانينا في الأعالي تتألق، أنت الصداقة.

عدتّ بعد فرقة الصبا والزواج، فوجدتك! رزينة، ضاحكة، تمتد يدك إلى قلبي، فإذا به يعتلج بوفائي لك. وأنت بدورك، الوفية لكل من تحبين، وظللت أنا منهم. صبرك عليّ، غطى خطوات الآخرين، وبقيت أنت الأبدية على الأرض. أركض، أركض إليك، ونتسامر، فيهدأ الغضب، وتزول الحسرة، ويتقد المستقبل بخطوات لا تعود إلى الخلف.

أنا لست أنت. ولا أنا مثلك، وأنت يا نجية الروح، فيك كل ما افتقدته عند الناس. المرأة لا تلبس رداءك، فليس لها عقلك المنظم. وأنا؟ جنوني ذلك، كيف جعلت منه سلاماً يحيط بقلقي الدائم؟ أنا هكذا دوماً قلقة، في هدأة الليل أروي لك أساطير قلقي، فتمسكين بي، وتردعيني عن الجنون، حتى وأنت تعلمين أن الجنون ينصبّ مني ثورة على التكرار، على الزيف، على السأم، على قلمي اليابس أحياناً، المنسرح، المتدفق عندما أزور سيناء، وأعبر القناة التي بكيناها أنا وأنت في السابعة

والستين. هل تـذكرين بكـاء الفرح، عنـدما عبـروها! عبـروها! عبـروها! خط «بـارليف»! شاهـدته، لمستـه بيدي، وتكلمت مـع المقاتلين. «ما الذي يشدّك إلى القتال هكذا؟» سـألني أحـدهم في بيتـك؟ أنـت أعطيتني بيتك بيتـاً لي. «أمينة» لم تكن قـد ولدت بعد.

ظـل أصبـع زوجـك عطيـة عـلى الخـارطـة. إنهم لم يصلـوا «الممـرات». لم يدخلـوا «الممرات». الجيش لا يتكلم. السكـون. السكـون. الدنيـا ظلماء. النـاس صيام. كم يوماً لبثنا ننتظـر؟ وأخيراً عرفنا عن «الثغرة». لعنة الله على «شارون». إنه ذبّـاح. «كفـرقاسم»، إننـا لم ننس، يا شـارون. مائتـين واثنين [٢٠٢] الفرقة التي أنشأتها لتمتص ترابنا من أرحام أمهاتنا.

مؤتمـر السلام؟! كـانت «سيدة مصر الأولى» واثقـة من النصر، قـدمت لي «الكعك».. هـل كان لعيـد الفطـر؟ أم لعيـد النصر؟! مؤتمر السلام؟ صلاح جاهين أخذ يصرخ في الطرقات، لا سلام بوجود «الثغرة»! ومحمد نوح كان يغني على سطح «الشيراتون» عن بـيروت وأبكي أنا، وأبكي. لبيت الـدعوة إلى «الشـيراتـون» غصباً عني، وأنت يا نـوال تضحكين. كلمـا اشتد بكـائي، كلما فاضت حماسة محمد نوح الغنائية.

الخامسة والسبعين ابتدأت الحرب عندنا، عندما انتهت عندكم. ومحمد نوح كان يغني أناشيد للجيش الثاني المحـاصر. واليوم نحن محـاصرون، نحن بـيروت! لبنـان! ويصرخ محمـد نـوح، وتنهمـر دموعي كشـلالات أسوان! حـربكم وحربنـا اتصلتـا، وقبلها حرب أمين الحافظ. هل هذه صـدفة؟! وصـديقي الفنان عبد الوهاب مرسي يرسم أحمـر ليس قانياً. لا أعتقد أنه شـاهد لـون الدم. «مـا الذي علّقـك بأولئـك الفلسطينيين؟ ألم يتـركوا بيوتهم ومتاعهم، وهربوا؟».

أنا لم أتحمّل؟

تركت مرسمه، ورحت أركض في حي الإمام «الحسين»، أركض، كنت أركض في التاكسي، ووصلت غرفتي في الفندق، وأنا أبكي. استحممت وأنا أبكي. ومساء أخبرتك بما جرى لي. وتظل لوحة عبد الوهاب مرسي التي هوت في حرب السنتين، سرقوها، لكنها مرسومة في وجداني. عجلة العمل. الأخضر. قليل من الأحمر الذي لا أحبه، وتدور عجلة العمل.

منذ الخامسة والسبعين لم أرك. لم أر ابنتك أمينة. وأنت كأبي الهول والأهرام، والأقصر وأسوان، ومصر القديمة وحي سيدنا «الحسين». أنت ظاهرة في سحر الصداقة الدائمة. ركضت إليك بعد استقالة أمين، لأحيا حرب الثالثة والسبعين. «الناس لا يتكلمون عن السلام قبل النصر» رحمك الله يا جاهين. كيف استطاع أن يصرخ هكذا في الشوارع بعد خطاب السادات؟

أبكي، أبكي، أبكي شوقي لبلدي، وكلما اشتد بكائي كلما دوت حماسة محمد نوح. ودعتني نجوى فؤاد أن أقيم في بيتها. هل ظننت أن ليس لي بيت؟ ولكن هذا صحيح، فأنا أحيا في فندق. واستفاق رمزي فجراً، ونحن في الفندق، ننام على أغطية متسخة لأن بيروت تحيا بلا ماء.

«الأسطة» أصرّ أن نترك البيت. أنا ورمزي. أصرّ علينا، وإلاّ... اسمعي يا عزيزتي نوال اقرأي حكايتي في رواية «قلعة الأسطة». كلمات قليلة ودموع كثيرة. وفرغ جسدي من الماء لكثرة ما بكيت. أريد أن أعود إلى بيروت. و «لكنك في أجمل مكان في الدنيا!» «كان». أي نعم. «كان». طلبني ابني مساء اليوم اللعين يتوسّل: «تعالي فوراً إلى المستشفى، وإلا سيقطعون ساقي. ضربتني سيارة، وأنا على دراجتي». «يا تكسي حفظ الله لك أولادك، أسرع، سيقطعون ساق ابني». «معك حق، إنهم جزارون في هذه المستشفى».

أنا وحدي.

جلست في «قـاووش» للـرجـال في مستشفى الحكـومـة بجـانب رمزي. جاءت مديرة المرضات وطردتني. ورمزي يتألم، ورمزي يتعذّب، ورمزي يسبح في كابوس تلو الكابوس. ووصلت رئيسـة المرضات وطردتني. ومن كان معي في «كـان»؟ إنها «كلـوديا». هي أمسكت يـدي، ودخلت المستشفى معي للمـرة الـرابعـة، ورفعت الغطاء من على جسد رمزي، تحسّست ساقه. لم أتطلع. خفت. جننت. كلا. ساقه في مكانهـا. بعد ذلـك تركتني كلـوديا، وركضت تأخذ تكسي إلى المطار بعد أن اطمأنت عليّ. وتوفي زوج كلوديا، واشتدت أواصر الصداقة. وسألت كلـوديا: «لمـاذا ليس عندي صديقات؟ هن ثلاث أو أربع، والباقي من الرجال؟» «أنـا مثلك، لا تقلقي». وسألت جانين ربيز نفس السؤال، قالت «هذا طبيعي!» «لكني لا أدافع عن المرأة يا جانين مثلما تفعلين».

نوال صديقتي،

بودي أن آكل «حمام مشوي»، و «حمام بالفريك» عـلى شاطىء النيل.

راح بيتي يـا نوال. راح كلـه. لم يبق شيء. مكتبة أمـين، سبعة آلاف كتاب. كتبي، صورنا. كتاباتنا. مقالاتنا. لو سمعت كلامي اليوم لجاءك صراخـاً. عويـلاً. وماذا يمكن أن تعني لي «كـان»؟ الجمال؟ نحن ننزف، ونتفرج على الجمال؟!

آه يا نوال كم بـودي أن أستريـح. سأظـل أركض هكذا خلف الحدث الوطني، خلف سمات الوطنيـة. أين هي بالله. بـالله أين هي؟ مخبـأة في بؤبؤ العـين، في رفـة الجفن، في دقـة القلب، في شهقة الفرح، في بكـاء الحزن، في فـرحة الأمـل. ولكن كل، كـل هذا سقط في أعماقي عندما سقط تل الزعتر!

أجل، سأعاني حتى الموت.

رشا صديقتي، تلك النادرة بدورها بين النساء، لا تبكي. تسمع

نـواحي، وتخبـرني بـالتلفـون أنهـا تحلم بي وبـأمي. إنهـا في أميركا. «ما هو أكثـر شيء أحببته في أمـيركا يـا رشا؟» تجيب: «التلفزيون»!

رشـا مثلنا جـدية. عـاطفية. تحب مـوسيقى «مـوزار». بـدأت صـداقتنا بعـد هزيمـة السابعـة والستين. «أعـلام السيـدات العربيات» عن فلسطين المحتلة. حـولت مرأب بيتهـا إلى مكتب. وبيتها في شملان بات حطاماً بعد أن كان صورة تقفز من مجلة للأثاث. إنها تستفيق باكراً، تنتظر حتى التـاسعة ثم تـأتي إليّ بفنجان القهوة. أنا لا أنام عند غيرها. بعد فنجان القهوة رشـا موجودة وليست مـوجودة. إمـا معلّقة عـلى سلك الكهـرباء، أو تعطي أوامر للنجار أن يصلّـح هذا الكـرسي وتلك المنضـدة، ثم أزورها مرة ثانية، وأدهش بـالكرسي. من أين لـك هذا؟ وتصرخ بي: «هل نسيت أني أصلحته منذ أسبوعين؟».

رشا تفيض حيوية مثلك يا نوال، ويمر يوم عطلتها في اهتمامات متنوّعة كمـا رويت. إنها قـارئة جيـدة وجديّـة. ولا تلبث مساء حتى يخور حيلها، وتبدأ بالتثاؤب قبل العشاء، وبعده تنام.

وأنت يا نوال، ألا تهدإين من الحركة؟ بعد أن يخـرج زوجك في يوم عطلتك، نـذهب إلى النادي، وتطلبـين قهوة «كـابوتشينـو». وليلاً على طاولة المطبـخ «نمارس شراهتنـا» سويـة على الجبنـة البلدي، ثم يسرقنا الزمن، ونحن نلتهم الأفكار، والتجـارب التي مرت بنا.

أنت المعطاء كنهر النيل، هل قرأت لك القصيـدة الوحيـدة التي كتبتها في حياتي؟لا أظن. كانت عن النيل وأرض مصر الخصبة.

يـا صديقـة الصبا، لكم أنت مجبـولة بـأرض مصر. أخذت من الغرب الناحية العملية فيك وظلت شرقيتك أنيسة، ناعمة، حساسة.

أنـا لا أدري لماذا لم تلعب المـرأة دوراً مهماً في حيـاتي. ربمـا لأنها لم تعطني التحدّي الكفيل بإيقـاظ همتي واهتمامي. فـإذا

لم أجد فيها شيئاً يجذبني، فأتفاعل معه، وتطول العلاقة بقدر ما تتفاعل المشاعر.

كان أمين يقول لي في صباي: «أنت لا تحبين إلّا الأشخاص الذين يثيرون إعجابك». أعتقد أن وصف أمين غير دقيق، لأني لم أعجب بالمزيفين، بالرغم من أن كثيرين منهم يثيرون الالتفات والإعجاب. وكنت كلما لمست ناحية في الشخصية لها علاقة بالتباهي، أو المزايدة، أو المبالغة، فإني كنت أبتعد وأتخوّف من صاحبة تلك الخصائص، وأهرب.

وأنت يا نوال، رغم طيبتك، امرأة غير عادية. فقلما تجتمع الطيبة والذكاء والجدارة. ولقد تبوأت المركز الحساس، وكنت مدخلي إلى جريدة «الأهرام»، حين كان رئيس تحريرها «هيكل». وهناك تسنّى لي أن أعجب بطاقتك على العطاء والإنجاز الدقيق. أنت الأمان والحنان والصبر وقوة الإرادة والذكاء والجدارة. متى سأستطيع أن أهرع إليك في القاهرة، وتأخذين أنت اجازة كما تعدينني دوماً على التلفون هل نذهب معاً إلى «أسوان»؟ آه كم أحلم وأحلم بقضاء ليلتين في أسوان، لأتأمل لون الشمس عند المغيب؟

صديقتي نوال،

أهديتني، مرة في عيد ميلادي «عيناً» زرقاء من الزجاج المنفوخ، وظلت معي بعد أن علقتها بسلسلة حول رقبتي. ذات يوم، سقطت العين، ثم اختفت، واختفت. وقعت على السجادة، وكأنها تبخرت بعد أن ظلت معي عشرين سنة. وبعدها بفترة سافر أمين إلى القاهرة، وكنت أشعر بنوع من العراء، نوع من مواجهة للدنيا بلا وقاء، بدون «العين» الضائعة، فطلبت منك واحدة أخرى بدلاً من التي اختفت، فأرسلت لي «عيناً» فرعونية ذهبية، وفيها فيروزة صغيرة تقيني من الشرور. هي اليوم معلقة بسلسلة حول رقبتي.

١٦

اللون الأحمر

لا الأحــلام تتبخر، ولا الأحــلام تعود. وطـرائف تحــدث في الحياة، هي أغـرب من الخيــال، فهي نتف من الأحلام. الصبا والشباب والانفتاح عـلى الدنيــا، حلم يطير بالواحد منــا في أجواء لا تتكـرر، ولن تتراءى مثلهــا للذين هم اليوم بمثل عمرنا حينذاك. الحياة في النهاية ومضـــة، وقفة، ثم موقف.

كنت على «جسر الذهب» في «سان فرانسيسكو» والمحيط أمامي، وأفقي واسع مترام، وكأني لو تقدمت خطوة، أستطيـع أن أرى استدارة الأرض. عيناي تعودان القهقرى.. إلى بيروت.

هنا في أميركا، تصنع السياسة، هنا موضع الثقل على ما يبدو، هنا قبضة اليد على نصف العالم. ومن بعد ربع قرن على العالم بأسره. وأنا البريئة الصغيرة في هذه الدنيا الشــاسعة، أقف إلى جانب أمين، فــارع الطول، بهي الطلعـة، آسراً، جـذاباً، وفيــاً، متألقاً، أشد على يـده كالطفلـة، وأقول لـه: «أنا قلقـة، أريد أن أعود إلى دنياي، إلى بيروت!».

لبسني الـوسـواس، أتــأرجــح في الهــواء الطلق المنسرح الــلامتنــاهي، وأحس بــأني... وحـدي؟ كيف هــذا؟ أختنق بالألم غير المنظور، أشعر بالدهشـة، وألتفت إلى أمين، أشـد على يده أكثر، قائلة: «هيا نكمل الجولة».

دست على غربتي لأتفـرج، وكلما أوغلت في السيـاحة، في الفن، في الحدائق اليابانية، في مدينة الصينيين، ومآكلهم الخرافية، في الشــوارع التي تعلـو وتهبط. وصــل التــرامــواي إلى محطــة «جراهام»، أضـحك، وأقول لأمين إن «سان فرانسيسكو» تشبـه بيروت قليلاً. ويجيب ليس تماماً. أعـود إلى الفندق، أخـرج من الفندق، أتعشى، أتجوّل، أتفرج على الذوق الذي لم يتكـوّن بعد. لم أر في أمــيركـا أن الــذوق الأمــيركي قــد تكـوّن. هي، هي، «الهامبورجر» و «الكوكاكولا»، وناطحات السحاب. وطبعاً، طبعاً التكنولوجيا.

أجـل كلما أوغلت في السيـاحة، كلمـا خف ثباتي عـلى الأرض، أتحوّل إلى طفلة صغـيرة خائفـة، تلبس «الشرائط الملونـة!» وفي اللحظة التي تحس الطفلة فيها بالجزع، تركض إلى سريـرها في غرفة النوم، وتنطوي على نفسها، على شكل الجنين في رحم أمه.

أمــيركــا في زيــارتي الأولى لهــا لم تسحقني، ولم تبهــرنــي. «نيويورك» وحدها سلبت لبي. «نيويورك»، المـدينة الـلامدينـة، نـاطحات سحـاب! أجلس على كـرسي في الطابق الســابع عشر، وأنظـر إلى فوق، إلى الطـابق الثلاثـين والأربعـين والخمســين. أضواء فاقعة. ثريات تبدو في وسط الفندق كأنها من النايلـون. لم أر في الـدنيا ثـريات بهـذا الحجم البالـغ ببهرجتـه، أبـواق سيارات الشرطة لا تتوقف لحظة، تـزعق ليلاً ونهـاراً. وبعدهـا بسنوات وسنوات، أجد بالوناً رائعـاً يقف وحده في أعـلى زاوية بغـرفتي في الفندق. أرسلتـه لي صـديقتي كلـوديـا. قلت لهـا: «أسمعـتِ، أنا مصابة بانهيار عصبي. اسرائيل دخلت بيروت!».

لكنهـا أصرّت، فـذهبت. تــركت ابني في مـدينتــه الجـامعيــة، وأمسكت يد كلوديا، وعيناي كالجمر، وقلت لها: «أنا خائفة!».

بعدها بأيام كنت أتفرج على شـاشة التلفـزيون في بيت كلـوديا

الأنيق، وفجأة أطل المذيع يكشف لنا بالصورة الحية مجزرة «صبرا وشاتيلا»!

أخذت أصرخ. رن جرس التلفون: رمزي! رمزي! بقيت أصرخ. يقول لي «لا تخافي». «مم أخاف يا ولد وأنا في نيويورك؟ يجب أن أعود إلى بيروت». ويصيح بي: «كيف تعودين، وبيتك في منطقة عسكرية منذ بداية الاجتياح؟».

انهرت أبكي، فالسكاكين تشق قلبي، سكاكين مصنوعة من المسامير. وكلوديا لا تفقه أي شيء في السياسة، لكنها جرتني من يدي، وأخذتني أنا ودموعي وصراخي، لحضور فيلم «إي. تي».

أمضيت ساعتين كالمجنونة، تابعت الفيلم، صور «صبرا وشاتيلا» تسقط أمامي. صرخت وصحت، قفزت على الكرسي، ضحكت، بكيت. ماذا فعلت في ذلك الظلام، لا أعرف، ولا يهمني، فقد هدأت، وأمسكت أنا، هذه المرة، بيد كلوديا، وقلت لها من أعماقي: «لقد أنقذتني!».

عندي اليوم لعبة «اي. تي». أهداني إياها رمزي. كل مرة أحدثه عن «اي. تي» أقول له أنت تذكرني بـ «اي. تي». أخيراً ذهب رمزي وشاهد الفيلم. وبعد عودته سألته بلهفة: كيف وجدت «اي. تي؟» فأجابني ببرود: «ولكني يا أمي أنا لا أشبه «اي. تي». ما الذي يذكرك بي كلما تشاهدين فيلم «اي. تي»؟»! سر اللعبة أنها تتكلم من بطارية وتردد: «أريد أن أعود إلى وطني».

ثاني يوم استقليت الطائرة إلى باريس، واتصلت بطلال سلمان. هو يفهم جنوني. هو كان يفهم جنوني. وسمعت الوجوم من صوته الهادئ دوماً، الحنون أبداً. ولم أشعر بالخوف، ولا بالوسواس، ولا بالقلق، عندما وطئت قدماي أرض لبنان.

يتندرون علينا، نحن معشر اللبنانيين خلال حرب الستة عشر

عاماً، لأننا نصفق كلما تطأ الطائـرة أرض الوطن. يـا ناس ألا تفهمـون؟ إن الوحشـة تزول، وتـركض الصغـيرة الجـزعـة إلى سريرها في وضح النهار، ولا تثني سـاقيها عـلى شكل جنـين في رحم الأم!!

وصلنا رحم الأم. وصحت أنا: «لا. لن أسكن فندقاً بعـد اليوم. سـأذهب إلى بيتي في طـرابلس. الآن لا يهم إذا أصلحتم ثلث البيت المهدم. ركّبوا الشبابيك قبل كل شيء، ألصقوا ورقاً ملـوناً على الزجاج، وننام كلنا في البيت».

اتصلت برمزي، وقلت له: «أنا في بيروت، أحادثك من البيت!».

> أنا أنتصر على الحرب هكذا، على الذهول هكذا، على الوحشة هكذا. أرفع رأسي وأصمد. وصمودي لا يعني أني لا أبكي. ولا أتنـاول الحبوب المهـدئة، ولا أشرب أطنـاناً من القهـوة، وأكثر من علبتي دخان. المهم هو أن أعرف أني في وجـداني قد احتويت الأسى وامتصصته.

أعرف، أعرف أني أصبت بجلطـة في القلب. وظننتها حـالة من الكـدر النفسي، فهـذه البـلاطـة التي تحطّ عـلى صـدري كلمـا حاصرني القلق، وينهشني الوسواس. عندما تصبح الحياة عبئاً لا يطـاق، وتغـوص الشمس في قلبي، وأحسهـا تشرق، تحـرق، تلسع، ولا تشع عليّ، بل تحرقني في العمق، في الجوهر، ساعتها أتمنى النوم، أو الموت، لأتحرر منها.

جلطة القلب شبيهة بذلك الكابوس الهائل الـذي يكويني، ولكن لا أعلم كيف عرفتُ أنها ليست أعـراض حالـة نفسية، فـأنا في قـريـة صغـيرة عـلى حـدود جنيف، أنـاسهـا لا يبتسمـون، لا يتكلمـون. إنهم مثل طقسهم رمـاديو المـزاج. عنـدهم الشمس تشرق ساعة الغـروب لمدة عشر دقـائق، ثم تغيب وتغيب وتغيب. الشمس تركض إلى الشرق، إلى لؤلؤة المدن: بيروت! لو أغمض، وأصبـح هناك، لاستطعت أن أحتمـل آلام الصـدر. تختفي ثم

تعود، كالنوبات. لا تصيبني الهستيريا، لكني أبكي. يا رمزي تعال أحتضنك. أحبك يا بني، لله كم أحبك. الآن وأنا أكتب، تجدني أبكي توقاً وشوقاً ولهفة. لفني بذراعك يا رمزي. أصبحت رجلاً. عينا أمين الصبورتان، ولا يفهم ماذا يحدث لي.

رمزي يقول تعالي معي إلى الجبل، أريد أن أبحث عن شقة لموسم عيد الميلاد، ربما التغيير يحسن وضعك. وأركب سيارته العجيبة، إنها مثل الباص الصغير، ينقل فيها «الكمبيوترات»، والناس، والأوراق، وتوصله أيضاً إلى المطعم الصيني الفخم، ويخرج منها بهندامه الأنيق، ما عدا ربطة العنق، إنه لا يعرف حتى اليوم كيف يربط عقدة «الكرافات»، ثم يحمل بيده سيجاراً فاخراً، ويستقل نفس السيارة المضروبة، المتسخة، المائلة إلى اليمين أو إلى اليسار، لم أعد أتذكر. هكذا هو رمزي.

سيارة رمزي تسير بنا، ولكنها ليست مستشفى. وفي الطريق عادت النوبة. رحنا إلى شقته، واتصلنا بأبيه، وأخذوني إلى الطوارىء.

جرى فحصي في الحال. شيء مرتب، نظيف، منظم، قالوا إني مصابة «بكذا». لم أفهم ما هذا «الكذا». يجب أن تراجعي طبيب قلب. طبعاً أنا بحاجة إلى طبيب قلب، قلبي مع هذا الولد الذي بات رجلاً، وقلبي في بلدي، بين أناسي. سأجن، سأنفجر. أمثالي لا يستطيعون أن يعيشوا في الغربة. غربة ليس فيها شمس.

وسألناهم، أليس في أهم مستشفى بجنيف طبيب قلب؟ يقولون كلا. ويتركوني مستلقية على ظهري، ويغيبون. ساعة، ساعتان تمران. «يجب أن تباتي الليلة هنا». انقلوني إذن إلى غرفة خاصة. «لقد فات دوام الادارة، لا يمكن أن ننقلك إلى غرفة خاصة. ستنامين في الطوارىء».

لا فائدة يا رمزي من النقاش الحاد، لكي يجيبك الطبيب «إن

هـذا ليس فندقـاً». نعم نحن الأجـانب هكـذا. المهم هـو أني صبرت كل هذه الفترة دون سيجارة. «أريد سيجـارة». ممنوع. إذن أريـد أن أخرج. أمـين يتدخـل بصبـره. يـرجـو الطبيب. أصرخ أنا. أصبحت على سريـر نقال في ممـر المستشفى. لمَ لا؟ ألم يكن جـرحى حرب لبنـان مطـروحـين في ممـرات مستشفى الجامعة ومستشفى البربير؟

أخيراً أعطوني كوب نايلون لأطفىء فيه السيجارة. ونقلوني إلى غـرفـة فيهـا ستـة مـرضى. طـردوا زوجي وابني، وبقيت أنـا و «المصل» معلق بيدي. تناولت حبوبـاً منومـة من حقيبتي، ولم أغف. فقمت وجرجرت المصل معي، وذهبت إلى الحمام، ودخّنت سيجارة. وهكذا مضى الليل، بين الحمام والسرير، إلى السادسة صبـاحاً. نظـرت حـولي. حملقـوا فيّ. انهن نسـاء يتـوسلن إلى الطبيب أن يسمح لهن بالبقاء في المستشفى، لأن «عيد الميـلاد» آت، وليس عندهن مكان يذهبن إليه. على الأقل، هن يتسلـين في المستشفى!

شعرت بكربة كبيرة، أخافني مثل ذلـك المصير، وفكـرت بلبنان. من يعـامـل هكـذا هنـاك؟ من ليس عنـده من يبيت عنـده في الأعيـاد؟ وما ان سمـح لي الطبيب بالخـروج، حتى هـرعت إلى ارتـداء ثيابي، وأسرعت إلى مـدخـل المستشفى، أنتظـر زوجي وابني في الساعة السادسة صباحاً!

الرواية لا تنتهي هنا. وأنا أصرّ على سرد التفاصيـل لكي يعرف أهل بلدي قيمة أسوأ مستشفى عندهم.

ركبنـا السيارة، وانطلقنـا إلى «كان». المسـافة تستغـرق سبـع ساعات، وجهي شاحب، أشعر بـالتعب، ولكني ركضت، ورتبت، وهيأت كل شيء لعيد الميلاد. عيد ميلاد أمي في عيد الميلاد.

ووصل رمزي بعد أيام بالطائرة، وأخذنـاه من المطار إلى المطعم الـروسي الصغير الـذي اكتشفناه أمـين وأنـا. أمضينـا سهـرة

صاخبة. نستمع إلى موسيقى تعتصر القلب، وحوّلنا نحن الثلاثة المطعم الصغير إلى قاعة صخب لم يشهدوه من قبل. وبانت ابتسامة هؤلاء الموسيقيين الذين يعزفون ألحان بلادهم بحنين ودفء، وعمر أصغرهم سناً يبلغ السبعين. غنوا، ودقوا، ومعهم بكيت مع الألحان الحزينة، وضحكت، وانطلقت على سجيتي، وسألتهم إذا كانوا يحبون «دوستويوفسكي» لا غرابة في ذلك. فقد دعانا مرة أحد الأصدقاء وزوجته الاسبانية التي كانت راقصة محترفة، وسألتها إذا كانت قد قرأت «للوركا». وكاد أمين، يومها، أن يضرب بيديه على رأسه. ولسان حاله يقول: «ماذا تفهم هذه أي شيء عن «لوركا»؟» وأجبته يومها: «ألم تسمع «مادونا» بشعر أحمد شوقي؟».

استيقظت تلك الليلة. أمين! أمين! قم!

تعاركت أنا وإياها هي النوبة. ثم ابتلعت حبة «فاليوم» ونمت. في اليوم التالي لم يعد باستطاعتي أن أتحرك! نادينا الطبيب. فحصني وقال: «هذا من الأعصاب. هي مرهقة الأعصاب، وأثر ذلك على معدتها ولذلك تقيأت الطعام الذي تناولته». أعطاني دواء. وأخذته. كنت أنام وأستيقظ، ثم أنام وأستيقظ. وكنت قد حزرت وحدي ما أشكو منه، إذ قبل أن يغادر الطبيب قلت لأمين: «رح، أركض خلفه، أسأله، هل أشكو من القلب؟» وأجاب الطبيب طبعاً لا. قضية أعصاب. وأنا كنت أعرف أن أعصابي في تلك الفترة كانت مشدودة لضياعي في تلك الغربة الشاسعة القاتلة. إلّا أني أحسست بغريزتي أن ما أشكو منه هذه المرة علة هي ليست الأعصاب.

المهم غرقت في المرض وتناوبت بين النوم واليقظة. أتأمل غرفتي الجميلة، وأرنو من الشباك، فأراقب العصافير المغردة حول النخلة الباسقة، والشمس نضرة مشمسة. إلّا أني غير قادرة على الحراك. أريد العودة إلى بيروت. شباكي هناك لا يطل على

شيء، ولكني أسمع زقزقة العصافير تغرد على شجرة جارنا في «عز» لعلعة الرصاص ودوي القذائف. وبدلاً من بيروت، استقليت الطائرة إلى جنيف، وأمين عاد إلى «ديفون» من مدينة «كان»، ورمزي انطلق إلى جبال سويسرا مع رفاقه. أما الذي سافر إلى بيروت في اليوم التالي، فقد كان أمين!

أنا وحدي في جنيف. لا أعرف شوارعها جيداً، إذن لا سبيل إلى قيادة السيارة إلى الطبيب. رمزي يرأس اجتماعاً كان قد قرره منذ شهر ولا يستطيع أن يتركه. على كل حال موعدي مع طبيب القلب مجرد وقاية.

جلست بعد الفحص على السرير المخصص له، نصف عارية، وربت الطبيب على كتفي، ذلك أقصى مظاهر اللطف والمسايرة في سويسرا «ساعة الحائط الكوكو والشوكولاتة». قال لي: «أنت أصبت بجلطة في القلب، كيف تستقلين طائرة، وتسهرين ليلة رأس السنة؟ كان يجب أن تكوني في المستشفى! لا دخان بعد اليوم». وصحت به بكل ما لديّ من عزم ورغبة في الحياة: «إذا كنت تريد أن تكون طبيبي، عليك أن تفهم منذ الآن، أنك يجب أن تكون صديقي أولاً. وسأشرح لك كل شيء عن نفسي بالرغم من أنك لست طبيباً نفسانياً».

سمح لي بعشر سيجارات. ولن أعرف كم علبة أدخن اليوم. فقد حاولت، وحاولت، أقصى جهدي، بمنتهى الصدق والأمانة، أن أقلع عن التدخين. لم أستطع أن أقاوم أكثر من ثلاثة أشهر. واندلعت حرب الخليج! سحقني الإحباط. كنت في «كان» أبيع بيتي، حان وقت الاستقرار في بيروت.

شعرت وقتها أن حياتي لم يعد لها معنى، انتهت مهمتي في الحياة. ولن أحصل على حياتين أو ثلاث، كما تمنيت في «لن نموت غداً». يكفيني ما فعلت. ففي هذا العصر. آه من هذا العصر. جاء لزيارتي منذر فتاح صديق العائلة. قلت له: «أنا

أحيـا من أجل أمـين ورمزي، فلن أستطيـع أن أقوم بمـا كنت أفعله طيلة حياتي. لن أركب دبابة سورية في الجولان بعد اليوم كما فعلت يوماً في الماضي وأنا في عز حماستي! وضحك منذر، ثم ابتسم ابتسـامة جـدية وقـال: «يا عـزيزتي، لم يعـد في العالم العربي، ما يدفع واحـدة مثلك بعـد اليوم، أن تـرفع أصبعهـا الصغـير من أجله. الأمـة مريضـة، لا تفكري أبـداً، أنـك أنت المعاقة عن المشاركة. الأمة. الأمة هي المريضة».

بقيت طيلة الحرب أتـوجع من مجـرد فكرة الابتعـاد عن لبنان. مرضت وحدي. عانيت وحدي. من الوحدة. من البـرد. توتـرت أعصـابي من الاختناق. لا أستطيـع أن أكتب. قلمي لا يسيل، يضطر المرء في الغـربة أن يفكـر بالافـرنجي، ثم يتوه، فـلا هو غربي، ولا هو عربي. ضمانة سلامتي؟ أنا يا ناس لا أخاف من القذائف، ولا تهمني سلامتي، بقدر ما أحب أن أسمـع ناطـور البناية يقـول لي: «صباح الخـير يا أم رمـزي، طالمـا أنت معنا، نحن بخير».

منطقتنا لم تعد تسكن. لا مياه. لا كهرباء. لا تلفون. الأوسـاخ. الجـرذان. الأمن. الميليشيات. تبـدلت كل معـالم بـيروت، حتى رأس بيروت لم تعد كما كانت: «يا أبو طالب كيف أنت؟ أما زلت تتذكرني؟». وتقوم على حيلك، وتسلّم علي كلما مررت بك. مطعم «فيصل» أغلق أبوابه. الأسعار لا تناسب ذوي الدخل المحدود، والمطعم يعيش على طلاب وأساتذة!

وعند «فيصل» التقيت بمكرم عطية لأول مرة. تعرّفت عليـه منذ خمس وثلاثين سنة. ولا أذكر مـا الذي دفعني، وأنـا متخرجـة جديداً من الجامعة، أن أقول أمام مكـرم أني أتمنى في يوم من الأيام أن أصبح كـاتبة مثـل «دوستويـوفسكي». كنّا شلـة من الصحاب نتسامر معاً، ونظر إليّ مكرم بدهشة قصوى، وسألني إذا كنت قـد طالعت «دوستـويوفسكي»، فـأجبته طبعـاً. وظلت

دهشته مسمرة على تعابير وجهه. صمت مفكراً ثم قال: «أنا بدأت أتعلم اللغة الروسية!» فانبرعت، وهتفت: «مش معقول!». وأكمل مكرم مفسّراً: «أنا أعمل ترجماناً لأن والدي كان رجلاً فقيراً، لم يستطع أن يؤمن لي الدراسة العالية، فتعلمت الانجليزية لوحدي، واتقنت العربية بمفردي، وأجدت االفرنسية بمفردي. علمت نفسي بنفسي».

وضحك الذين كانوا يجلسون معنا، وأصبت أنا بالدهشة. والتقيت بعد يومين أو ثلاثة بأحد هؤلاء الصحاب، وقلت له ببراءة: «مسكين هذا «المكرم»، لكم هو ظريف، ويبدو عليه الذكاء. ولكن، أن يتعلم كل هذه اللغات بمفرده، وفوقها الروسية أيضاً!! إنه لأمر ملفت حقاً». وضحك صاحبنا المشترك، وفسّر لي أن مكرم يفتعل الكذب البريء كيفما راح وأتى. وأن أباه ليس فقيراً، بل رجل غني كان يملك معملاً لصناعة الحرير. ثم أن مكرم نفسه خريج الجامعة الأميركية».

أسقط بيدي، ولم أملك إلّا أن أضحك على نفسي. وبعدها صار مكرم صديقي، مثلما هو صديق أمين قبلي.

طلبت مرة من سكرتيرة مكرم أن تطبع لي على الآلة الكاتبة رواية «خط الأفعى». وبما أني كنت في تلك الفترة أتأرجح بين المرض وعدم المرض، اتصلت بمكرم بالتلفون لأسأله عن الرواية، فقد رجوته أن يراجعها لي بعد اتمام طباعتها، فلم أجده. بعدها بقليل حدثني هو، وسألته بلهفة إذا كان قد قرأ الرواية. فأجابني أنه كان لتوه في شارع الحمراء، يتفرّج على سيقان الفتيات الجميلات لكي يفرج عن كربته، لشدة ما أصابته الكآبة بعد مطالعة «خط الأفعى»!!

أعود إلى «دوستويوفسكي». فالشيء بالشيء يذكر. لقد سمعت عن لسان صديقنا الراحل ميشال أبو جودة، المعروف بموهبته

الكتابية السياسية التحليلية، وتلك الأقوال المأثورة التي يطلقها على مواقف يعتبرها مهمة في مسيرة جيلنا. ذكر ميشال أمام أحدهم أنه يجب أن تكتب رواية عن حرب لبنان على نسق كتابات «دوستويوفسكي». وكلما أتذكر طموحي الأدبي، أتخيل بسمة ميشال. ليته أعطاني هذه الفكرة في بداية الحرب، لكنت دونت أحداثي بمفكرة يومية. إلّا أني بعد الوهلة الأولى، أستفيق من أحلامي، ثم أتحسّر. إني لن أصبح سطراً واحداً من «دوستويوفسكي»، مهما ملأت من مفكرات!!

وضعتني الحرب في الزاوية، أحرجتني وكبّلت أنفاسي. أحوم حول نفسي، ولا أرى منفذاً من الاقتتال. قتلتني أصوات الحرب، وأصوات «الموتورات»، وأصوات الاذاعات، وأصوات المغالطات الوطنية، فأنا محاطة بطاقة مكثفة من الفشل! وكان يبدو أنه كتب علينا أن نحيا والحرب معاً، دون أن نسأل لماذا الحرب، أو متى تنتهي الحرب.

انطويت على نفسي، وقررت أن أهرب من بشاعة الحرب، وتوجهت نحو جذوري، إلى الجنوب، حيث أمضيت سنة ونصف سنة، أروح وأغدو، وأدوّن ملاحظات، وأحفظ في ذاكرتي المشاهد والمواقف، ألتقي بشخصيات متنوّعة لأستند إليها في عمل روائي عن معاناة الجنوب.

ويوم جلست لأكتب، لم أستعمل أياً من الأوراق التي دونت عليها، واكتفيت بذاكرتي، وحفرت في كياني بحثاً عن أصالتي، وفتشت عن وجه من بين الوجوه التي أثرت بي، فلم أجد إلّا صورة ولدت من مخيلتي، هي أم قاسم «بطلة الرواية!». وعشت كتابة رواية «جسر الحجر»، وأنا أستنشق هواء منعشاً. تسلّل السلام النفسي، من بين أخطار الاستنفار، واحتلني. استيقظت أهب من سبات فرضته ظروف الحرب عليّ قسراً، وحفرت نفقاً لحريتي، ورحت أضم تراب أرضي إلى قلبي، وأحفظ في كلماتي. لففت الجنوب في وجداني، وانسابت أفكاري

كسحـر هبط عليّ، فكنت مـأخوذة، مسلـوبة بتلـك النشوة التي استخرجتها من أعمـاقي، وأودعتها ذاكـرة شبه نـاطقة لنـاس أرضي.

استـرحت بعـد «جسر الحجـر»، وكـأني انتقيت «أم قـاسم» وعائلتها نموذجاً عاش فعلاً وتوالد ومات على الأرض، ومن أجل الأرض. وكأني جئت أنا في الوقت المناسب، فنقلت العائلة كلهـا إلى مكـان آمن، لا يمكن أن تصله لا المـدافع، ولا الاعتقـالات، ولا قضم الأراضي، ولا تعذيب الأبطال.

> تسلّلت تلـك العائلـة من بين شبـابيك الخطـر، ومشت عـلى رؤوس أصـابعها، ودخلت «روايتي»، وعـاشت فيها شـاهداً حياً أبدياً على عظمة العطاء في الجنوب.

استيقظت من «حلم الحقيقة»، بعد أن أنهيت الكتابة، ونشرتهـا في البداية مسلسلة. ثم انقض العدو بهجمة متوحشة على لبنان عام ١٩٨٢، واضطررت إلى السفر. وهناك قررت أن أضيف إلى الرواية ثمانية فصـول، لأحكي كما تـواتر لي وكمـا تخيلت، عن بداية المقاومة الوطنية في الجنوب.

وعدت من الخارج، ولا أدري لماذا قابلتني بيروت بالغربة. كـان ثلث بيتنا مهدماً، وسكناه قبـل أن تنتهي الأشغال فيـه. الكتاب أصبح بين يـدي، وتطلعت إلى أمين بلهفـة قائلـة: «إني اشتقت إلى أم قـاسم! كيف أستطيـع أن أزورهـا، والعـدو جـاثم عـلى أرضنا؟» وقامت عينا أمين باستدارة سريعة، وشعرت أن شيئـاً ما قد هبّ عنده، وهو يتأملني وكله دهشـة وعجب. ولم أفهم في البـداية مـاذا دهاه؟ ومـا الخطـأ في أمنيتي. ثم سكت. سكت، وبـدأت أبكي لأنني نسيت للحظـة مـا، أن أم قـاسم هي من نسيج خيالي، فلا وجود لأم قـاسم واحدة في الجنـوب. أشفقت على نفسي من الهذيان، لكني عدت وانتعشت عندما تـذكرت كم من أم قـاسم قـابلت في الجنـوب حتى تسنّى لي أن أرسم «أم

قاسمي» أنا مثلما صورتها في الرواية؟!

لولا صدور روايتي لازداد شعوري بالغربة في بيروت، ولأول مرة وجدت أنها صعبة الدخول. قابلتني بدون كهرباء، بدون مياه، القمامة أكوام في كل مكان. وشاهدت الناس، أهل بلدي ووطني، يبحثون في تلال القمامة عما يسدّ رمقهم أو يستر جلدهم. رأيت جرذاناً تسرح ليلاً في الشوارع، فقد وجدت ملاعب واسعة لقذارتها، وتسللت إلى البيوت، فضج الأهالي، وراحوا لوحدهم، بوسائلهم الخاصة يقاتلون الآفات الزاحفة والطائرة.

كنت أنام الليل بصعوبة، فالكوابيس تنهشني، وأستفيق دون أن أنساها، فتكربني وينتابني الحذر من كل ما هو حولي.

أنا اليوم أعيش خياة المندحر الخاسر. حياة الذين لم ينتصروا بصدقهم، ووضعوا في سجون غير مرئية، يتفرجون على الآخرين المتسلقين على أكتاف انجازات الجيل الذي أنتمي إليه، فإذا بهم هم الذين وصلوا وسيطروا. أمثالي لم يعلمهم أحد أن الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك أُهملوا في هوامش وطنهم، وآراؤهم بدورها باتت هوامش يجدونها رومانسية، غير عملية. أنا أنتمي إلى جيل انتعاش العروبة واستفاقة الوعي عند العربي، وعشت لحظات الوثبة الثورية الفلسطينية، وأحببت أناسها كأبناء وطني. ولكن... هل أحب كلهم أرضي كما أخلصت لقضيتهم؟ ثم دفعت الثمن بصدمات رمتني سنوات وسنوات أتقهقر وأتعذّب في قعر الانتماء.

والناس في بيروت باتوا يلبسون الكلام مثلما يرتدون ملابسهم القديمة. لم يعد بين أيديهم ما يسدّ رمق حاجات الحياة الضرورية. وكان على هذا الشعب الشغوف بالحياة المريحة المرحة أن «يضبضب» أسلوب معيشته الماضية، ويسد فمه بكمامة، لئلا تسترق الحقيقة لحظة الاختناق، فتهرب إلى الملأ،

وتصيح بملء عزمها: «يا ناس! يا ناس تعالوا إليّ، أنقذوني. أنا لم أعد أحتمل!!».

وبعد كل تمثيلية قتالية ينسدل الستار، يخفي تعب الممثلين. وعندي ينسدل الليل على فواجع النهار، فأجلس على شرفة منزلنا لأتفرج على الليل، وأتمتع بهواء، كان، كان ذات، ذات يوم منعشاً. اليوم لم تعد حاسة الشم عندي تنتعش بالعطور، ولا عادت تجفل من نسيم مسمم بالمازوت وهواء حرائق القمامة.

أجلس في الليل، وأستمع إلى السكون، أكاد أن لا أصدق الكون خالياً من القذائف. وأسمع من بعيد أمواج البحر تناديني إليها، ومعها يترامى لي نباح الكلاب، وأسمعه كأنه عواء الذئاب والجرذان المتوحشة.

كتبت في تلك المرحلة مجموعة من الوجدانيات، والقصص القصيرة جداً، ربما أحلاها هي: «فريسكو والقبقاب».

أنا... في نهاية المطاف أحب في لبنان حتى الذين لا أعرفهم، فقد أصبحنا كتلة موحدة من المعاناة المشتركة. لقد جردتنا الحرب من الزيف الذي كان يكسو سطحنا ومظهرنا. نحن لم يتبق لدينا أي شحنة من أي قوة نستعين بها في أدغال الحرب، ومخلفات الحرب، ومن كل الأطراف التي أمسكتنا بخناقنا وقالت لنا: «صه!».

اليوم نحن لا نملك ما يحمي وطنيتنا، ويدفع بصمودنا فوق طاقتنا سوى تلك الانسانية الخارقة التي تكوّنت من معاناتنا.

وقرار البقاء في لبنان، اتخذته قبل نهاية الحرب، وهو خلاصة الفكرة من وراء كتابة رواية «الاستراحة». فقد وضعت مباهج أجمل مدن أوروبا عندي، مقابل عواصف الحرب، وأهواله. وكان القرار في آخر جملة لرواية «الاستراحة»، حيث أقول: «لقد انتهت الاستراحة، وبدأت الحقيقة!».

١٧

ألوان الدنيا

صعدت إلى الجبل صيفاً مع أمين ورمزي البّي دعوة لقضاء نهاية الأسبوع غصباً عني. وكانت إحدى العائلات المحافظات قد استضافتنا ثلاثتنا. ولاحظت منذ الساعة الأولى كم سيكون التعامل معهم صعباً، نسبة إلى عقليتهم المتأخرة. وكان ابني لا يزال صغيراً، لا يتعدى عمره سنة واحدة، لكنهم وجدوا في طريقة تعاملي معه مجالاً للانتقاد، كما أنهم لم يرحموني من التعليقات المبطّنة على أسلوب أكلي ونومي. واستمر الضغط عليّ طيلة الزيارة، إلى أن شعرت أني سوف أختنق أو انفجر حنقاً. ولست هنا بصدد التعليق على التقوقع والتحجر لدى العائلات المحافظة، إنما ما حدث لي بعد مغادرتهم، هو الذي فتح عليّ باباً كاد أن يودي بي إلى التهلكة.

انتهت عطلة الأسبوع ونزلنا من الجبل نحو بيروت، وأنا كالجمرة الملتهبة غضباً، فقد كبت في نفسي كل ما كان من عاداتي أن أجهر به، وبينما أن أفجر ما احتقن في ذاتي، عطست مرتين أو ثلاثة، فظننت أني أصبت ببرد.

وصلنا البيت، ونقلت ابني من الكرسي المخصص له، ليمرح على سجيته في أرجاء البيت، وانهمكت أفرغ أغراضنا من الحقيبة التي أخذناها معنا، فتكرر العطس، بل تقاربت العطسة من

الأخرى، وما أن انتهيت من ترتيب أغراضي حتى تتالى العطس بصورة لفتت نظر زوجي الذي كان يصرّ أني قد بالغت في التذمّر من تصرفات تلك العائلة طيبة القلب، لا تعرف أكثر مما أدلت به من نصائح وإرشادات. واقترب مني يسألني عما يجري لي، أهو برد أم ماذا؟ ولم أتمكن من الإجابة لأن تدفق العطس أصبح يمنعني من الكلام. واقترح أن يأخذني نزهة في السيارة على شاطىء البحر، لعل هواء البحر يهدئني، ونصحني أن أتناول دواء ضد البرد. انصعت إليه، ونزلنا نتنزه، ولكن أي نزهة كانت، والعطس يفترسني كالغول؟ عدنا إلى البيت، وأنا تعبت من شدة ذلك العطس المفاجىء.

لم أنم جيداً أبداً، واستفقت باكراً وأنا أعطس رغم أني نؤوم الضحى منذ أن كنت طالبة في الجامعة، فصرفنا فكرة البرد عن ذهننا واتجهنا نحو امكانية تعرّضي إلى حساسية معينة وبدأت دورتنا على الأطباء. واحد أعطاني حقنة تحت الجلد في الساعد، فتورم ساعدي لأنه لم يتقن عمله أو لأنه لم يعقم الحقنة بما فيه الكفاية، ثم دخلت مستشفى لآخذ حقنة أخرى ضد الحساسية، وفي آخر لحظة اكتشف الطبيب أن في الدواء نوع من الحلحل. ولو لم ينتبه إليه قبل أن تحقنني به الممرضة لأدى ذلك إلى صدمة خطرة.

ابتلعت أنواعاً وأشكالاً من الحبوب والشراب، بينما أنا وزوجي نجول بسيارتنا في الطرقات، ساعة نصعد إلى البيت، وساعة نهرب من التوتر في ضجة الشوارع. ونمر على الأصدقاء، ويقترح كل منهم وصفة أو طبيباً، فلا نوفر تجربة النصائح، وظللنا هكذا ثلاثة أيام متتالية ليلاً نهاراً.

أصيب أمين بالارهاق من كثرة الدوران دون نتيجة، وتولّاني احساس قربني من الجنون، إذ لم ينفع أي دواء في تخفيف وطأة العطس عليّ، وتجرح بلعومي، وانسدت قابليتي على

الأكل، فرحت أتناول السوائل، وهدّ حيلي، وأصبحت «كالخرقة» المبتلة من شدة الارهاق، ورافق العطس بكاء يابس حارق، غير قادر أن يبدد ولو بعض عصبيتي البالغة خلال ساعات المعاناة في التجوال والسؤال وتناول الأدوية. كنت على وشك الجنون الأكيد عندما شاهدنا أحد الأصدقاء نجول في شوارع بيروت ليلة اليوم الثالث. وعندما عرف ما يجري لي، أصرّ أن يأخذنا لعند طبيب يعرفه. وكدت أصرخ بوجهه أن يكف عن الأطباء، لكنني لم أجد لديّ حيلة لمعارضته. ودخلنا حوالى منتصف الليل بناية مظلمة قريبة من شارع الحمراء، وفتح لنا باب الشقة رجل مستهولاً جرس البيت في منتصف الليل، وحملق بنا مستهجناً إلى أن وقع بصره على الصديق. أما أنا فقد نظرت إليه، وأنا على وشك الصراخ، ماذا يمكن أن يفعل من أجلي رجل قامته تميل إلى القصر يلبس «دشداشة» بيضاء؟ حدقت به بلا مبالاة، وارتميت على أول كرسي وجدته، متهالكة ويائسة.

تكلم عني أمين، ووصف له ما حدث دون أن يحكي له عن عطلة الأسبوع. وإذا بالطبيب هذا يسأل إذا كنت قد تعرضت إلى أي مضايقة أو نرفزة أو انزعاج شديد. وقتها رفعت نظري إليه، وناديته مستغيثة وأنا أومىء برأسي بنعم. ضحك الطبيب، ونحن نحدق به بغضب، فقال لنا اهدأوا، وامنحوني ربع ساعة. وغاب ليناديني إلى غرفة جانبية، حيث أعطاني حقنة في العضل. لم أهتم إذا كانت نظيفة، أو مليئة بالحلحل، أو حتى فكرت أن أسأله ما هي.

عدت إلى الصالون أتمايل في مشيتي من شدة التعب، وارتميت على المقعد، وأشعلت سيجارة، لا لشيء سوى أني أريد أن أتكىء على شيء ما.

وحدثت المعجزة!

تثاقل جسدي، وأحسست أن عضلاتي المنعقدة على بعضها قد

بدأت تتفكك، وتتابئت، كل هـذا والثلاثـة يحدقـون بي، إلى أن شعروا معي أن نوبة العطس قد خفت، إلى أن تباطأت، وأخيراً اختفت!

«ما هذه الحقنة يا حكيم؟». ابرة «ڤاليوم»، إذ يبدو أن السيـدة تعـرضت إلى كثـير من الضغط، وحصرت نفسهـا حتى أقصى مقدرتها، وأتى التعبـير عن انفجارهـا عن طريق نـوبة العطس هذه.

وهكـذا اكتشفت أنـا، مـدى حسـاسيتي، واقتنـع زوجي أن ضيقي لم يكن مبـالغـاً، لكنـه مـا بـرح حتى اليـوم يصرّ أن حساسيتي مفرطة، ولا أعرف إذا لموهبة الكتابة علاقة بذلك.

جعلتني هذه الحادثة اكتشف أن هناك روحاً كامنة في وجداني، مخبأة في ذات عمق معينة، وكأنها تحيـا على انفـراد، فتتفاعـل مع ذبذبات العالم الخارجي، وعندما لا تبدو المعاناة ظاهرة على تصرفاتي، تكون قد ترسّبت هنـاك، في تلك الـذات الأخرى التي تتلقى الصـدمـات، وتقـاوم، أو تنحني، أو تتعـذب. أمـين ظـل يتسـاءل لماذا أنـا دوماً أقـاوم احساسـاً غامضـاً بالظلم؟ ومن يظلمني؟ هـو القدر الـذي سلبني اكتمال دورة مشـاعري التي التفت حـول أمي، وتلفتُ حولي، فـوجدت أن أول رجـل يحيا في بيتي، هـو زوجي. ربما انتظـرت منه أن يكـون الحبيب والزوج والأب معاً، ربما اختلط علـيّ الأمر. حتى اليـوم لا أستطيع أن أجيب، ولن آخذ تحليل أي طبيب نفساني كجواب قـاطع، فـأنا أعلم من الطبيب بحقيقة مشاعري، ولو أن أحـدهم سبق وجزم لي أن كـل مشاكـلي العاطفيـة نابعـة من ممات والـدي في سن مبكرة من حياتي.

أنا لا أشعر أني مظلـومة. لم أشتـك لأحد أني مظلـومة. لـديّ مشاكل مثل غيري، ربما مشاغلي النفسية أكثر تركيبـاً وتعقيداً من معاناة الانسان العادي، لكنها ليس لها أي عـلاقة بـالظلم.

إن ما أعي فقدانه في معظم مراحل حياتي هو رغبتي التي كنت أجهر بها بلا عقد ولا ارتباك في حاجتي إلى الانتماء. الانتماء إلى وطن، إلى مجموعة، إلى مدرسة فكرية، إلى حزب، إلى تنظيم. ولم أحلّل التناقض بين ضرورة الشعور بالانتماء برفضي لمعظم المفاهيم التقليدية. ما أود أن أسجّله هو أني كونت لنفسي قيماً عشت وفق قوانينها وأخلصت لصدقي مع ذاتي. لم يهمني ماذا قيل عني، طالما ظللت صادقة مع نفسي. ولا أظن أنني سوف أسترسل في تحليل نفسي اليوم، بعد فوات الأوان، فقد أصبحت ما أنا عليه، ونادرة المواقف التي أشعر بالندم لممارستها.

لقد استقر حالي، بعد أن أصبحت واحدة مع ذاتي الكامنة في أسرار وجداني. ولولا هذا الشعور، لما استطعت أن أكتب ما سطرته، ولما رغبت بذلك أصلاً، فمن الجميل أن يعرف الانسان تلك السكينة الرابضة بجلال في أعماقه. ربما خف قلقي بمساعدة الأدوية التي أتناولها، ربما انخفضت حدته لأني تعديت سن الرشد بكثير، ربما وجدت في ابني ما لم أجده في الحياة. فهو بسمة المستقبل في قلبي، وروح الأمل في نفسي التوّاقة الطموحة إلى ما هو أفضل موقع في الدنيا من أجله. ربما كل هذا، المهم هو أني ما زلت أصعد بحماسة على سلم الحياة، ولكن بتأنّ.

وما يقال عن رمزي لا يمكن أن يحصر عن أمين بتعابير وجدانية مهما بلغ عمقها. أمين الوتد. أمين «الحلم» الذي عرف أعجوبة التحقق. حلمت به كرفيق للحياة، وما زلت أحلم بتجدد هذه الحياة، وما زال عندي طموحات ورؤى أحاول أن أجتذبه إليها. أمين «التحدي» الملفوف بطيات نادرة من الحنان الفائض، هل يلبي أحلامي الفوارة، أم يكتفي بما أنجزناه معاً؟

أنا أقول لكليهما: «أيتها الأيام القادمة، لا تقحمي موتي في

ثناياك، فجمرتي ما زالت تتشكل. الحرب انتهت، وحروبنا مع الدنيا لن تنتهي، فالأهم هو أن نظل نتحقق، ونظل ننتصر!».

أنا لست غاضبة على ما فاتني، لكني حزينة. يلبسني حداد هادىء، فالأسود الذي يحمل كل الألوان، هو الليل الذي عاد ألينا بلا قذائف وبلا غربة، يحمل خوفاً لا يخبت. طالما هناك حياة تتوالد في الانسان، طالما يتكوّن الحزن. الحياة بلا حزن، مرور عابر على سطح السنوات المتتالية، فلا انغماس فيها، ولا تفاعل بها. الموسيقى حزينة، والجمال حزين، ونبرات الحب دوماً تتماوج بالحزن. هديل الحمام، وهجرات العصافير، واللقاء والفراق. والحزن يسبح بين ألوان الفن وأشكاله، ويخترق أعظم فرحة، ويقول للإنسان: «قف! انتبه!».

متى يكف الراوي عن السرد؟

وهل تأتي اللحظة التي يتمنّى فيها الإنسان صدقاً أن يموت؟ فيزم شفتيه ويعتصم بالصمت؟

أنا ما زلت أرنو بشغف إلى مشط أمي وهي تسرح لي ضفيرتيّ، ففي لمس الشعر دغدغة دافئة مخدّرة. إنها لمسة حبيب، إنها كقبلة الحبيب. أما الشرائط الملونة، فقد ملأت طفولتي شعوراً بالاحتفال بي، بالاهتمام الفائق بمظهري وشكلي وانتمائي.

شرائطي الملونة رمز الحنان والعناية المرموقة، أحس بغيابها عني في فترات قسوة الحياة المرّة، وأحن إليها وأحس أني على وشك أن أقفز نحو حضنها، وأصيح من أعماقي «آه يا أمي».

إن ما سردته هو من الوقفات المهمة في حياتي، مترعة بالتجربة. لست نادمة على أي منها. كشفت عنها وأنا أقول لنفسي كما كنت أقول في صباي: أنا بحاجة إلى حياتين أو ثلاث لكي أحقق كل ما صوره لي خيالي... وشرائطي الملونة.


1855132621